UNIVERSAL
LIBRARY

*

الاهداء

الى الاستاذ الصديق احمد لطفى السيد بك
تحية تلميذ ، وتحية صديق

طه حسين

١٧ يناير سنة ١٩٢٥

*

مقدّمة

وانما أسمى هذه الاسطر مقدمة لأن الناس تعودوا تسمية مثلها مثل هذا الاسم فليست هي فى حقيقة الأمر مقدمة وما كان مثل هذا السفر ليحتاج الى مقدمة وقد قرأ الناس فصوله كلها فى « السياسة » فهم يعرفونها بأنفسهم ولا يحتاجون الى أن يقدمها اليهم أحد وما كان هذا السفر ليحتاج الى مقدمة وأنت لا تكاد تقرأ فصلا من فصوله الا وجدت فيه مقدمته الخاصة — ما كان هذا السفر ليحتاج الى مقدمة فأنا أسميه سفرا لا لشيء الا لانه مجلد يجمع طائفة من الصحف قد ضم بعضها الى بعض فانت تستطيع أن تسميه سفرا وأنت تستطيع أن تسميه كتابا لان هذه التسمية صحيحة صادقة من الوجهة اللغوية الخالصة وهى ان صحت وصدقت من هذه الوجهة فهي ليست صحيحة ولا صادقة بالقياس الى الصورة التى أتصورها لما اسميه بحق سفرا او كتابا . ليست هذه الصحف التى اقدمها اليك سفرا ولا كتابا كما اتصور السفر والكتاب . فانا لم اتصور فصوله جملة ولم ارسم لها خطة معينة ولا برنامجا واضحا قبل ان ابدأ فى كتابتها وانما هى مباحث متفرقة كتبت فى ظروف مختلفة وايام متقاربة حينا ومتباعدة حينا آخر فلست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يصدر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأسفارهم بل أنا اذهب الى بعد من هذا فأحدثك فى غير تحفظ ولا احتياط أنى مهما أكن قد تكلفت فى هذه الفصول من جهد ومشقة فانى لم أعن بها العناية التى تليق بكتاب

بعده صاحبه ليكون كتابًا حقًا ، انما هي فصول كانت تنشر في صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعا فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكه بقراءتها من يتفكه ، ولم يكن بد لكاتبها من ان يتجنب التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا. ولقد يكون من الحق علىّ لنفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول ان اعترف بأني ما كتبت منه فصلا الا وأنا أعلم أنه شديد النقص « محتاج » الى استئناف العناية به والنظر فيه ، وانا أقدر ان سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكنني من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى اذا فرغت منه ونشره السياسة عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها معتزما ان استأنف العناية به والنظر فيه مستحييا ان اقدمه الى الناس على ما فيه من نقص وحاجة الى الاصلاح . والايام تمضي والظروف تتعاقب مختلفة متباينة اشد الاختلاف واعظم التباين ولكنها متفقة في شيء واحد هو انها كانت تحول دائما بيني وبين ما كنت أريده من تجديد العناية واستئناف النظر . واى الكتّاب واى الباحثين لا يشكو مثل هذا في مثل هذه الأيام التى نعيش فيها ؟ أليس كل الناس يحس في هذه الايام كأن شيئا قد طرأ على حركة الزمان فأفسد نظامها وغير اطرادها فهي مسرعة الى حد لم نعهده من قبل ولا نستطيع معه ان ندبر أمورنا ونقدر حياتنا وحاجاتنا كما نحب ونهوى . حركة الأيام أسرع من حركة النفوس حتى لقد يخيل الىّ ان اليوم في هذا العصر لا يكاد يعدل ساعات من ايامنا تلك التى قضيناها قبل ان تطرأ على مصر هذه الطوارىء السياسية التى تغير فيها كل شيء .

لم أفرغ اذن لهذه الفصول كما يفرغ المؤلف لكتاب ولم أعن اذن بهذه الفصول كما يعني الباحث المحقق ببحث علمي وادبي قيم ، ومع هذا فقد لقيت من الناس رضى وصادفت من نفوسهم هوى فرغبوا الى في ان أضم بعضها الى بعض واجمعها في كتاب منفرد يمكن حفظه والتصرف به على غير ما تحفظ الصحف السيارة ويتصرف بها. ولقد أعرضت عن هذه الرغبة حيناً لا لشيء إلا لاني كنت ارجو أن تتيح لى الايام شيئا من فراغ البال يمكنني من استئناف النظر في هذه الفصول وتهيئتها للجمع والنشر ولكن الايام لم تتح لى ما كنت ارجو وما احسب انها ستتيحه لى قبل أمد بعيد. واخذ الناس يلحون على وتجاوز بعضهم الالحاح الى اللوم فكتب الي ينكر على أني أذنت بجمع القصص التمثيلية في كتاب وابطأت في جمع احاديث الاربعاء ويسألني أكان مصدر هذا ازدراء للأدب العربي واسرافا في حب الادب الاجنبي . كلا يا سيدي الاستاذ انما كان هذا ضنا بالادب العربي وإكباراً له أن ننشر فيه فصول ناقصة شديدة الحاجة الى «الاصلاح» واذ كنتم قد ألححتم من جهة وأبت الظروف على ما كنت أريد من جهة اخرى فدونكم هذه الفصول كما كتبت وكما نشرتها السياسة. لم أغير فيها حرفًا ولم أضف اليها شيئا ولم اصلح مما فيها من الخطأ قليلا ولا كثيراً . قد نشرتها صحيفة سيارة فأصبحت حقا لكم فانا ارد اليكم هذا الحق ولست اسألكم الا شيئا واحداً : هو الا تنظروا اليها نظركم الى كتاب في الادب العربي قد فرغ له صاحبه وعني بتحقيقه وتمحيصه .

قلت ان هذه الفصول ليست متصلة ولا ملتئمة ولا خاضعة لهذه الفكرة المتحدة التي يصدر عنها المؤلفون في تأليف كتبهم ومع ذلك فقد

صدرت هذه الفصول عن كاتب واحد وذهب فيها هذا الكاتب مذهبا واحدا وقصد بها الى غرض واحد فهي متحدة مؤتلفة مهما تختلف ومهما تنقصيا هذه الفكرة الواضحة المنظمة ، متحدة فروح الكاتب فيها واضح بين ومذهب الكاتب فيها ظاهر جلي وغرض الكاتب فيها لا يحتاج الى ان يدل عليه. بل اشتركت فيه الدولتان العباسية والاموية وهي لا تكاد تتجاوز طائفة بعينها من هؤلاء الشعراء وأصحاب المجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة . وهي لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحي هؤلاء الشعراء جميعا هي ناحية مجونهم واسرافهم وما كان لذلك من أثر في حياتهم العقلية وما كان بين ذلك وبين الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك البيئة من صلة . ولعلك تذكر (وان كنت قد نسيت فستذكر) ان النتيجة الواضحة التي انتهت اليها هذه الفصول كلها هي ان هذا العصر الذى انحلت فيه الدولة الاموية وقامت فيه الدولة العباسية قد كان عصر شك وعبث ومجون او كان الشك والعبث والمجون اظهر مميزاته. وانا اعلم أن هذا لا يعجب الناس ولن يعجبهم وأنا أعلم انهم كرهوا وسيكرهون ان يعمد كاتب الى مثل هذه الناحية من نواحي الادب العربي فيدرسها درسا مفصلا ويدل الناس على دقائقها واسرارها ولكنى مع ذلك عمدت اليها وسأعمد اليها متى أتيح لى ذلك لانى أعلم ان حياة القدماء كلها ملك التاريخ وان درس هذه الحياة كلها نافع المؤرخ والاديب بل واجب عليهما وان من الاثم وتعمد الجهل ان نتكلف اخفاء ناحية من النواحي الادبية ربما كانت احق من غيرها ان تدرس ويعني بها الباحثون وما كان لى ولن يكون لاحد من الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته ان نغير التاريخ أو ان نظهر عصرا من

عصور الامة العربية على غير ما كان عليه . فنحن لم نخلق ابانواس واصحابه ونحن لم نلهمهم اللهو والمجون ونحن لم نبعثهم على العبث وطلب اللذة ولكننا وجدناهم كذلك فكنا بين اثنين اما أن نجهلهم واما أن نعلمهم فآثرنا الثانية على الاولى واعتقدنا ان العلم خير من الجهل وان الصواب خير من الخطأ وان الشجاعة فى التاريخ خير من الجبن فيه ونحن نعلم حق العلم ان ليس على عقول الناس ولا اخلاقهم خطر من مثل هذه المباحث الادبية فالناس لم ينتظروا لهو ابى نواس واصحابه ليعرفوا اللهو والناس لم ينتظروا هذه الفصول وامثالها ليعرفوا العبث ونحن لم نكتب هذه الفصول وامثالها لنحبب العبث الى الناس ونرغبهم فيه فان فى ظروف هذه الحياة التى نحياها مرغبات فى اللهو ومحرضات على العبث اقوى وابلغ من لهو ابى نواس وعبث مطيع وحماد . قل ما شئت فى هذه الفصول فانى تستطيع ان تنكر ان لها نتيجتين قيمتين الاولى انها جلت ناحية من نواحى تاريخ الادب العربي لم تكن واضحة ولا بينة وليس هذا بالشيء القليل ، الثانية أن فيها ضربا من مناهج البحث احسب أن الادباء لو يفهمونه لاستطاعوا أن ان يستغلوا هذه الكنوز القيمة التى لا تزال مجهولة والتي نشأ من جهل الناس الناس اياها غضهم من الادب العربى وانصرافهم عنه فى أنفة وازدراء .

إن الذين يزدرون الادب العربى ويغضون منه يجهلون هذا الادب جهلا منكرا، وما كان لمن جهل شيئا أن يحكم عليه .

فكرت فى هذا كله حين ألح على الملحون فى نشر هذه الفصول فانتهيت الى أن اذنت بنشرها كما هي وأنا أرجو أن يكون لها ما أطمع فيه من أثر فى فهم الادب العربى وكتابة تاريخه

طه حسين

القدماء والمحدثون (١)

الجهاد بين القديم والجديد — مصدره ونتائجه فى فروع الحياة المختلفة
مظاهره فى الحياة الادبية — آثاره العظيمة فى الادب اليونانى
وآثاره الضئيلة فى الادب العربى

لم يخل عصر أدبي فى حياة الأمم التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى إتقان القول وإجادته من هذه المسألة: مسألة القدماء والمحدثين. ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافا عظيما وجدالا عنيفا. وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساما ثلاثة: قسم يؤيد القدماء تأييدا لا احتياط فيه، وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف.

كذلك كانت الحال قديما، وكذلك كانت الحال فى هذا العصر الذى نعيش فيه. وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والحديث ليس مقصورا على الأدب وحده، وإنما هو يتناول كل شىء. يتناول الفن والعلم، ويتناول الفلسفة ويتناول الحياة نفسها فى فروعها المختلفة المادية والسياسية والاجتماعية.

---

(١) نشرت بجريدة السياسة فى ١٧ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ﻫ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢م

وذلك معقول، لأن الحياة الانسانية كما قلنا غير مرة تقوم على أساين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما، هما البقاء من ناحية، والاستحالة من ناحية أخرى، فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى إن لم تكن نفس حياتنا قبل الان فهى أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها.

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهى تغايرها من وجوه. واذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة اليه، وبين الشعور بالتطور والحاجة اليه مترددون فى ميولنا وأهوائنا وآرائنا. فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون إلا ابن أمسه وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا نعرف لها أولا ولا آخرا وهى سلسلة الحياة. ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة فيكلف بالجديد ويرغب فيه ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف فلا يفكر الا فى شىء واحد هو أن يعدو وأن يعدو ما استطاع الى الأمام دون أن يقف فيفكر فى حاضره أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه. ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين بين أنصار القديم المسرفين فى نصره وأشياع الجديد الغلاة فى التشيع له. يشتد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء

وانما هى محققة لهذين الأصلين تحقيقا طبعيا غير متكاف ولا منتحل .

تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الأمة والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية فى كل ضرب من ضروب الحياة العامة عقلية كانت أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعيـة . وهى منتجة نتائج تختلف قوة وضعفا باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها فى الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة ، لا تتجاوز الخصومات اللفظية إلا قليلا . وكذلك الحال فى الحياة العقلية الفلسفية . فأما فى العلم فانتصار الجديد يسير محقق لا خوف عليه ولا شك فيه . لأن العلم قد أصبح أقل الاشياء الانسانية استعدادا للخلاف والمناقضات .

ولكن هذه النظرية إذا ظهرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت فى اكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها . لان الحياة الاجتماعية والسياسية هما أشد ضروب الحياة مساسا بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها . والانسان بطبيعته عبد لمنفعته . يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا لم نعلم أن خلافا أدبيا فى أسلوب الشعر والنثر أو أن خلافا فى نظرية من نظريات الفلسفة أو أصل من أصول العلم أحدث ثورة سفكت فيها الدماء وأزهقت فيها النفوس واختل لها نظام الأمن ، حينما الاختلاف فى تقسيم

الثروة أو فى نظام الحكم كان ـ وسيظل دائما ـ مصدر هذه الثورات التى أشرنا اليها .

وما لنا نذهب بعيدا ونحن لا نعلم أن شاعرا قتل شاعرا آخر لانه يخالفه فى الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفا قتل فيلسوفا آخر لانه يخالفه فى أصل من أصول الفلسفة . لا نعلم شيئا من هذا ، ولكنا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد . وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة خلاف مصدره السياسة أو مصدره المال . لا تذكر لى الخلافات الدينية التى أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد . فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات فى الحياة العقلية أو الادبية أو الفنية الخالصة . وانما أحدثتها من حيث إنها اختلافات فى ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها

ستقول لى : ولكن الاختلافات فى السياسة والاقتصاد وما اليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة انما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والادبية والفنية . وليس فى هذا شك فان سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها . ولسنا نزعم أن الحياة الادبية مصدر الخير الخالص . وانما نزعم أن هذه الحياة أشد ضروب الحياة الانسانية براءة من العنف والظلم والشر لانها تكاد تنحصر فى الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال

اذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، وأن يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الجديد فيصبح هذا الجديد قديما ويظهر جديد آخر يحاربه

ولعل من ألذ أنواع الجهاد بين القديم والجديد وأحبها الى النفس هذا

الجهاد الذى يقع بين الشعراء والكتاب فى عصورهم المختلفة . هذا الجهاد لذيذ لأنه برىء . ولذيذ لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية . أحدهما قد أخذ يضمحل وينمحي . والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا فى أول هـذا الفصل إن الأمم التى كان لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القـدماء والمحدثين . ولكنا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هـذا الاختلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتا عظيما باختلاف الأمم والأجيال . فهو منتج جداً فى أمة من الأمم . عقيم جدا فى أمة أخرى . معتدل الانتاج فى أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هـذه الأمم والأجيال . فقد يختلف القدماء والمحدثون فى الالفاظ . وقد يختلفون فى المعاني . وقد يختلفون في الألفاظ والمعنى . وقد يختلفون فى الانواع الفنية نفسها فتظهر الحياة الأدبية فى هذا العصر فى صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئا .

أنظر إلى الأمة اليونانية مثلا وإلى الشعر تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر فى لفظه ومعناه فحسب وانما استتبع تطوره فى نوعه أيضا . فكان الشعر القصصى مظهر الشعور اليوناني أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها . فلما عظم حظها من الحضارة المادية وأخذ عقلها فى التفكير وذاقت لذة الترف والثروة كان الشعر الغنائي مظهر شعورها . فلما قوي نصيبها من الحضارة وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة . وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها كان الشعر

التمثيلي مظهر شعورها . فالخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيما معقداً مختلف المناحي لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع حينما هو عند الأمة العربية ضيق محصور لا يكاد ينتج شيئاً ، لانه لايتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعاني فى عصر من العصور هو أول العصر العباسى . ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والاسلاميين . وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارها شعر جرير، لأن هذا «المولد» كان مجيدا . ثم ظهر الخلاف فى منتصف القرن الثانى بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين، أى ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الادباء ، وبين امرىء القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر ، ثم ظهر الخلاف فى القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحترى وأبي تمام ، والذين كانوا ينتصرون لابي نواس ومسلم، ثم ظهر الخلاف فى القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبي والذين كانوا ينتصرون لابى تمام . فأنت ترى أن كل هذا العصر الادبي الذهبي عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين . وليس عليك الا أن تنظر فى كتب الادب على اختلافها لترى هذا المقدار الموفور من الكلام الكثير الذى قيل وقيل وقيل فى الانتصار للشعراء وتفضيل بعضهم على بعض سواء منهم أبناء الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلا وعصرا . ولكني أريد أن أعلم فيم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ؟ وما نتائجه الكبرى ؟

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شىء فى اللفظ ثم فى المعنى ثم لم يتجاوز هذين الامرين . كان القـدماء والمحدثون أيام بني أمية يختلفون فى اللفظ اختلافا ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياسا لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصينا يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيداً ، أي أن جزالة اللفظ وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية فى العصر الجاهلى كانت هى المزية الأولى للشاعر . ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه فى أول العصر العباسي فاختلف الشعراء العباسيون واختلف معهم الأدباء واللغويون فى أى الشعرين أجمل وأرق وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والاسـلام فى متانة اللفظ ورصانته وبداوته . أم الشعر الذى يتخير الالفاظ السهلة العـذبة التى ألفها الناس عامة لا علماء اللغة خاصة ؛ وظهر إلى جانب هـذا خلاف آخر فى المعنى فاختلف الشعراء في معانى الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعرابية . أم تتحضر كما تحضر الناس ؛ أتصف الاطلال والخيام والصحراء والابل والخيل والسلاح ، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والأنهار والرياض والمدن ؟ ثم أتتناول الشعور الانسانى فتصفه لا كما يشعر به الناس فى بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر بل كما كان يشعر به الأعراب فى باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هـذه المستحدثات الحضرية والمستطرفات التي لم يعهدها الاعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذى هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والاجداد ؟

ظهر هذا الخلاف وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجا وأكثرها خصبا لان أنصار الجديد وعلى رأسهم أبو نواس أقدموا غير خائفين ولا وجلين فوصفوا لنا الحياة الجديدة دقيقها وجليلها ، مفصلها ومجملها ، فجددوا الشعر من ناحية ، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ماعرف العرب من اختلاف فى الشعر بين القدماء والمحدثين : اختلاف فى اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التى أخرجت أبا تمام والمتنبي وأمثالهما من أصحاب البديع . واختلاف فى المعنى نشأت عنه مدرسة أبى نواس التى أخرجت البحترى وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ، ولم يتكلفوا بديعا ولا استعارة ولا جناسا

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربى من اختلاف بين القدماء والمحدثين ، وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشىء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربى فى موضوعه ولا فى صورته ولا فى نوعه. ولم يتغير فى لفظه ومعناه الا تغيرا قليلا جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى ، وبقى موضوع الشعر كما كان مدحا وهجاء ورثاء ووصفا وغزلا ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير . ولم يكن تجددها جوهريا ولا مطرداً ، وانما هو التجدد الذى يكفى ليشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد. وقد مضت القرون وتعاقبت والشعر العربى فى لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديمًا لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذى أشرنا اليه .

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة وأن نتبين الاسباب القوية التي أكرهت الشعر العربى المحافظ على أن يتطور قليلا . ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك فى الاسبوع الآتي

القدماء والمحدثون (١)

رأينا فى الاسبوع الماضى أن الآداب العربية قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التى تشترك فيها الآداب الحية جميعاً: ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين. ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه لم ينتج لهذه الآداب شيئاً كثيراً فى الشعر على أقل تقدير. وسنعرض للنثر فى غير هذا الفصل.

لم ينتج لها شيئاً كثيراً، فظل موضوع الشعر كما كان لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات وظل شكل الشعر كما كان لم يخترع فيه شكل جديد ولم تضف اليه صورة طريفة، وإنما بقيت القصيدة مظهرا للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها، واذن فلم يحدث تطور الامة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئاً ذا خطر فى موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون، وإنما أحدث شيئاً جديداً في لفظ الشعر ومعناه كما قلنا فى الفصل الماضى. وربما اضطررنا الى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشىء الجديد كان أقل جدا مما كنا ننتظر، فان الحياة العربية تطورت فى القرن الاول والثاني للهجرة تطورا يوشك أن يكون كاملا، بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت فى هذين القرنين تبدلا تاما، فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب؛ فتتجدد هذه

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٢

الآداب كما تجددت الحياة نفسها . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . فبينما كانت الحياة فى بغداد أبعد ما تكون عن الحياة فى صحراء جزيرة العرب. من كل وجه كان الشعر الذى ينشد فى بغداد شديد القرب جداً من الشعر الذى كان ينشد فى تلك الصحراء . واذن فنحن بإزاء ظاهرتين لا بد من تفسيرها : الاولى أن الحياة العربية قد تطورت تطوراً كاملا وأن الشعر العربي قد تطور معها تطوراً ما . الثانية أن تطور الشعر لم يكن مناسبا لتطور الحياة فى جميع فروعها . وربما لم يكن من العسير جدا تفسير هاتين الظاهرتين . ذلك أن الامة العربية قد خضعت خضوعا تاما لمؤثرين مختلفين اختلافا تاما ، فبينما كان أحدهما يدفعها دفعا قويا إلى الامام فتندفع ، كان الاخر يجذبها جذبا قويًا إلى الوراء فتنجذب . كانت تندفع إلى الامام اندفاعا قويًا فى الحضارة المادية ، يدل على قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحدائقها ورياضها وما تشتمل عليه هذه القصور والحدائق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها ، وبين خيام الصحراء وما كانت تحتوي من مظاهر العيش الخشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب الى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية. فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط فى صيانتها من التطور وآثاره السيئة واجب دينى لا سبيل الى جحوده أو التقصير فيه .

اذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب الى الامام، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء ، وكان العقل العربى بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه

مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يبطىء فى حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أو ذلك . ومن هنا كان التناقض ظاهرا بين حياة العرب المادية فى تفصيلها وبين حياتهم الأدبية فى إجمالها ، فكانوا أحراراً فى الحياة المادية ، محافظين فى الحياة الادبية . وكان الشعراء الذين يجرءون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولون تحرير الشعر قليلا أو كثيراً موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر ولا ضئيلة الأثر فى الحياة العامة . كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الائمة والعلماء من رجال الدين ، لان هؤلاء الائمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراص على القديم أعداء لكل جديد . وكان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الائمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية مضطرون الى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب بل بألفاظها وأساليبها أيضا ، فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها فتستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهى الفقهاء والوعاظ ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الاكل والشرب واللباس والزينة وما الى هذا من ضروب الحضارة . أضف الي هذا كله أن الامة العربية بفطرتها حريصة على سنتها القديمة محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وأن الآداب العربية القديمة فى نفسها جذابة خلابة محببة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب ، فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين كموقف

الفلاسفة المجددين ثقيلا شديد الحرج، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفى وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب.

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون فى العصر العباسى ضروبا من المحن تختلف قوة وضعفا باختلاف الخلفاء والوزراء كانوا محببين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء، فكثير من هؤلاء الخلفاء والوزراء كان يحب شعر بشار ويلذ لشعر أبى نواس، ومع ذلك فقد ضرب بشار حتى مات، وحبس أبو نواس فى عصر الرشيد كما حبس فى عصر الأمين، ولو أدركه المأمون لقتله ولو كان إعجاب المأمون بأبي نواس شديدا جدا. ومصدر هذا التناقض فى سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريهم كانوا يحيون حياتين مختلفتين: حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية، فهم من هذه الناحية محافظون؛ وحياة لانفسهم ولخلصائهم فى القصور ومن وراء الحجب يتركون فيها لانفسهم حريتها الفطرية فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقترفون ضروبا من الآثام. أضف الى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب، وانما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس. فكان الشاعر أو المفكر لا يفتن لانه شاعر أو مفكر فحسب، بل قد يفتن لانه يرى رأيا سياسيا لا يراه السلطان، لانه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع، لأنه يرى رأى العلويين، لانه يؤثر الفرس على العرب، الى آخر.

هذه المسائل الكثيرة التى نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين.

كل هذه الاسباب جعلت تطور الأدب عامة والشعر خاصة بطيئا قليل الإنتاج. ولكن هناك سببا نعتقد أنه هو السبب الاساسي الذى حال بين الشعر العربى وبين ما كان ينتظر له من التجدد، هذا السبب هو أن الامة العربية لم تعرف من آداب الامم الاخرى شيئاً يذكر ولم تخالط هذه الامم الاجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جدا، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة وتنفا من الحكم والامثال، فجهلت الامة العربية جهلا تاما أو جهلا يوشك أن يكون تاما آداب الامة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الموفور، ولم تكد تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية وروايات مشوهة فى الحكم والامثال وسياسة الملوك، ولم تكد تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم وقليلا من المواعظ والوصايا. ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبى جديد يحتذونه ويسعون فى تقليده ومحاكاته، فظلوا على ما كانوا عليه يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه لا يجددون من هذا كله الا ما يضطرهم الى تجديده نوع الحياة الجديدة الذى هم فيه. وهم فى هذا التجديد القليل نفسه مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية. وقد علمنا تاريخ الأدب فى جميع العصور وعند جميع الأمم أن الحضارة المادية وحدها لا تكفى لترقية الشعر ودفعه فى سبيل التطور المنتج وانما يجب أن تضاف الى هذه الحضارة المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة

الأدبية للشعوب الاجنبية، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الامم المعاصرة لما تطور شعرهم هذه الأنواع المختلفة من التطور. وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم، وقل إن الامم الاوربية مدينة بتطور آدابها لهـذه الحركة التى حدثت فى عصر النهضة فأظهرت الايطاليين وغير الايطاليين على آداب اليونان والرومان. ويطول القول اذا أردنا ان نذكر أثر الاختلاط بين الامم الاوربية نفسهـا فى الآداب الاوربية الجديثة. وقد حرم العرب هذا الاختلاط فحرم الادب العربى نتيجته وهى التجدد المنتج، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية، فجهلوا الشعر القصصي والشعر التمثيلى، وجهلوا من الشعر الغنائى نفسه فنونا كثيرة وضروبا مختلفة، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربى وتجدد تجدداً ما، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هـذا التجدد وما قيمته، وأين يوجد الفرق الواضح القوى بين الشعر العربى الجديد والشعر العربى القديم؟ وموعدنا بهذا الفصل الآتى

القدماء والمحدثون (١)

تجدد الشعر فى العصر الاموى — الغزل الاباحى — والغزل العفيف — الشعراء المتوسطون بين هذين الفنين

نظلم العصر الأموي ونظلم معه تاريخ الادب العربى إن زعمنا أن التجديد الذى تناول لفظ الشعر ومعناه انما حدث فى العصر العباسى خاصة. فان العصر الأموى قد كان عصر تجديد أيضا ، بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر فى اللفظ والمعنى ، وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجا من عصر العباسيين ، فقد حاول الشعر فى هذا العصر أن يتجدد لا فى لفظه ومعناه فحسب بل فيهما وفى الموضوع أيضاً . ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقاً تاما لأن عصر الامويين لم يطل ، ولانه لم يكن عصر ثبات واطمئنان وانما كان عصر تحول وانتقال . وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسى ما بدأه العصر الأموى من تجديد موضوع الشعر . ولكنا سنرى فى غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربى لأن العصر العباسى سلك بالامة العربية طريقا جديدة مغايرة مغايرة شديدة للطريق التى سلكها العصر الاموى .

لم يكد يمعن المسلمون فى الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة والروم من جهة اخرى حتى تغير كل شىء فى حياة الطبقة العليا

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢ جماد الأولى سنة ١٣٤١ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢

من الامة العربية . وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادي وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين فى هـذا الفتح والتغلب من المال والغنائم الموفورة التى بدلت حياة هؤلاء الناس فجعلتها يسيرة بعد عسر، سهلة بعد صعوبة، لينة ناعمة بعد شدة وخشونة . والثانى معنوى، فقد رأى العرب فى هذه البلاد المفتوحة نظما للحكم والسياسة لم يألفوها ، وطرقا للادارة وتدبير الامور العامة لم يعهدوها من قبـل ، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية أيضاً . ونتج عن هذا التأثر المزدوج أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة ، وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التى كانت بدوية فى كل شىء ملكا حضريا فى كل شىء . وما لبثوا أن وفقوا الى الأمرين جميعا

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قوية فى حياة العقل والشعور ، فان الحضرى يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوي فى شعوره وتفكيره ، وكذلك يشعر الرجل الغنى المنعم الذى لا تشرق عليه الشمس الا اشتد طمعه فى اللذة والنعيم بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذى أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة . ثم إن الأمة العربية كانت أمة عصبية شديدة فلم تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم أو تذعن لسلطان ثابت الملك ، وانما كانت قبائل وشعوبا ، ترى كل قبيلة منها لنفسها السيادة والسلطان . وكان هنالك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبيـة أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة، وكانت هنالك فكرة جديدة

تحاول أن تمحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة . ومن هنا كان تجدد الشعر ملائما كل الملاءمة لتجدد الحياة . فنشأ عند العرب فى عصر بنى أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما : الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة وهو الغزل . وليس ينبغى أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب، فنحن نعلم ذلك ولا نشك فى أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وانما نريد أن فنا جديدا قد نشأ فى هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه لا ليتخذ وسيلة لشىء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذى يعنى به شاعر قد فرغ من كل شىء ، فحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه، فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات وأن يغنيها فى شعره ، لا أكثر ولا أقل . ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ، فلسنا نعرف فى العصر الجاهلى شاعراً قصر شعره على الغزل وحياته على الحب والغرام، وانما كان الغزل كغيره من فنون الشعر، أو بعبارة أصح كان وسيلة الى غيره من فنون الشعر : كان العرب يبدءون قصائدهم مهما يختلف موضوعها بوصف الطلول والنساء ، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر . وقلما كان الشاعر العربى قبل الاسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل . وليس الامر كذلك فى عصر بنى أمية ، فقد نرى فى هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لأنفسهم صناعة وفنا مختارا لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون

ولا يهجون ، وانما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء فى أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فان طابت اليهم القول فى شىء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفى الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفا متنوعا فى هذا العصر باختلاف الشعراء واختلاف ضروب الحياة التى كانوا يحيونها . فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم وافتنانهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة ذلك الذى أقام بمكة فاتخذ كل شىء وسيلة الى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول وانما أضاف اليهما حياة عملية فيها شىء من اللذة والترف كثير . وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون الى وصف اللذات وما تستتبعه ، وانما يقصدون الى شىء آخر ، يقصدون الى وصف العواطف الحارة الصادقة التى تعذب صاحبها وتعنّيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وانما اللذة الوحيدة التى يجدها والتى هو بها كلف وعليها حريص هى لذة الألم بانه يحب ويحب من لا سبيل الى وصله أو التقرب اليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء جميل الذى أمضى حياته وقصر شعره على حب بثينة ، لا يطمع من هذا كله بشىء الا الشعور بانه يحب وبان حبه لا حد له ، وبان هذا الحب يضنيه ويعنيه ، وبانه يجد فى هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة ، بل كان يطمع فى شىء آخر وهو أن تحس صاحبته ما يدخر لها من حب وما يأتى فى سبيلها من ألم ..

كان عمر بن أبى ربيعة زعيم المتغزلين الإباحيين . وكان جميل زعيم

المتغزلين العذريين . وكان بين هذين الرجلين المتناقضين شعراء يتوسطون في الامر فيبيحون أحيانا ويعفّون أحيانا أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعرى والإجادة فيه أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لانها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ما هر في تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقا مثال للعفة وطهارة القلب ، وانما كان يعنيه أن يقال لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب. وهؤلاء الشعراء كثيرون ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده وانما تناول مع الغزل فنونا أخرى . ومن هؤلاء الشعراء كثيّر الذى تغزل فأكثر الغزل واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصدر حبه الغرامى وهى عزة . ولكنه مدح وارتزق من شعره . واست أشك ـ والرواة لا ينكرون ذلك ـ أن كثيراً لم يكن صادق الحب ولا عفيفه ، وانما كان يتخذ الغزل صنعة ويقفو فيه أثر أستاذه جميل .

واقد راج هذا الفن الجديد في عصر بني أمية رواجا ظاهراً جداً نشأ عنه أن كلف به الشعب فأضاف الى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يوجدوا قط ، وألف لهم فصولا من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على اسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة قيس ابن الملوح وليلاه ، ومن ذلك هذه الاخبار الكثيرة المسرفة التى تضاف الى قيس بن ذريح ولبناه . ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن واختراع المواقف الحرجة المعضلة التى ليس لها حل وليس منها مخاص .

ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذا البيتان اللذان يضافان الى ليلى الأخيلية

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

فانظر اليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير موقف عاشقين كلفين ليس الى وصالهما سبيل ، لان كليهما متزوج ولان كليهما وفى عفيف . لا أشك فى أنك ستقول ليس فى هذا الموقف شىء من الغرابة ، فقد كانت ليلى متزوجة وكان توبة متزوجا ، وليس غريبا أن يكون كلاهما وفيا عفيفا . لا أشك فى أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا ايضا . ولكنى لا أدرى لماذا أميل ميلا قويا جداً الى اعتقاد أن هذا الموقف موقف فنى اخترعته الشاعرة لتجيد فى الفن فهو الى الشعر أقرب منه الى الحياة الواقعة. ومهما يكن من شىء فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند العرب فى هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه مذهب اللذة وذهب الآخرون فيه مذهب العفة . وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة فى هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار الذين ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم وحيل بينهم وبين العمل السياسى لامر ما . ومن هنا كانت مكة والمدينة فى هذا العصر أقرب الى اللهو والمجون والتفنن في اللذة وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخليفة ، وأن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا فى هذا المذهب كانوا من أهل البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا ولم يعرفهم التاريخ كانوا

أيضا يخترعون فى البادية وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضا . ولقد يكون من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم الى المادة والإباحة أقرب منهم الى هذه الحياة العذرية . واذن فقد يحسن أن نفترض أن شعوراً جديداً قد أخذ فى هـذا العصر يستأثر بالنفوس العربية ،وأن هذه النفوس قد خضعت فى هذا العهد الجديد لنزعة جديدة هى الطموح الى المثل الأعلى والسمو الى حياة عقلية وشعورية جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولـكن هذا افتراض لم أوفق الى تحقيقه بعد

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنة الموروثة ويذهبون مذهب الجاهليين فيمدحون ويهجون ويصفون قـد تأثروا بهذا الفن الجديد ، فمع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل فان هذا الغزل نفسه قد رق ولطف فى شعر الفرزدق وجرير والأخطل حتى أصبح الفرق بينـه وبين غزل الجاهليين ظاهراً بينا . فقليلا ما تجد فى شعر الجاهليين غزلا يقارب فى عذوبة اللفظ وسحره وفى لطف المعنى ودقته قول جرير

إن الذين غدوا بلبك غادروا　　وشلا بعينك ما يزال معينا

غيّضن من عبراتهن وقلن لى　　ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فانظر الى هذا الشطر الاخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » انظر الى جمال لفظه وسهولتـه وخفته على السمع وحسن موقعه من النفس . وانظر الى دقة معناه ولطفه،والى سعة هذا المعنى التى لا حد لها والتى عجز الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز فعمد الى

الاستفهام : « ماذا لقيت من الهوى ولقينا»، شيء ليس الى وصفه ولا الى تحديده من سبيل . فهذا هو الفن الاول الذى استحدث فى الشعر العربى أيام بني أمية . ولنختصر :

(نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين : مذهب اللذة، ورافع لوائه عمر بن أبي ربيعة ، ومذهب العفة ورافع لوائه جميل بن معمر . ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون فنهم من اتخذ الغزل صنعة وفنا فحذا حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد فرقّ لفظه وسهل، ودقّ معناه ولطف .)

أما الفن الآخر الذى استحدث أيام بني أمية فهو الشعر السياسى، وقد نشأ عن استحالة الخلافة الى ملك ، وعما كان من حرب بين العصبيات من جهة ومن حرب بين العصبية والدين من جهة اخرى . ولعل من الخير أن نرجىء بحث هذا الموضوع الى حديث الاسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر فى العصر العباسى ـ اسبابه العامة ـ نموذج من نماذج هذا التطور

رأينا أن تطور الشعر فى عصر بني أمية كان قويا منتجا من بعض الوجوه ، فقد تناول اللفظ والمعني وأحدث فنين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسى . وقلنا فى آخر الفصل الماضى إن تغير الحياة العربيــة أيام بني العباس أثر فى حياة الشعر تأثيرا ظاهراً فمحا الفن السياسي محوا . وحول الغزل عن طريقته الأموية . وفى الحق أن الشعر قد سلك فى أيام بني العباس طريقا تكاد تخالف كل المخالفة طريقه أيام بنى أمية ، فنشأت معان جديدة، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة فى وصف هذه المعانى والتعبير عنها ، ونشأ عن هــذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف فى فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن الحياة فى عصر بنى العباس كانت جديدة من كل وجه فانقطعت الصلة شيئا فشيئاً أو كادت تنقطع بين هذه الحضارة البديعة التى كانت تزدهر فى بغداد وضواحى بغداد وبين هــذه البداوة القاسية الخشنة التى كانت تبسط سلطانها على بلاد العرب . فبينما كانت دمشق على حضارتها أيام الامويين ملتقى للجديد والقديم ، وبينما كان الحضرىّ الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة وكان البدوى المعرق فى البداوة يستطيع أيضاً أن يعيش هذه العيشة وكان كلاهما

(١) نشرت بالسياسة فى ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٤١ هـ ـ ٢ يناير سنة ١٩٢٣ م

يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء ، وبينما كان الخلفاء من الامويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم وعلى كثرة ثروتهم وغناهم وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة بادين فى لغتهم وسيرتهم الظاهرة . بينما كانت دمشق وأهلها على هـذه الحال كانت بغداد على حال تخالفها كل المخالفة ، فهى مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنتها فى أرض قد بعد عهدها بالبداوة واختلفت عليها الحضارات الكثيرة ،وأتاحت لها الطبيعة من خصب الارض وثرائها واعتدال الإقليم وصفاء الجو ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنمو فى وقت سريع . فليس عجيبا أن يأنس اليها أهل الحضر وينفر منها الأعراب ومن يشبه الاعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة ولم يبعد عهدهم بالنعيم . كان الحضرى يأنس الى بغداد ،وكان البدوى ينفر منها وينكر نفسه فيها . ولم يكن خلفاء بني العباس يحبون البادية ولا يحنون اليها ولا يتكلفون فى قصورهم عيشة أهلها ، وانما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مُثُلا يحتذونها فى ضروب الحياة . ولم يحيطوا أنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بنى أمية وانما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة . فليس غريبا أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشأم ، وليس غريباً أن ينشد فى بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد فى دمشق والشأم .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت فى هـذا العصر تغيراً شديداً

مختلفاً . فكان السلطان الفعلى للفرس كما قدمنا، وكانت الحكومة المركزية فى بغداد قوية شديدة البطش ممتدة فى الأمصار والاقاليم . ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة، فانمحى هذا الفن الذى أزهر أيام بني أمية ولم يخلفه فى الشعر فن جديد . وهناك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة العقلية . فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الامم الأخرى التى سبقتها الى الحضارة، فلم يقف هذا الاختلاط عند المجاورة والمعاشرة والحديث والتقليد ، وانما تجاوز هذا كله الى ما هو أشد منه وأقوى أثراً فى الحياة المادية والمعنوية ، تجاوزه الى الإصهار والتوالد من جهة ، والى الاختلاط العقلى الخالص من جهة أخرى ، فنشأت أجيال ورثت الى المزاج العربى المزاج الفارسى أو غير الفارسى ، ونقلت الى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان فى الحكمة والموعظة ، وفى الفلك والنجوم، وفى السياسة والاخلاق، وفى العلم والفلسفة ، فلاجرم كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد فى حياة النفس العربية أنتج أدباً لم تنتجه تلك الحياة البدوية الخالصة فى الجاهلية وصدر الاسلام، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة فى أيام بنى أمية ، أنتج أدبا حضريا خالصا يعبر عن شعور حضرى خالص ، ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الاجيال الجديدة لم تقرأ شيئاً من آداب هذه الامم وانما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى : نقول، لولا هذان الشيئان لاستحال

الشعر العربي استحالة أشد وأعظم أثراً وأكثر إنتاجا من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها فى هذه الفصول. ومهما يكن من شيء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية فى القرن الثاني للهجرة تغيراً للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل.

ادرس هذا العصر درساً جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة، هى ظاهرة الإباحة والإسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم، سواء أكان هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدبا. فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطر الخلفاء من بنى العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة، وظهر ازدراء الادب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة، بل ظهر ازدراء الامة العربية نفسها وتفضيل الامة الفارسية عليها، وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله. وليس يعنينا الان أن تكون النهضة السياسية الفارسية، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير، وانما الذى يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر فى الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلا.

فيكفى أن تقرأ شعر أبى نواس وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه من معارضة ومناقضة لتعرف مقدار هذا التغير. ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية فنهض القديم للدفاع عن نفسه واشتد الجهاد بينه وبين الجديد، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى، بالسيف

حين يتعرض الدين أو السلطان السياسي للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة.

ولعل من ألذ ما يقرأ عبث أبي نواس بالفقهاء والمحدّثين، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبي نواس وأمثال أبي نواس . لنيذ هذا الإشفاق وذلك العبث، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة في الحياة العربية . فقد كان أبو نواس محدّثا روى عنه الشافعي، وكان مع ذلك فاجراً ماجنا يذيق المحدّثين ألوانا من الأذى . كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ويشهرون به في دروسهم مرة ثالثة. فكان أبو نواس يجد لكل شيء من هذا جوابا . فيرد الواعظ ردا حسنا فيه شيء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير، ويكذب على من يشهر به حتى لقد نظم مرة شعرا اختلق فيه حديثا رفعه الى النبي ورواه عن أحد المحدّثين المعاصرين ثم كتب هذا الشعر وبعث به الى هذا المحدّث المسكين وكان تقيا ورعا ، وروى ابن عساكر أن صاحبا من أصحاب هذا المحدّث دخل عليه فوجده يبكي ، فلما سأله عن ذلك قال للجارية ، هات الرقعة ، ودفع الرقعة الى صاحبه وهو يقول : انظر الى الفاسق لقد كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، والله ما حدثته بهذا قط . وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتديّنون ويقيمون الصلاة ولكنهم كانوا يعبثون في هذا كما يعبثون في غيره. وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . ولعلهم أقاموا الصلاة في مثل هذه الحال يوما وأمهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ قل هو الله أحد ، فاستحالت الصلاة من خشوع لله إلى

استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس

أكثر يحيي غلطا   فى قل هو الله أحد

وقال العباس بن الأحنف

قام طويلا ساهياً   حتى اذا أعيا سجد

وقال الحسين الخليع

يزحر فى محرابه   زحير حبلى بولد

وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد

كأنما لسانه   شُدّ بحبل من مسد

ومثل هذا ما تحدّث به الجاحظ أن خمسة من الظرفاء ذهبوا الى دير يبتغون الشرب واللهو وإنهم لفى ذلك إذ قام أحدهم يصلى وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم . قالت كم أنتم . قالوا أربعة : وأهملو صاحبهم لانه يصلى ، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال :سبحان الله وعرفت الدلالة أنهم خمسة

كان هذا العصر اذن عصر شك فى كل شىء وعصر مجون وإباحة وتهتك فى الحياة العملية وفى القول أيضا . ومن هنا نجد فى هذا العصر شعراً كثيراً نستطيع أن نقرأه فى الكتب دون ان نستطيع ترديده فى الصحف ، بل فى دار الكتب المصرية كتاب فى أخبار أبى نواس ليس إلى نشره من سبيل ، لان قوانيننا لا تبيحه وليس الى إصلاحه من سبيل لان هذا الإصلاح يذهب بخير ما فيه . على اننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر دون ان نضطر إلى مثل هذا

الفحش اذا روينا لك قصيدة من شعر أبى نواس ولم نحذف منها إلا بيتا واحداً ليس إلى روايته من سبيل . ولكنا نحب أن نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى هذا البيت فى غير إثم ولا فحش لولا أنه تعمد الإثم، لان الاثم والفحش كانا بدع بغداد فى ذلك العصر :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء

. . . .

قامت بأبريقها والليل معتكر   فلاح من وجهها فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الابريق صافية   كأنما أخذها بالعين إغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها   لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها   حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم   فما يصيبهمو إلا بما شاءوا
لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة   كانت تحل بها هند وأسماء
حاشا (لدرة) أن تبنى الخيام لها   وأن تروح عليها الإبل والشاء
فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة   حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت أمرءاً حرجا   فإن حظركه فى الدين إزراء

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقا ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوفة تجرى على ألسنة الناس جميعا فى أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واجد بدوى ، وانما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشئوا فى المدن وامتلأت رءوسهم

بما يملأ رءوس أهل المدن من جد ولعب . بل فى هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية فهو يريد أن يبكى على الخمر لا على الأطلال والدمن :

لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة كانت تحل بها هند وأسماء

فاذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درسا مفصلا رأيت هذه الإباحة فى البيت الذى لم نروه ، ورأيت فى آخر القصيدة بيتا يعتز بالدين نفسه فى نصر هذه الاباحة وتأييدها ، فهو يريد أن يكون ماجنا فاسقا وأن يستمتع باللذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه النظام وأصحابه من المعتزلة تشددهم فى أمر العفو والخطيئة والتوبة ويؤثر مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين . ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة فيلهوا فى مقتبل الشباب حتى اذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلقون على الناس هذا الباب، فلا عجب اذا انصرف عنهم الشعراء وأهل المجون .

ويقال إن أبا نواس لما حضره الموت اختلف اليه أصحابه فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره فى طاعة الشيطان ، وغلا بعضهم حتى أيأسه من الآخرة ، فقال : اسندوني ، وتكلف النهوض وروي حديثا يضمن له عفو الله

• • •

وقد تحدث الرواة بعد موته أنه دخل الجنة لأن أحدهم رآه فى المنام فسأله عما فعل الله به، فقال: غفر لى بأبيات قلتها . وهذه الأبيات فى الزهد

والندم قالها فى مرض موته، وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته، وسنعرض لها حين نعرض لزهد ابن أبى نواس

إلى جانب هذا كله نجد فى هذه القصيدة معانى لا يمكن أن توجد إلا فى نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين فانظر الى قوله :

رقّت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة وجفا عن شكلها الماء

فهذا أسلوب النظام وغير النظّام حين كانوا يتكلمون فى الجزء الذى لا يتجزأ ، وفى كثافة الاجسام ولطافتها ، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة وكذلك قوله «حتى تولّد أنوار وأضواء» فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص . والبيت الاخير من هذه القصيدة :

لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا فان حظركه فى الدين إزراء

ليس إلا وضعا لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبه : مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية فى بغداد أيام ابى نواس ولكنها تمثلها تمثيلا مجملا . فاذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة وجب ان تدرس حياة الجماعات الأدبية فى بغداد والبصرة، وهى شىء يشبه (الصالونات) الادبية (Les Salons Littéraires) فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر فى فرنسا . وسنحدثك عن هذا فى الاسبوع الآتى

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر فى العصر العباسى — الاندية الادبية — الشك والمجون

كان أمر العرب مع الفرس كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ، فقد سبق الفرس الى الحضارة والنظام وأخذوا منهما بنصيب موفور قبل أن يخضعوا لسلطان الامة العربية . فلما جاء الاسلام وكان الفتح ومكن الله للعرب فى بلاد الفرس كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداوة العربية ، بين اللين والخشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة والحياة الساذجة الهينة . لم يكن هذا الجهاد عنيفا حين كانت الحياة المادية موضوعه ، فكل الناس يؤثر اللين على الخشونة ويفضل النعمة على البؤس ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم . وإنما كان الجهاد عنيفا بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعا له . فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة والسنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسنن الفارسية ، وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضى حتى ظهر انتصار الجديد وأخذ القديم ينهزم أمامه وينحصر فى البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلا شريك ولا منازع فى العراق والشأم وغيرهما من البلاد التى خضعت للعرب وكانت متحضرة قبل وصول العرب اليها ، وكذلك كانت حال الرومان بعد أن أخضعوا

(١) نشرت بالسياسة فى يوم الاربعاء ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٤١ — ١٠ يناير ١٩٢٣

اليونان، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحا سياسيا ولكن اليونان فتحوا روما فتحا أدبيا كما قال الشاعر الروماني هوراس.

انتصرت الحضارة واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية. وكان هذا الانتصار عاما تناول الحياة المادية والعقلية وتناول معهما حياة الشعور، ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء، وعاشوا كذلك فى دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور وهو الأدب نثراً كان أو شعراً

وقد أشرنا فى الفصل الماضى إلى أن أول العصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار، أنكر العقل العربى فيه قديمه، ولم يشتد اطمئنانه الى الجديد، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة فى الحياة، وإنما عاش من يوم إلى يوم فاحتمل الآلام كارها واستمتع باللذات راغبا فيها مستزيداً منها. وكانت هذه اللذات كثيرة مختلفة، وكانت هذه اللذات ميسرة له موفورة عليه. فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة، ولم تكن هذه المرأة عربية وانما كانت فارسية أو غير فارسية، ولم يكن الوصول اليها عسيراً وإنما كان شيئا سهلا ميسوراً، فقد كانت المرأة تباع وتشترى، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء:

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية، وإنما كانت أعجمية متحضّرة قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة، فرق طبعها وصفا مزاجها

وافتنّت فى تلطيف الحياة وترفيهها ، وفى اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم ، ولم تكن جاهلة وانما كانت متعلمة ، ومتعلمة تعلما متقنا ، فقد وجدت فى ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج ، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة ، فكان يعلم احسن تعليم ويدرّب أحسن تدريب على فروع الحياة المختلفة ، ولم تكن هذه المرأة حرة محتفظة بكرامتها الشخصية حريصة على أن تكون لها منزلة السيدة ، وانما كانت مبتذلة ممتهنة تباع وتشترى كما يباع المتاع ويشرى .

وكان العرب مندفعين فى هذا النوع من اللذة يستمتعون به فى غير قصد ولا احتياط ، والى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الاخرى : لذات الطعام ولذات الشراب ، ولذات الأثاث ولذات اللباس ، ثم كانت توجد اللذات العقلية ، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان ، فيقرءون ويفهمون ويتأثرون فى حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون ، ولم يكن من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة أو ترغب فيها ، وإنما كانت تصرف عنها وتنفر منها وتملأ قلوب الناس لها بغضا وعليها سخطا ، فلا جرم آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم على عيشة العرب وتفكيرهم ، ووُجد هؤلاء الشعراء والكتاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ويحفلون بكل جديد ، يجهرون بذلك حينا ويسرون حينا آخر ، يأمنون معه دهراً ويلقون فى سبيله الموت من وقت إلى وقت

وجد مطيع بن إياس الذي كان لا يبالى أ كان عفيفاً أم غير عفيف ،

ولا يبالى أكان حراً كريما نقى العرض أم ممتهنا مبتذلا مرذول السيرة ، ووجد حماد عجرد الذى لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها وينوّعها ما استطاع الى تنويعها سبيلا ، والذى أسرف فى المجون والتهتك حتى لامه ابو حنيفة وشهر به فلم يجد حماد رداً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التى يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك وأنه كثيرا ما شاركه فى الإثم والمعصية :

إن كان نسكك لا يتم ... م بغير شتمى وانتقاصى

فاقعد وقم بى حيث شئـ ... ـت مع الأدانى والأقاصى

فلطالما زكيتنى ... وأنا المقيم على المعاصى

أيام تأخذها وتعـ ... ـطى فى أباريق الرصاص

ووجد رفيقهما يحيى بن زياد الذى كان يقاسمهما حظهما من كل إثم فى القول والعمل ، ثم أدركه الكبر فتاب وأناب . وظهر بشار الذى كان يؤثر النار على الطين ، أى كان يميل إلى دين الفرس القديم ويزدري الإسلام ، والذى مهر فى وصف الفسق والمجون حتى حبسه المهدى وحتى شكا منه إلى الخليفة أشراف الناس لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . ووجد والبة بن الحباب الأسدى الذي عرضت منادمته على الرشيد فأبى وأشفق وأعلن إباءه وإشفاقه فى ألفاظ لاتسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق . ومصدر هذا الإباء والإشفاق شعر لوالبة أعلن فيه بغيه وفجوره إعلاناً خاف الرشيد عاقبته على نفسه فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحا من غير شك ولكنه كان يجل مجالسه عن مثل هذا الشاعر الذى لا يستر فسقه . وكان

أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي، بل قال إنه أخذ عنه الاباحة بأشنع معانيها . ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التي ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجونا وأكثر منها فجوراً وأقل منها حرصا على الاستتار . وكان ابو نواس من زعماء هذه الطبقة ، وكان معه الرقاشي والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد والحسين الخليع وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يستترون في معصية ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فاذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم ، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقا ولا دينا ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة فاستتروا حينا أو اضطروا إلى السجن حتى ينالهم العفو ، فما هي إلا أن يستأنفوا سيرتهم الاولى . ومن هذا قصة منتحلة ـ فيما أعتقد ـ ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة في الخلفاء .

روى عن أبي نواس أنه قال لما حبسني الأمين رأيت بشاراً في المنام فقال لي : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ يعني الأمين ، قلت بقولي :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر	ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

فقال : أو يحظر عليك شيئا وهو يجاهر به ! هلا بدأ بنفسه لعن من نقل اليهم الملك ! فقلت : فبماذا حبسك جده المهدى ؟ قال بقولي :

قاس الهموم تنل بها نجحا	والليل إن وراءه صبحا
عسر النساء إلى مياسرة	والصعب يمكن بعد ماجمحا

قات : فبم أفرج عنك ؟ قال بقولي :

يامنظراً حسناً رأيتــه ... من وجه جارية فديته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى عليّ وما بكيته
بعثت إليّ تسومني ... برد الشباب وقد طويته
والله رب سريرتي ... ما إن صبوت ولا نويته
أعرضت عنك وربما ... عرض البلاء وما اتقيته
إن الخليفـة قـد أبي ... واذا أبي شيئاً أبيتــه
ونهاني الملك الهما ... م عن النساء فما عصيته
لا بل وفيت ولم أضع ... عهــداً ولا رأيا رأيته

وبقولي أيضا

والله لو لا رضى الخليفة ما احـ ... تملت ضيما عليَّ في شــجني
قد عشت بالريحان والراح والمز ... هر في كل مجلس حسن
ثم نهاني المهـديّ فانصرفت ... نفسي صنع الموفق اللقن

فانتبهت وقد حفظت الأبيات وبشار أمامي فقات

أعاذل أعتبت الإمام وأعتبا ... وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقات اسقنيها أجزه فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

وقات أيضاً

أطع الخليفة واعص ذا عرف ... وتنح عن طرب وعن قصف

فصارت هذه الابيات إحدى منجياتي وكان الشيخ بشار سببها .

ولا تنس أن الأمين الذى حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكان أبو نواس

به كلفا . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين وكان أبو نواس صديقا للكسائي فقال له أبو نواس يوما أحب أن أقبل الأمين ، فجزع الكسائي لذلك وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف بالإلحاح بل أنذر وصنع هذين البيتين وأظهر انه سيرفعهما الى الرشيد وهما :

قل للإمام جزاه الله صالحة   لا يجمع الله بين السخل والذيب

السخل غر وهم الذيب غفلته   والذيب يعلم ما في السخل من طيب

فاشتد جزع الكسائي واحتال لأبي نواس فقال له : أطل الغيبة ثم أقبل كأنك قادم من سفر فأعانقك ويعانقك الأمين فتقبله ، ففعل أبو نواس ثم خرج فقال في ذلك شعرا

فهذا القليل الذي رويته لك والذي ليس هو شيئا يذكر بالقياس إلى ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة يبين لك إلى أي حد وصل هؤلاء الناس في هذا العصر من المجون والتهتك والاندفاع في الحرية والاستمتاع باللذة ولا يزجرهم عن ذلك حياء ولا دين

خسرت الاخلاق من هذا التطور وربح الادب ، فلم يعرف العرب عصرا كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر . ثم كان من كثرة المجون أو بعبارة أصح كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التي وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفا في الجاهلية ولا في صدر الاسلام ولا في أيام بني أمية وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب أو عند ما انتقل العرب اليها فاستقر سلطانهم في بغداد . وهذا الفن الجديد

هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل.

وإنما الذى يعنينا الآن أن نلاحظه أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك فى كل شىء وعبث بكل شىء وإسراف فى المجون واللهو كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم. وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف. كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو إثم يقترف ، وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعرا ونثرا ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضا ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائما من النساء ، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم. وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة ، فيلهون ويتحدثون. فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل ، ولكنا لم نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة ، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها فلننتظر اليوم لنستمع إليهم فى الأسبوع الآتي

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر فى العصر العباسى — الأندية الأدبية — الألفاظ والمعانى

انتهى بنا الحديث فى الأسبوع الماضى الى الأندية الأدبية التى كان لها أيام بنى العباس أثر فى الأدب لا يمحى ويد على الشعر لن ينالها النسيان. لم تكن هذه الأندية تجتمع فى أماكن معينة أو منازل معروفة، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع، كانت تتنقل بأدبها وعلمها، وبجدها وهزلها، بين مدن العراق المختلفة وبين ما كان فى هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الحانات وبيوت الإثم، وكانت تجتمع بنوع خاص فى قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم فى الأحاديث الماضية، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك فى كل شىء والعبث بكل شىء يلقون فى مجالس الخلفاء والوزراء وفى المساجد طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة. فكانت أحاديثهم فى هذه المجالس متأثرة بجد هؤلاء العلماء وبمهابة الأمراء والوزراء، فكانوا قلما يتجاوزون جد القول إلى هزله، وقلما يمعنون فيما كانوا يمعنون فيه اذا خلوا الى أنفسهم من الفحش الذى لا حد له، والمجون

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٤١ — ١٧ يناير سنة ١٩٢٣

الذى لايعدله مجون . كانوا فى هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر وينقدون الشعراء ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فاذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه فى اللهو واللعب وفى اللذة والفسوق .

فأنت ترى أن الإنصاف وحسن الوفاء للتاريخ يضطراننا الى أن نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شىء فى ذلك العصر ، وانما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين يؤثرون الجد ويغلون فيه . ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة تحكم بها عليه حكما صادقا فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقا ويعبرون عن أهوائها وميولها ، ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة ، أفتظن أن شاعراً كأبى نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس فى بغداد وغيرها من مدن العراق بل فى الشأم ومصر حين ذهب الى الشأم ومصر فيحفظون شعره ويتناشدونه ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لايكتفون بذلك بل يروون عنه الروايات وينتحلون له القصص ، ويتحدثون عنه فى اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحياة

فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية؟ كلا! ليس من شك فى أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر وما يضطرب فى نفوسها من عواطف، حينما كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه وعلى الكلام يحمسونه، وعلى الحديث يروونه، وعلى الأخبار يتلقطونها ويذيعونها بين الناس، وكانوا فى هذا كله لا ينطقون بلسان أحد ولا يعبرون عن رأى أحد ولا يمثلون إلا العلم الذى يعنون به ويعكفون عليه، بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ونحتاط بعض الحيطة حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم فى البر والتقوى؛ فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً؛ ولكن كان منهم أيضا الذين يحبون الحياة ويتذوقون لذاتها ويظهرون للناس براً وديناً من ورائهما شىء كثير. ولعلك تذكر ما يروى من أخبار يحيى بن أكثم الذى كان قاضى المأمون ونديمه، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار أبى عبيدة معمر بن المثنى وما كان بينه وبين الشعراء. بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء أنفسهم وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب دون أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا مظاهر الأئمة الأتقياء. ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه فى أمر الرشيد وأمثال الرشيد، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من

أنه كان يلهو ويسكر . وكذلك ذكروا عن المأمون خلالا نقية وخصالا طاهرة ربما صحت كلها ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر

كان هذا العصر عصر شك وعصر مجون وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور وهو مظهر الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم وهو مظهر اللهو والمجون الذي يخلع فيه العذار وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ويعلنون المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذي كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة . وليس هذا مقصوراً على العرب ولا على العباسيين ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوربيون وعرفته أثينا وروما وباريس . ومالنا نطيل في هذا ، ويكفي أن تقرأ عصر بريكليس وأغسطس ولويس الرابع عشر لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا . فلنا أن نتخذهم مقياسا للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بني العباس لم يحدث الشك والمجون وحدهما ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث شيئا آخر وغير الشعر من ناحية أخرى ، أحدث سهولة في التعبير عما في النفس لأنه أطلق للعواطف والأهواء حريتها فانطلقت الألسنة بوصف هذه العواطف والأهواء . ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة وضعف معها رقيب السلطان السياسي أيضا . ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ، تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركتهم السياسة

أحرارا واستفادت من هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون وبينما كانوا يعبثون ويسرفون فى الهزل كانت السياسة تقوى سلطانها وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية .

أصبحت العواطف حرة فأصبحت الألسنة حرة . ونشأ من حرية العواطف تنافس فى اللذة واستباق إليها ، فنشأ من هذا التنافس فى اللذة العملية تنافس فى وصفها واستباق إلى إجادة هذا الوصف . وكان هؤلاء الشعراء اذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه فى الشرب وغير الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه فى وصف الشرب وغير الشرب ومن هنا كثر الافتنان فى اللذات وكثر معه الافتنان فى القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التى أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيد بالقديم ، واذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفي من الشرطة فما له لا يصف الخمر كما يحب دون أن يخشى سطوة الاصمعى أو أبى عبيدة .

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل فى هذا العصر منه فى العصور الأخرى . وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثانى من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعراً لا نثراً ، وكثيراً ما كانوا يوفقون إلى القول البديع والشعر الطريف ، وكثيراً ما كانوا يسقطون إلى سخيف اللفظ ومتكلفه ، وإلى رديء المعنى

وقاره ، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يعنون فى هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى . فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها أين نحن العشية ؛ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة الى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعراً لا نثراً وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة وأحسنهم كلاما

فقال داود بن رزين الواسطى

قوموا لمنزل لهو ... وظل بيت كنين

فيه من الورد والنرجس ... والياسمين

وريح مسك ذكى ... وفائح المرزجون

وقينة ذات غنج ... وذات عقل رصين

تشدو بكل طريف ... من محكم بن رزين

وقال أبو نواس :

لا بل إلىّ ثقاتى ... قوموا بنا لحياتى

قوموا نلذّ جميعا ... بقول هاك وهاتى

. . . .

. . . .

فشاوروه مجونا ... فى وقت كل صلاة

وقال الخليع :

إلى الخليع فقوموا إلى شراب الخليع
إلى شرابٍ لذيذٍ وأكل جدى رضيع
ونيل أحوى رخيم بالخندريس صريع
فى روضة جادها صو ب غاديات الربيع
قوموا تنالوا وشيكا منال كل رفيع

وقال الرقاشى :

لله در عقار حلّت ببيت الرّقاشى
عذراء ذات احمرارٍ إنى بها لا أحاشى
قوموا ندامى رووا مشاشكم ومشاشى
وناطحونى بكأس نطاح سود الكباش
فإن نكلت فخلّ لكم دمى ومشاشى

وقال عمرو الوراق :

عوجوا إلى بيت عمرو إلى سماع وخمر
وناشجات علينا تطاع فى كل أمر
فهاك أحلى وأشهى من صيد باز وصقر
هذا وليس عليكم أولى ولا وقت عصر

وقال الحسين الخياط :

قضت عنان علينا بأن نزور حسينا
وأن نقر لديه باللهو والقصف عينا

فما رأينا كظرف الـ　حسين فيما رأينا
قد قرب الله زينا　منه وباعد شينا

وقالت عنان :

مهلا أفديك مهلا　عنان أحرى وأولى
بأن تنال لديها　أشهى النعيم وأحلى
فان عندي حراما　من الشراب وحلا
لا تطمعوا فى سواى　من البرية كلا
يا إخوتى خبرونى　أجاز حكمي أم لا

ومضى كل واحد يقول كلاما هكذا فيه ترغيب وفيه حث على اللذة وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه فى لفظ سهل رشيق غير متكلف بل غير معنىٍّ به حتى يسقط فى الخطأ اللفظى أو فى الضرورة . فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا فلم يسبق أحد صاحبه فاقترح ألا يذهبوا إلى بيت أحد بل إلى حانة فقال :

ألا قوموا إلى الكرخ　إلى منزل خمار
الى صهباء كالمسك　إلى جونة عطار
وبستان به نخل　له زهر بأشجار
فإن أحببتموا لهواً　أتيناكم بزمار

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر فى حياته المعنوية والمادية ، بل فى تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور والشعور ؟ عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث

عنها صاحبها ولم يطل البحث ، وإنما وجدها فى نفسه فأظهرها فى لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .

« فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز فى حياته الأدبية بخلال أربع : الشك ، والمجون ، وحرية العواطف . وسهولة اللفظ ،

واذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذى سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون

ابو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء، وألحوا فى الانكار وكتبوا فى الصحف يعلنون إنكارهم ويطلبون الينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ونعدل به عن الشر إلى الخير وعن الهزل الى الجد. وزعموا أن ما نرويه فى هذا الحديث من شك الشعراء حينا ومجونهم حينا آخر مفسد لأخلاق الشباب مدنس لقلوبهم الطاهرة. وتجاوزوا هذا الى أكثر منه فزعموا أننا متكلفون مخطئون حين نصف القرن الثانى للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون، وأن الناس كانوا فيه أحرارا لا يكادون يأخذون أنفسهم فى اللهو بخلق أو دين. زعموا أننا مخطئون، وأننا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن فجعلناهم مقياسا للعصر الذى عاشوا فيه، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجد وأصحاب الحديث قالوا: وليس هذا من الانصاف فى شىء.

كتبوا هذا كله وتجاوزوه الى شتم نعرض عنه ونشكره لكاتبيه. ولعل حديث الأربعاء الماضي يغنينا عن الرد على هؤلاء الكاتبين من بعض الوجوه، فقد بينا فى ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقا وكانوا أشد له تمثيلا وأصدق لحياته تصويرا من الفقهاء والمحدثين

(١) نشرت فى ٧ جماد الآخرة سنة ١٣٤١ هـ ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ م

وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة فى سره كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم . فلسنا اذن فى حاجة الى إعادة هذا الحديث والخوض فيه ، وانما نلفت سادتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته الى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقا على هذا الشباب أن يسوء خلقه أو يفسد قلبه ، ولكننا لسنا نرى رأيهم فى هذا التحرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتا من الشعر ليس حظه من المجون والفتنة شيئاً يذكر ، فنحن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظا وأنزره من الفجور نصيبا ، ولسنا نروى لك ما يسمع ومالا يسمع ولسنا نحدثهم بما يقال ومالا يقال . وانما ننظر فى هذا كله الى الذوق والمنفعة جميعا ، وأين يقع ما نرويه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم وفى ملاعبهم وملاهيهم ؟!

ولو أن ما نرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد الذي نخشاه على أخلاق الشبان لكنا أسرع الناس إلى إهماله ولتحدثنا الى قرائنا فى الزهد والتقوى وفى الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البرىء الذي ننشره كل أسبوع . وهل يحب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبا نواس والرشيد والأمين ، أم هل يحبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جد حين كان حظ هذا العصر

من الهزل عظيما ؛ على أن هؤلاء السادة الذين يتحرّجون ويعتصمون بالدين يضيقون على الناس ما وسع الدين ، ويعسرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا . ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين كان أشدّ منهم بالله إيمانا وأكثر منهم لله طاعة ، وكان فى الوقت نفسه أرحب منهم صدرا وأشد احتمالا ، فكان يسمع للجد وكان يسمع للهزل ، بل كان يجد وكان يهزل . وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس فى المسجد الحرام وقد سئل عن الشعر أينقض الوضوء وإن أخلاقنا وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن الزبير حين لقى الفرزدق بالمسجد الحرام أيضا ، وكان عبد الله خليفة ، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت اليه زوجها ، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس بيتاً قاله حسان يهجو به هنداً زوج أبي سفيان . فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : قل وروح القدس معك ، نعم تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن لأن العصر قد تبدل ، وقد تطورت نظم الحياة ، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجني على الأخلاق أو نعرضها للخطر . ونحن نستأذن هؤلاء السادة فى أن نرغب فى ألاّ تكون حياتنا خلا ، وانما نريد ألاّ تخلو من الفكاهة واللذة . ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيها من فقهاء هذا العصر الأول

سألت الفتى المكى ذا العلم ما الذى يحل من التقبيل فى رمضان
فقال لي المكى أما لزوجة فسبع وأما خلة فثمان

وقال شاعر آخر فى مثل هذا المعنى :

سألت الفتى المكى : هل فى تعانق ونضمة مشتاق الفؤاد جناح
فقال : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به ويرتاحون له . وكان سفيان الثورى يقول : إن أبا نواس أشعر الناس لقوله :

يا قمراً أبصرت فى مأتم يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

* * *

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبي نواس . وأنا أريد أن أحدثك عن أبى نواس . ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ ﻫ ومات سنة ١٩٩ فأنت تعلم ذلك وتستطيع أن تجده فى أى كتاب من كتب الأدب ، ولست أصف لك نشأته الاولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب . وربما كان من الحق علىّ ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبى نواس ففيه شىء من الإثم كثير قد يُغضب سادتنا المتحرجين ، وهو فى الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام . لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك فى هذا المكان عن سيرة أبى نواس وحياته ، فان ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العاميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة ولكنى قلت : إن أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذى عاش فيه ، وإن هذا العصر كان يمتاز بالشك والمجون وإيثار اللذة ، وقلت فى حديث آخر : إن شعراء هذا العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لانفسهم قاعدة هى

أن يستمتعوا بلذات الحياة ما استطاعوا ، فاذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله ولاذوا به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة وينكر على النظام رأيه فى الخطيئة والتوبة . قلت هذا كله ، وأريد فى هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً ، وأنه على هذه المكانة قد كان ماجناً مجاهراً بالمجون ، مستمتعاً باللذة ، لا يخشى فى ذلك سخط الأمراء ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شىء واحد هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعا . فلما مرض وعلم أنه ميت أنفق مرضه يتوب وينيب ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى بعض الرواة فى المنام أن الله قد غفر له وأنه قد دخل الجنة .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما أعتمد فى حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه وهو « تاريخ دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر الى الذين روى عنهم أبو نواس ، وانظر الى الذين رووا عن أبى نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ، فأما الذين روى عنهم فيما ذكر ابن عساكر فهم : حماد بن حماد ، وحماد بن زيد ، وعبدالواحد بن زياد ، ومعتمر بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر بن سعد السمان ، وأما الذين رووا عنه فهم فيما ذكر ابن عساكر أيضاً : محمد بن إبراهيم ، بن كثير الصيرفى ، وعبيد الله بن محمد العبسي ، ومحمد بن جعفر غندر ، وأحمد بن حمزة بن زياد الريفي ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، ويعقوب بن زيد الفارسى ، ومحمد بن ادريس الشافعى وجماعة سواهم .

فاذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين فارجع الى طبقات الفقهاء والمحدثين ، وستثق بأن شاعرنا لم يكن رجلا ما ، وإنما كان رجلا يقدره أهل عصره ويكبرونه فى كل ما عرض له من الفنون ، فكان أهل اللغة يقولون إنه أعلم الناس بالغريب ، وكان الأدباء يقولون إنه أرق الناس أدبا وأحسنهم شعرا ، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه وحسن حديثه ، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق ، وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يحدثوه وأن يتحدثوا عنه ؛ ولو روينا لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا فى الإطالة .

ولكنا ننتقل من هذا إلى ذكر شىء من دعابة أبى نواس ومجونه مع الفقهاء والمحدثين والخلفاء . تحدث ابن عائشة أنه قال : كنا على باب عبد الواحد بن زياد ومعنا أبو نواس فقال : ليسأل كل واحد منكم ثم قال : سل يافتى ؛ فأنشأ أبو نواس يقول :

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب أن سعد بن عباده
قال من مات محبا فله أجر شهاده

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد فقال : اعزب عنى يا خبيث ، والله لاحدثتك بشىء وأنا أعرفك .

وتحدث محمد بن جعفر قال : لقى شيبة أبا نواس فقال له : يا حسن ، حدثنا عن ظرفك ، فقال :

حدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر

عن مسعر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر
قالوا جميعا : أيما طفلة علقها ذو خلق طاهر
فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر
كانت لها الجنة مفتوحة ترتع فى مرتعها الزاهر
وأى معشوق جفا عاشقا بعد وصال دائم ناضر
ففى عذاب الله ُبعداً له نعم وسحق دائم داحر

فقال له شيبة : إنك لجميل الاخلاق .

فما رأى ساداتنا المتحرجين ؟

وتحدث سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس فى مجلس أبى وكان واعظا يبكى بكاء شديداً فقلت : إنى لأرجو أن لا يعذبك الله بعد هذا البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لم أبك فى مجلس منصور شوقاً إلى الجنة والحور
ولا من القبر وأهواله ولا من النفخة فى الصور
لكن بكائى لبكا شادن تقيه نفسى كل محذور

ثم قال أما ترى الأمرد الذي عن يمين أبيك ! إنما بكيت رحمة لبكائه .

وتحدث ابن الزيات عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدلهمس قال : كان أبو نواس يزورنى فى الكوفة فيأتى بيت خمار بالحيرة يقال له جابر وكان نظيف الثوب يعتق الشراب فيكون عنده ما يأتى عليه سنون ، قال فرأى فى يده يوماً شيئاً عجيباً فى نهاية الحسن وطيب الرائحة ، فقال لى : يا أبا جعفر لا يجتمع هذا والهم فى صدر ، قال : وكان معجباً بضرب الطنبور

فكان إذا جاءنى جمعت له ضراب الطنابير ومعدنهم الكوفة ، فكان يسكر فى الليلة سكرات ، قال : فجاءني مرة من داره فقال : قد حدث أمر ، قلت ماهو ؟ قال : نهانى أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر ، وأنشدنى :

أيها الرائحان باللوم لوما　　لا أذوق المدام إلا شميما

القصيدة ، فقلت ماتريد أن تفعل ؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أنى شربتها ، فأتيناه بنبيذ وجلسنا فى منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت أقول وأذكر قوله لى :

عتبت عليك محاسن الخمر　　أم غيرتك نوائب الدهر
فصرفت وجهك عن معتقة　　تفتر عن خلق من البشر
ونسيت قولك حين تمزجها　　فيزول مثل كواكب النسر (كذا)
لا تحسبن عقار خابية　　والهم يجتمعان فى صدر

فأخذ يسب الأمين فى كلام لانرويه وشرب الخمر ، ثم شخص الى محمد ، فقال له : أين كنت ؟ قال : عندصديقي الكوفى ، وحدثه الحديث ، قال . فقال لى : ماصنعت حين أنشدك الشعر ؟ قال . شربتها يا أمير المؤمنين ، قال : أحسنت وأجملت ، ثم قال : اشخص حتى تحمل الى صديقك هذا ، قال : فشخص فحملني اليه فلم أزل مع محمد حتى قتل .

ولكنا قد أكثرنا من رواية هذا المجون ونخشى أن نكون قد أثقلنا على المتحرجين ، فلنرو لهم شعرا لأبى نواس ملؤه البر والتقوى ، وفيه الزهد والموعظة .

نقل عن عبدوس راويه أبى نواس أنه قال : دخلت على أبى نواس الحسن

بن هانیء فی علته التی مات فیها فقلت له کیف تجدك یا أبا نواس ؟ فقال : أجدنی قائلا :

سبحان من خلق الخلا ق من ضعیف مهین
یسوقه من قرار إلی قرار مكین
یحول شیئاً فشیئاً فی الحجب دون العیون
حتی استوت حركات مخلوقة من سكون

قال ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان من غد دخلت علیه فقلت له : كیف تجدك یا أبا نواس ؟ قال أجدنی قائلا :

وعظتك أجداث صُمُت ونعتك أزمنة خُفُت
وتكلمت عن أوجه تبلی وعن صور سبت
وأرتك قبرك فی القبو ر وأنت حیّ لم تمت
ولرب انقلاب الشمات خال بالقوم الشمت

ثم أطرق فتركته ، فلما كان فی الیوم الثالث دخلت علیه فقلت له : كیف تجدك یا أبا نواس ؟ قال أجدنی قائلا :

یا نواسیّ تفكر وتعزّ وتصبر
ساءك الدهر بشیء وبما سرّك أكثر
یا كثیر الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر العصیان فی أصغر عفو الله یصغر

فلما كان فی الیوم الرابع دخلت علیه فقلت له : كیف تجدك یا أبا نواس ؟ قال أجدنی قائلا :

كن مع الله يكن لك　　واتق الله لعلك
لا تكن إلا معداً　　للعنايا فكأنك
إن للموت لسهما　　واقعا دونك أو بك
فعلى الله توكل　　وبتقواه تمسك
نحن نمسى بين أسبا　　ب سكون وتحرك

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان فى اليوم الخامس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

يا ناظراً يرنو بعينى راقد　　ومشاهداً للأمس غير مشاهد
منتك نفسك ضلة فأبحتها　　طرق الحمام وأنت غير مراصد
تصل الذنوب الى الذنوب وترتجى　　درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما　　منها الى الدنيا بذنب واحد

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان فى اليوم السادس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

دب فىّ السقام سفلا وعلوا　　وأرانى أموت عضوا فعضوا
ليس تأتي من ساعة بى إلا　　نقصتنى بمرها بي جزوا
ذهبت جدتى بطاعة نفسى　　وتذكرت طاعة الله نضوا
قد أسأنا كل الإساءة يارب　　فصفحا عنا إلهى وعفوا

ثم أطرق وانصرفت ، فلما كان فى اليوم السابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس : قال أجدنى قائلا :

انى وما جمعت من صفد　　وحويت من سبد ومن لبد

همم تصرفت الخطوب بها ... فغدوت من بلد إلى بلد
لو لم تكن لله متهماً ... لم تمس محتاجاً إلى أحد

ثم أطرق فتركته وانصرفت، فلما كان فى اليوم الثامن جئت لأدخل فلقيني الغلام فى الطريق ومعه رقعة مختومة ، فسألته عنه ، فقال أعظم الله أجرك فى أبي نواس فقد توفى . وكان كتب اليك هذه الرقعة قبل موته ، فقرأتها فاذا فيها

شعر حى أتاك من لفظ ميت ... صار بين الحياة والموت وقفا
لو تأملتني وأبصرت وجهى ... لم تجد من مثال رسمى حرفا
نفس خافت وجسم نحيل ... أرمضته الأسقام حتى تعفى

فجئت معه إلى منزل أبي نواس فاذا به قد مات ، ونظرت فيما خلف فاذا مقدار ثلثمائة درهم وإذا بين مخدتيه رقعة فيها هذا الشعر :

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا ... فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذى يرجو ويخشى المجرم
مالى اليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلم

قال : فوقفت حتى جهزناه وصلينا عليه ودفناه وانصرفت .

* * *

أكثر هذا الشعر لأبى نواس من غير شك ولكن هذه القصة التى رويناها متكلفة من غير شك أيضا ، وانما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر فى أوقات مختلفة من حياته ، وقال بعضه عند ما أحس الموت

ولسنا نلح فى هذا البحث ولا نفصله فقد أطلنا أكثر مما ينبغى وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبى نواس أكثر من وقوعه علينا ، فقد رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه فى الدين والمجون والشك ، فلنترك هذا كله ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية فى الأسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون (١)

أبو نواس

زعمت لك فى الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالاً لعصره، وأن الذين عاصروه كانوا يعجبون به الاعجاب كله ويقدمونه على شعراء عصره جميعا إلا بشار بن برد. وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم وأن أستوفى هذا الموضوع حقه من البحث. ويخيل الىّ أن بحثا كهذا على ما فيه من الرواية والنقد لن يخلو من فائدة وإن خلا من لذة، أو بعبارة أصح وإن لم يحدث فى نفسك هذه اللذة التى يحدثها الشعر الماجن الظريف.

لن يخلو هـذا البحث من فائدة لأنه سيظهرك على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى فى هـذا الشاعر الذى اخترت شعره موضوعا لهذه الاحاديث، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعا فى نقـد الشعر وفى فهمه وفى تصوره والحكم عليه. وليس هـذا بالشىء القليل. ولقد أضطر إلى أن أستأذن رجال الأدب القديم من المعاصرين فى أن أكون جريئا وحراً فى هذا البحث. وأرجو ألا تغضبهم هذه الجرأة ولا تسوءهم هذه الحرية. وأؤكد لهم أنى لم أعمد اليهما عمدا وإنما اضطررت اليهما اضطرارا، واضطرني اليهما بحث أعتقد أنه صحيح، وصدق فى التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين.

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ ٣١ يناير سنة ١٩٢٣م

إذن فأنا أستأذن أئمة الأدب وشيوخه المعاصرين فى أن أكون حراً وفى أن أكون جريئا، وفى أن أزعم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة لم يكن لهم فى النقد مذهب معروف أو خطة واضحة، وإن شئت فقل إنهم قد كانوا يذهبون فى النقد مذاهب لا نرضيها ولا تحقق ما أصبحنا نسمو اليه من مثل أعلى فى النقد خاصة وفى الأدب عامة.

ولست أدرى أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسموا اليه أدباء العصر العباسى أم لا؟ ولست أدرى أكانت تظل حال النقد على ما كانت عليه أيام الجاحظ والمبرد لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ولم تتغلب أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي؛ ولكنى أستطيع أن أقول: إن هذه المذاهب التى نجدها منبثة فى كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علما ذا قواعد وأصول ليس من شأنها أن ترضى باحثا أو تقنع أديبا. وإننا نستطيع أن نقول: إن أدبنا العربى يخلو أو يكاد يخلو من النقد الصحيح خلوا تاما.

•

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء: الأول أن تصل الى شخصية الشاعر فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت، فتعرف كيف أحس ما أحس وكيف شعر بما شعر به، ثم كيف وصف إحساسه وأعرب عن شعوره. الثانى أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء وسيلة إلى فهم العصر الذى عاش فيه هذا الشاعر، والبيئة التى خضع لها

هذا الشاعر ، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر . فأنت لا تقصد الى فهم الشاعر لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها . ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعا فأنت سواء شعرت بذلك أم لم تشعر به لا تقنع بالأشخاص وإنما تطمع فى الجماعات ، لا ترضى بالجزئى وإنما تسمو إلى الكلى كما يقول أهل المنطق . فأبو نواس وحده لا يعنيك وإنما يعنيك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش لا أقول مع فلان وفلان . وقل مثل ذلك فى شوقى ، وقل مثله فى حافظ .

فالشاعر ليس شاعرا لأنه يقول فيحسن ، وانما هو شاعر لأن قوله الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرءونه ، يرضيهم ويقع من نفوسهم موقع الإعجاب . ولم يرضيك البيت من الشعر ؟ لأنه يوافق هوى فى نفسك ، ويلائم عاطفة من عواطفك ، ويرضى حاجة من حاجتك الى الجمال . إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولاً ثم جماعته أو عصره أو بيئته أو هذا كله ثانياً . وهناك شيء ثالث تقصد اليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده ، وهو اللذة ، اللذة الفنية ، اللذة التى تجدها اذا نظرت الى شكل جميل ، أو استمعت الى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة . عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر وحين تنقده ، لأنك تريد أن تفهم وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن فى هذا شيئاً من التحرج ، أو إن فيه تضييقا ومحاولة من هذه المحاولات التى أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ولم توفق إلى شيء كثير . لا تقل هذا فإني لا أتحرج

ولا أضيق ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولا معينة . وانما أحاول أن أفهم معك معنى النقد وما يرمى اليه الناقد . ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكهم فهم يقصدون الى هذا كله أو بعضه .

سل « سانت بوف » (Sainte - Beuve) ينبئك بأنه يعني قبل كل شيء اذا قرأ قصيدة من الشعر او فصلا من النثر بأن يجد شخص الشاعر او الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ويصل الى دقائقه ودخائله كما يفعل علماء التاريخ الطبعي فى معاملهم . ولكن الشخص وحده لا يكفيه ولا يعنيه وانما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة الى النوع ، يتخذ هذا الجزئي وسيلة الى الكلي . ثم سل «تين» (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر اوالكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكوّن نفسه لا يعنيه الا من حيث هو اثر من آثار العصر الذى عاش فيه والبيئة التي خضع لها والأمة التى نجم منها ، فالشخص عنده اثر من آثار هذا العصر وهذه البيئة وهذه الأمة . ثم سل « جول لمتر » jules Le naitre ينبئك بأن هذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذى يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر فى النفس فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والاعجاب .

وفى الحق ان الناقد لا يقنع بما كان يقنع به « سانت بوف » أو « تين » أو « جول لمتر » أو غيرهم من النقاد ، وانما يود لو استطاع أن يوفق الى هذا كله ، ويستخلص منه غرضا شاملا يطلبه ويسمو اليه حين ينقد . فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب وعصره وفنه .

ولست أريد أن أتعمق فى تفصيل هذا كله ، فان فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق ، وانما أردت أن أنتهى بك الى ما نطلبه الآن الى النقد ، لأنتقل من هذا الى ما كان يطلبه المعاصرون لأبى نواس الى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جدا نطالب نحن كثيرا . ولم يكن يطالب القوم إلا شيئاً قليلا .

* * *

قلت فى أول هـذا الفصل : إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة فى النقـد ، أو ان مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا . وكلا القولين صحيح ، فانا لا نعرف لأدباء القرن الثاني والثالث للهجرة مذهبا فى النقد معروفا أو خطة فيه واضحة . ومع ذلك فقد نقدوا وحكموا على الشعر والنثر فاستحسنوهما وازدروهما . ولم تكن أحكامهم متفقة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة ، وانما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافا كثيراً . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا : إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذى غلب عليه مقياسا لنقده وميزانا لرأيه فى جودة الأثر الأدبي أو رداءته ، فالجيد عند أبى عبيدة ويونس بن حبيب وأبي عمرو الشيبانى وابن الأعرابى ما اشتمل على الالفاظ الجزلة المتينة والأساليب الفخمة الرصينة وما كان الى لغة الأعراب أقرب منه الى لغة أهل الحضر : والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب ـ الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ولم يختصوا بالبحث مادة اللغـة وانما تناولوا الأدب من حيث هو وعُنوا بالمعاني عناية لا تقـل عن عنايتهم بالألفاظ

وربما تفوقها ـ ما اشتمل على المعني الطريف فى اللفظ المستعذب الذى لم يمعن فى الغرابة ولم يسفل الى لغة السوقة . والجيد عند الفقهاء والمحدّثين ما لاءم أصلا من أصول الدين أو غرضا من أغراضه أو نزعة من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريرا على الفرزدق . ولما كُلم بشّار فى ذلك قال . ليس ذا من عمل اولئك القوم انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله الخ . . .

وروى مثل هذا فى أمر أبي نواس ومسلم فقد كان الأُدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مسلما . وسئل البحترى عن ذلك ففضل أبا نواس فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاما كالذى قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هـذا المعنى تمثيلا حسنا ما كان بين المأمون وابن الأعرابي . فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوى عن أجود ما قيل فى الخمر فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، ومما رواه له قول الأعشى

تريك القذى من فوقها وهي فوقه   اذا ذاقها من ذاقها يتمطق

فلم يحفل المأمون بشيء من ذلك بل آثر قول أبى نواس

فتمشت فى مفاصلهم   كتمشى البرء فى السقم

فعلت فى البيت اذ مزجت   مثل فعل الصبح فى الظلم

فاهتدى سارى الظلام بها   كاهتداء السفر بالعلم

فانظر الى هذين الذوقين المختلفين . فاما المأمون فحضرى يؤثر المعني الجيد فى اللفظ السهل .

وأما ابن الأعرابي فمحب للغريب مؤثر للفظ الجزل . وكان أبو عمرو الشيباني يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الارفاث لاحتججنا بشعره وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبي نواس ولا يكرهون منه الا هذا الارفاث والمجون . ذلك لأن مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم الى هذا التحفظ ، فأما الأدباء والشعراء ومن اليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجابا لا حد له ؛ لا يصرفهم عنه انه آثر السهل على الغريب أو الهزل على الجد . وربما رغبهم ذلك في شعره وحبب اليهم سيرته

ولو أني ذهبت أروي لك آراء هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء في أبي نواس لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة . ولكنك تستطيع أن تصدقني وأن ترجع الى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر المحدثين لا يستثنون منهم إلا بشار بن برد . ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ، لأن القوم حين استحسنوا شعر أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وانما كان يعجب أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة فلا يأبى أن يقول إن أبا نواس أشعر الناس . فانظر الى من فضل أبا نواس على الشعراء جميعا لأنه قال :

يا قمرا أبصرت في مأتم   يندب شجوا بين أتراب

القصيدة . وانظر الى الأصمعيّ يفضل أبا نواس لأنه قال

أما ترى الشمس حلت الحملا   وقام وزن الزمان فاعتدلا

وانظر الى ابن الأعرابي الذى كان يفضل أبا نواس على الشعراء جميعا لقوله :

تغطّيت من دهري بظل جناحه   فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمى لما درت   وأين مكانى ما عرفن مكانى

وانظر الى أبي العتاهيـة والعتابي اللذين كانا يفضلان أبا نواس على الشعراء جميعا لقوله :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح   فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعا لقوله :

النـاس فى غفـلاتهم   ورحا المنيـة تطحن

وفضل المبرد أبا نواس على المحدثين جميعا لانه شبب ومدح فى أربعة أبيات فقال :

تقول غداة البين إحدى نسائهم   لىَ الكبد الحري فسر ولك الصبر

وقد خضبتهـا عـبرة فلدمعهـا   على خـدها خد وفى نحرها نحر

وقالت الى العباس قلت فمن إذن   ومالى عن العباس معدي ولا قصر

فهل يكلفن إلا براحتـه النـدي   وهل يزهون إلا بأوصافه الشعر

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس فى هذه اللحظة كانوا يفضلون غير أبى نواس فى لحظة أخرى ، فلو أنك أردت أن تعرف من أشعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء لكان الناس جميعا أشعر الناس . ومازال العرب يسأل بعضهم بعضا من أشعر الناس ، فيجيب المسئول أشعرهم من قال ثم يروى بيتا أعجبه ، ولا يمنعه ذلك أن يروى غداً بيتا آخر لشاعر آخر على أن هذا البيت أجمل الشعر وعلى أن هـذا أشعر الناس ، وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر الى هـذه المنزلة لأن لكل شاعر بيتاً جيداً على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن اليها ناقد فى نفسها ، ولا أن يطمئن اليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها فإن هؤلاء النقاد اذا كانوا يجيبون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل . ومع هذا كله فما زلت أري أن معاصري أبي نواس كانوا يقدمونه ويدينون له بالزعامة . وليس هذا الاقتناع عندى أثراً من آثار هذه الأحكام التى رويت لك طرفا منها ، وانما هو أثر القراءة الطويلة فى الكتب الكثيرة وأثر المقارنة بين هذا الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه وكانوا فى ذلك محقين . ولكنهم لم يقولوا ولعلهم لم يعلموا : لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس . فمن الحق أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس فيه شك ، وأن نبحث عن هذا المصدر ، لا كما بحث المتقدمون فى البيت أو البيتين أو القصيدة ، وانما فى الديوان كله . ومن الحق ألا يكون سبيلنا فى هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما . وانما سبيلنا فيه اللفظ والمعني وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضا . وهذا هو الذي سنبدأ به فى الاسبوع الآتى .

الى الاستاذ طه حسين (١)

سيدي الاستاذ

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية على أدب القدماء والمحدثين أو « حديث الأربعاء » ومما يلفت النظر ويستدعى التمحيص والحذر فى ذلك الحديث حكمكم أن أبا نواس ومن فى طبقته أو على شاكلته من الشعراء كانوا مثالا صادقا للعصر الذى عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ فى ذلك العصر مذهب أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون . وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة اليهم واستنتجتم منها ذلك الحكم الذى يحتاج الى تمحيص كثير

نعم إن المقدمات التى استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة ، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة الى ناقليها وقائليها وهم معروفون مشهورون فى التاريخ . لكن هذا وحده لا يكفي لمثل ذلك الاستنتاج ولا تبنى عليه أحكام سوداء فى تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء . وأرى أن الاستاذ تعجل فى الحكم لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل الينا من شعره كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها اليه وصدورها عنه ، وهذا ما لا يصح للمؤرخ المحص التسليم به والسكوت عليه

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ م

إن الحقائق التاريخية ولا سيما فى تاريخ الإسلام تشبه الدر الملقى بين أشواك يحتاج مريد استخراجه من تلك الأشواك الى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً فى مذاهب الشك التى ذهب اليها الاستاذ وانما يكفى أن ننبهه بما نقول وهو العليم الى ما عاناه رواة الحديث ونقلة الأخبار النبوية فى تمحيص تلك الاخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولا سيما فى أيام الفتنة الكبرى التى انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له . هذا فيما له صلة بأصل الشريعة وانتساب إلى صاحب الشرع فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس

نقرأ شيئا فى التاريخ وشيئا فى كتب القصاصين عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح فى عصور المحنة التى مرت على المسلمين . نقرأ فى كتب التاريخ أخبارا نسبها شيع العباسيين الى خلفاء بني أمية ، وأخبار نسبها شيع آل على الى خلفاء بني العباس هى أحط ماينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة فى المنزلة التى أنزلهم اليها الوضاعون ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك فى كتب القصاصين منسوبا الى الخلفاء وأهل العلم والأدب، فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص

واعتبرناها أخبارا صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الاسلامية الاولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد

الحقيقة التى ينبغى أن تقال أن التنازع السياسى بين الشيع الاسلامية أدخل من روايات بعض الاخباريين شوائب فى التاريخ الإسلامى ليست هي منه فى شيء ، وانما هى من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية . ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن فى إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر فى التاريخ وصحة بحثه فى طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازعها شأن كل مؤرخ بحاث لا يلقى الكلام على عواهنه ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاما من أبي نواس وأمثاله من المجونيين . هذا اذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة الى هؤلاء

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر لأن واضعيها انما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية . أما الأغراض التجارية فهى الكسب والانتفاع ، وأما البواعث السياسية أو الدينية فهى منع العامة عن الخوض فى سياسة الخلفاء والحكام والخوض فى أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ، اذ من المعلوم أنه لم يكن فى القرون الأولى للاسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة

ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة فى حاجة الى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم فى مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول اقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر فى كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ فى أخبار أهل السنة والشيعة فى بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هـذه المنازعات والفتن تفضى أحيانا الى إهراق الدماء بين العامة الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفع أو فهم يردع

فكان هذا سببا على ما يظهر لتفكير العلماء فى وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض فى مثل تلك الأخبار ، فأخذ بعض الاذكياء فى وضع قصص تتلى فى المجتمعات فيلهو بها العامـة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد فكان منها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع فى كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشأم وفتوح مصر وفتوح اليمن المنسوبة الى الواقدى وهى ليست له . وكتاب قصـة عنترة العبسى وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة وكاتبها مجهول أيضا ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك . ولما استطاب الناس أمثال هـذه القصص والأخبار وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة لأن فيها نوعا من التلهى وترويح النفس تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك فكان منها الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة اليهم بسبب كبير ينافى ما ينسب اليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة . ولا أظننى مخطئا إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ويسميه حضرة الاستاذ طه حسين عصر الشك والمجون ويتخذه دليلا على حكمه على أهل ذلك العصر إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، واما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول الى النيل من سواه باسم المجون

على أنى أعتقد كما قلت أن ما نسب الى أولئك الشعراء كأبى نواس وبشّار ومن فى طبقتهما محل للشك ، ولا سيما اذا صح أنْ شعر أبى نواس لم يجمع فى كتاب (ديوان) على حدة فى حياته وانما جمعه رواة القصص وأخبار شعراء المجون وتناولوه بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد . ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها لا يحتاج الى تعريف بعد الذى قدمناه : وحسبنا أن الاستاذ طه حسين نفسه تردد فى قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التى قال : إن أبا نواس أنشدها له قبيل وفاته فى أيام متتابعة

فى التوبة والاستغفار . تردد الاستاذ فى صحتها وقال : إنها قصة متكلفة من غير شك وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر فى أوقات مختلفة من حياته

فلذى جوّز للأستاذ الشك فى صحة هـذه القصة يجوز الشك فى صحة أكثر القصص والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغيره من شعراء المجون ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقا لذلك العصر . واذا قرئت فانما تقرأ لأن فيها فكاهـة وترويحا للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جـد لا هزل وعصر نهضة علمية بلغت فيـه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات من السنين . ولقد أحسن الأستاذ فى مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك فى قوله : إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلا ، وانما يريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة. فإن فى قوله هذا دليلا على أنه يريد أن يخفف عن أبى نواس عبء الحمل الذى ألقاه على عاتقه وأن يستدرجنا ونعم ما فعل الى الشك فى صحة تلك القصص المخزية ، وأنه انما أوردها للفكاهة ولا سيما بعد أن عزز ذلك بقوله : إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ولا رجلا لا يؤبه له ، وانما كان ذا مكانة عالية وعالية جدا . ثم سرد عن تاريخ الحافظ ابن عساكر أسماء من رووا عن أبى نواس وروى عنهم أبو نواس : ولا جرم أن المجاهرة بالمجون والاستمتاع باللذات ثم رواية الحديث نقيضان لا يجتمعان . وهـذا ما يؤيد رأينا فى أن أكثر ما نقل عن أبى نواس

وأضرابه من شعراء المجون انما هى روايات قصصية بعيـدة عن الصحة وأنه لا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحيـة والخلقية فى ذلك العصر . وفوق كل ذلك علم عليم

رفيق العظم

رد على نقد [١]

كيف نفهم التاريخ

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذى نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين . ووعدت بالرد عليه ثم حالت حوائل بيني وبين هذا الرد الى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ، فان الخلاف بين هذا العالم الجليل وبيني لايتناول أشياء مفصلة فحسب ، وانما يتناول مبدأ عاما قبل كل شيء . وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل فى هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأيي فيه . ولست أدرى أأطمع فى إقناع هذا العالم الجليل أم أيأس منه ، لأن الخلاف بينه وبيني جوهرى جداً وشديد جداً . يذهب مذهباً فى التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهبا آخر فى التاريخ وفهمه . ويخيل الىّ أن ليس الى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم وكثير من العلماء المعروفين فى الشرق يسبغون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى أو الذى يشبه الديني تحول بين العقل وبين النظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم : وهم يضيفون اليهم كل خير وينزهونهم عن كل شر . وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ويرفعونهم عن صغائرها وهم يتحدثون

(١) نشر فى ٦ رجب سنة ١٣٤١ هـ — ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ م

ذلك قاعدة من قواعد البحث ومقياسا من مقاييس النقد . فاذا أضفت الى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً الا اذا كان فى نفسه خليقا بالرشيد يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها وانما هى المكانة التى خلعها عليه القدم وبعد العهد وجلال الخلافة وكرامة الدين وسطوة الأمة العربية :

فاما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى . فاما النظر الى الناس من حيث هم ناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون اليه ولست أغض من هؤلاء العلماء وانما أجلهم وأكرمهم : وحسبك أن إمامهم فى هذا المذهب هو ابن خلدون . ولعلك تعلم أني أجل ابن خلدون وأكبره ، ولكني أخالفهم فى الرأى وأرى أن مذهبهم فى التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق بأن يتغير وأنه سيتغير بدون شك . بل أنا أرى أكثر من هذا ، أرى أن هذا المذهب : مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب إسباغ الدين على التاريخ طور من أطوار التاريخ لا بد من أن يمر به ، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس لا بد من أن يمروا به . وقد خضعت لهذا الطور أمم أخرى غير العرب . فكتب مؤرخوها كما يكتب الاستاذ رفيق بك العظم ورأوا فى الآباء والاجداد ما يرى فى قدماء العرب .

ذلك أن هذه الامم اذا اضطرتها صروف الحياة الى أن تنزل عن

مجـدها وتنحط عن مكانتها العالية فتخضع لخطوب الدهر حينا وتنام عن العزة والسلطان ثم استفاقت من هذا النوم وتنبهت بعد الغفلة وطمحت الى أن تسترد المجد القديم وتستأنف سيرها في سبيل العلياء فأول شعور نجده في نفسها انما هو الشعور بهذا المجد القديم والحاجة الى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثلا عليا . فأنت لا تنظر الى هؤلاء الناس نظرا علميا مجردا بريئا ، وانما تنظر اليهم نظرا متهماً ماؤه الإعجاب والإكبار . لانك تتأثرهم وتحتـذى على مثالهم . واذن فرأيك فيهم غير صحيح وحكمك لهم أو عليهم متهم وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذى لا حـد له وبين النقـد العلمى الذى لا يعرف الهوى ولا يتأثر بالميول والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذا الإعجاب وهذا الميل الى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك الى أن تبرىء موضع إعجابك من كل عيب وتدفع عنه كل مكروه وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد لتوجد فنا من النقد التاريخى له قيمته وخطره ، ولـكن الغاية التى يسمو اليها ليست علمية بالمعنى الصحيح لأنه يسمو الى التنزيه والتمجيد لا الى التحقيق الذى لا يسمو الى مدح ولا الى ذم ، والذى لا يحفل بحمد أو هجاء : انظر الى مقدمـة ابن خلدون والى القسم الاول من هـذه المقدمة . انظر بنوع خاص الى منهجه التاريخى والى هذا النقد الذى بسطه ليبين اغلاط المؤرخين وتورطهم فى ضروب من الخطأ فى الحكم ، تجده قد تصور قواعد علمية لا بأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من اخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ ويحبب اليك او يحتم عليك تحكيم العقل فيما يروى لك من الحوادث ،

وهو يصل من هذا كله الى استكشاف قوانين قيمة فى النقد التاريخى ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يقولون حتى يتورّط فى مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل . لأنه متأثر بمجد القدماء وصلاح القدماء وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين وفساد أخلاقهم وأحوالهم .

فهو اذا أراد مثلا أن يصحح نسب الدولة الإدريسية فى المغرب الأقصى لم يعمد الى بحث تاريخى وانما استدل على صحة هذا النسب بحديث شريف فيه أن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وهو اذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العبث والمجون لم يذهب مذهب المؤرخين فى ذلك . وانما تحدث اليك بأن الرشيد كان يصلى مائة ركعة فى اليوم وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ، واذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبث ولا أن يلهو . ولم يفكر ابن خلدون فى أن من حق مؤرخ آخر أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلى مائة ركعة فى اليوم أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين الصلاة وبين العبث . ولم يخطر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان يعجب بالرشيد ويكبره ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليونانى « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها الى نقد « هيرودوت » « Hérodote » واتهمه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة فى العصر القديم شهرة أساءت الى « ابى التاريخ » ، فظن فيه الناس الظنون لأنه اتهم قدماء اليونان

وأبطالهم فى الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة فوصف بعضهم بالخيانة، وبعضهم بالغدر، وبعضهم بالجبن، وبعضهم بالرشوة. ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة وأعلى منزلة وأجل خطرا من أن يقعوا فى مثل هذه الآثام. وفتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرىء الآباء والأجداد من هذه النقائص. فلما كان العصر الحديث وكان استكشاف الآثار اليونانية وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة فى التاريخ ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف. وأن « بلوتارك » هو الذى تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس. وليس هذا بغريب فقد عاش « أبو التاريخ » فى أيام مجد اليونان وعزتهم فلم يكن يؤذيه ولم يكن يؤذى اليونان أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب. وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان وانحطاطهم السياسى فكانت هذه النقائص تؤذيهم وكانوا محتاجين الى المبالغة فى مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف.

هذه حالنا: ليس لنا مجد ولا مأثرة فنحن ننتحل مجد الآباء والأسلاف زينة لنا وافتخاراً. ويخيل الينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يغض من الأسلاف وحدهم وانما يغض منهم ومنا. أليس كذلك؟ وإلا فما مفاخرتنا بالعرب؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة؟ ضرب من الغرور نخفى به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف.

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم بما يتصف به الناس من

نقص . لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ولا يؤذى العرب فى أيامهم . وحسبك أن تقرأ ، لا أقول كتابا بعينه وانما أقول فى أى كتاب من كتب الأدب والتاريخ لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوي المكانة فيهم يوصفون بالخير والشر ، بالرفعة والضعة . بما هو مشرف وبما هو مزرى. ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناسا لا ملائكة .

يقول الأستاذ وأصحابه إن هذه الاخبار مختلقة منتحلة . وأنا أول من يعترف بأن كثيرا من الأخبار مختلق منتحل . ولكنى لا أستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منتحل . وان كل خبر يصفهم بما يرضى صحيح . هذا إسراف . وإسراف كثير . وانما القصد والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتمحيص فتتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقا وما كان منها منتحلا . وأنا أزعم أن كثيرا جدا من هذه الأخبار صادق ، وأزعم أن كثيرا جدا من خلفاء بني أمية وبنى العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو . ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين . لقد كان « اغسطس » و « نيبريوس » و « نيرون » كبار الكهنة فى روما . ولكنهم كانوا اقياصرة أيضا . فكانوا يؤدون للدين حقه وكانوا يؤدون للدنيا حقها . ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهرا القوة المسيح فى فرنسا ولكنهما كانا فى الوقت نفسه مظهراً لسلطان الفرنسيين وثروة الفرنسيين ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان وكانا يعبثان وكانا يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطبائها . وكان هذا الوعظ يوجه اليهما عنيفا مخيفا كأنه

الصواعق فيعجبان ويفزعان من سخط الله ثم ينصرفان الى القصر فما هى الا أن يتورطا فى الموبقات . ولا تقل كان هذان مسيحيين وكان قياصرة الرومان وثنيين وكان خلفاؤنا مسلمين فقد تختلف الديانات فى جوهرها ولكن الأثر الدينى فى نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف . فمن المسيحيين والوثنيين اتقياء ورعون كما أن من المسلمين والاسرائيليين أتقياء ورعين لا تقل إن مجد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث فأنا أؤكد لك أن « اغسطس » لم يكن خاملا ولا عاجزاً ، وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلا ولا مغرقا فى النوم . وما رأيك فى أن عصر الثورة الفرنسية وهو عصر هذا الجد المفزع المخيف كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجونا ، وكانت تجرى فيه أنهار الدماء وأنهار الخمر ، وما رأيك فى هذا العصر الذى نعيش فيه ؛ وما رأيك فى الحرب الكبرى وما جرت على أوربا من هول ؟ أتظن أن الاوربيين انصرفوا الى جد هذه الحرب وأخطارها عما فى الحياة من عبث ولهو ؟ كلا : لقد ازداد سلطان اللهو ثباتا فى اوربا ولقد كان الجندى يقتتل ويتعرض لالوان الهول حتى اذا ظفر باليوم أو الايام بعيداً عن ساحة القتال اندفع فى لذاته وشهواته اندفاعا لم يكن يعرفه قبل الحرب ماذا اقول ؛ لقد كانت تحمل اليهم اللذات فى ميدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات ان تصل الى آذان الجند . وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجند فتروعهم فاذا سلموا منها وظفروا

بوقت الراحة ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهم هذا كله أن يظفروا بالمجد سواء منهم الغالب والمغلوب

فلم يكن الدين اذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ، ولم يكن الفتح ليمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات . ولم يكن العلم ليحول بينهم وبين ذلك . فما كان حظهم من العلم بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا . ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ونحاول فهمه وتفسيره . خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون . ولكن أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون . وهما أن الناس جميعا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم ، وأن الناس جميعا مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه . يجب أن نفهم هذين القانونين وأن نحسن الملاءمة بينهما ، وأن نعرف فيم يختلف الناس وفيم يتشابهون ؛ وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه ؛ ونحن اذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسى قد كان كغيره من عصور المجد والحضارة ، فيه جد وهزل . وفيه شك ويقين . وأنا أزعم — وأعتقد انى قدر على إثبات ما أزعم — أن القرن الثانى للهجرة قد كان عصر لهو ولعب . وقد كان عصر شك ومجون . وكل شىء يثبت صحة هذا الرأى ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بداوة الى حضارة . ومن سذاجة الى تعقيد ، ومن فطرة خالصة الى علم وفلسفة . وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة وشعوب متباينة ؛ منها البدوى والحضرى ، ومنها الجاهل

والعالم، ومنها الغنى والفقير . أفتريد أن تختلط هـذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب دون أن تضطرب لهـذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم؛ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جـديد؛ إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان . أفتريد أن يمتزج العربي والفارسى والمصرى والروى وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب؛ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه فى الخيال . فأما فى الحياة الواقعة فليس اليه من سبيل .

ها نحن أولاء عاشرنا الاوربيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة . فانظر الى أثرها القوى العميق فى حياتنا العامة والخاصة . ثم حدثنى عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الاوربيين كان من القوة والعمق بحيث كان الاتصال بين العرب والفرس والروم . لست أدرى لم تفرق بين هذه العصور والاجيال المتشابهة وإن اختلفت . المتفقة وإن افترقت؛

يجب أن تفهم قانوني ابن خلدون . فالناس جميعا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم . مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم اذن أن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون . وأزعم أن كل شيء فى هذا العصر يؤيدني فى هذا الرأى . وحسبى أن ألفت الأستاذ رفيق بك الى ان هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد، وختم بخلافة الأمين بن الرشيد . وأحب أن يقارن بين هذين الخليفتين ثم ألفت الإستاذ الى بشّار ومطيع وأبي نواس والرقاشي والعباس بن الاحنف

ومسلم بن الوليد وحماد عجرد ويحيى بن زياد وابن المقفع وأبان بن عبد الحميد وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين ؛ ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون

ألفت الأستاذ الى هؤلاء جميعا . وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على هذه القاعدة وهى أنهم ناس لا ملائكة . ولكنى أخشى ألا يفعل الأستاذ لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء ، أما أنا فلا أقدس القدماء وانما أنظر اليهم كما أنظر اليك وإلى نفسى . وأعلم أنهم مثلك ومثلى يجدون ويمزحون . يحسنون ويسيئون . وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك فى الاسبوع الآتى عن الخمر عند أبى نواس .

الخمر قبل أبي نواس[1]

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء، ولا بالفخر. ولا بالوصف. ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه. وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محببة اليك والى في هذه الفنون نفسها كما سنرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره في الخمر. وبافتنانه في المجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والغلمان.

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ولم يسبق اليها. بل هو لم ينفرد بها في عصره. وإنما سبقه اليها كثير من الشعراء في الجاهلية وفي الاسلام، ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه، سبقه اليها كثيرون. ونافسه فيها كثيرون. ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه، وظل زعيم القدماء، وزعيم المحدثين في الخمر والغزل والمجون. ولو أننا نعني في هذه الاحاديث بالتعمق في البحث العلمي لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمريات أبي نواس أن ندرس مع شيء من التفصيل خمريات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس. وأن نجتهد في أن نتبين المقدار الذي سبق اليه أبو نواس لنعرف ما اخترع وما استحدث. وليكون حكمنا له أو عليه صحيحا من كل وجه. ولكنك تذكر أنا لا نزعم لهذه

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٢ رجب سنة ١٣٤١ ـ ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣

الاحاديث صفة البحث العلمي المستقصى ، لان هذا البحث لا يليق بالصحف السيارة ولا بالاحاديث التى تقرأ أو تسمع فى أى مكان وعلى أى حال دون أن يختصها القارىء أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر فى هذه الصحف من ضروب الكلام .

قليل من شعراء الجاهليـة من لم يعرض للخمر فى شعره . فأكثر هؤلاء الشعراء كانوا يشربون الخمر ، ومنهم من كان شربه لها متصلا ، ومنهم من كان يلم بها الماما . وكانوا يصفون هذه الخمر وأقداحها وآنيتها المختلفة . ولهم فى ذلك الكلام الجيد الكثير . ولا سيما الأعشى الذى أكثر الخمر وأطال . واشتهر بأنه من وصافها المجيدين . واستطاع ابن الاعرابى أن يزعم المأمون أنه اشعر من وصف الخمر لقوله :

ترِيك القذى من فوقها وهى فوقه اذا ذاقها من ذاقها يتمطق

بل ربما كان لنا أن نقول إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ منه شيئا ليس بالقليل . وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء وداوني بالتى كانت هى الداء

فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير « وداونى بالتى كانت هى الداء » وبين قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

فليس من شك فى أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق ، ولكن أبا نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخـذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف . فان قوله : «دع عنك لومى فان اللوم اغراء » ليس

فى شعر الأعشي وهو يكفى لان يحتفظ لابى نواس بالبيت كله ، وقوله : « وداوني بالتى كانت هى الداء » يذكر بقول الأعشى ، ولـكنه ليس إياه ، لأن الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأساً ويتداوى بكأس أخرى ، فمعناه ضيق محدود ، بينما أبو نواس قد مدّ هـذا المعنى وبسط أطرافه ، فأصبح لاحد له ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الخمر داء ملازما لمن يشربها ، وأصبحت هى دواء لهذا الداء ، فهو يتداوي طول حياته من الخمر بالخمر ، أما الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لايذكر الداء والدواء إلا اذا شرب ، بينما أبو نواس لاينفك يذكرهما ، لانه لاينفك فى داء ودواء .

وللأعشى غير هذا كثير ، ولـكننا لانعرض له لما قدمنا ، وهناك شاعر آخر جاهلى يظهر أنه قد عني بالخمر وأجاد فيها إجادة لابأس بها ، وكان مسيحياً عاش قبل الاسلام ، ولم يكن بادياً بمعنى الكلمة ، وإنما كان حاضراً أو كالحاضر . وكان يعيش فى هذا الاقليم الذى عاش فيه أبو نواس ، وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التى ربما اختلف اليها أبو نواس بعده بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد فى معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان يجيد فى الخمر وكان يجيد فى الزهد والنسك وضرب الأمثال وإطلاق الحكم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن أبو العتاهية ، ويروى له غزل لابأس به ، وهو عدى بن زيد العبادى الذى عاش فى الحيرة فى أواخر العصر الجاهلى ، لم يرو الرواة له كثيراً فى الخمر ، ولـكن ما يروى عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفيها مجيداً ، وانظر إلى

هذه الأبيات القليلة التى يختلف فيها الرواة اختلافا كثيراً ، والتى كانت تغنى للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر .

بكر العاذلون فى وضح الصبـ ـح يقولون لى أما تستفيق

ويلومون فيك يابنة عبد الـ ـله والقلب عندكم موثوق

لست أدرى اذا أكثروا العذل فيها أعدوّ يلومني أم صديق

ثم ثاروا الى الصبوح فقامت قينة فى يمينها إبريق

قدمته على عقار كعين الـ ـديك صفىّ سلافها الراووق

مرة قبل مزجها فاذا ما مزجت لذّ طعمها من يذوق

وطفت فوقها فقاقيع كالد ر صغار يثيرها التصفيق

ففى هذه الابيات على جاهليتها رقة الحضارة دون ان تخلو من رصانة البداوة . ولا بأس بهذا البيت الذى يصف ما يبدو على الخمر حين تمزج فيذكر على بعد بقول أبى نواس .

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

ولا بأس بهذه الصورة التى يظهرها قوله :

ثم ثاروا الى الصبوح فقامت قينة فى يمينها إبريق

ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هذا الشاعر فى الخمر وغير الخمر لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق فى العصر العباسى وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الاقليم العراقى والبيئة العراقية فى الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية . ولكن ما يروى عن هذا الشاعر قليل جداً ، واكثره مشكوك فيه . وأحسب

ان الحظ الموفور منه — ولا سيما الزهد والحكم — قد نحل فى العصر الاسلامى وأضيف الى هذا الشاعر لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلا من الزهد فاضاف المنتحلون الى هذا القليل ما يجعله كثيراً وهذا الانتحال على الجاهليين معروف مشهور :

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر وأجادوا فيها بعض الإجادة . ولكن وصفهم لم يكن عميقا ، ولم يصنع فيه التدقيق ، وانما كانوا يقنعون بالظواهر فيصفون لون الخمر ومظهرها . ويصفون أقداحها وأباريقها وصفا مجملا ، ويصفون طعمها ويصفون ما تحدث من نشوة غير مبالغين فى هذا الوصف ، ولا مسرفين فى البحث عن الدقائق . بل انما كانوا يقصدون حين يصفون الخمر الى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الخلال . فكثير جداً فى ذلك العصر ما يشبه قول عنتره

وإذا شربت فاننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم

وكثير جدا ما يشبه هذه الابيات التي قالها المنخل اليشكرى فى وجهتها وهى الفخر ,لافى معانيها . وهى من أبدع ما يروى عن الشعراء الجاهليين ولكن لا تنس أن المنخل اليشكرى شاعر من شعراء العراق أيضا . كان يعيش فى الحيرة وينادم النعمان ويعاصر النابغة وهذه هى الابيات:

ولقد دخلت على الفتا ... ة الخدر فى اليوم المطير

الكاعب الحسناء تر ... فل فى الدمقس وفى الحرير

فدفعتها فتدافعت ... مشى القطاة الى الغدير

فلثمتها فتنفست ... كتنفس الظبى البهير

ولقد شربت من المدا — مة بالصغير وبالكبير
فاذا سكرت فانني — رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فانني — رب الشويهة والبعير
يا هند من لمتيم — يا هند للعانى الأسير

فانظر الى أول هذا الشعر كيف أحسن تصوير هذه الفتاة ، وكيف ذكر يوم لهوه ثم انظر الى هذين البيتين : أحدهما يشبّه تدافع الفتاة بمشى القطاة الى الغدير ، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها ، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها . ثم انظر اليه كيف عرض للخمر فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس . وشرب منها بالقدح . وعلى أنه قد يسكر فيخيل اليه أنه الملك ذو القصر وينسي حياته الحقيقية فلا يذكرها الا اذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير

وانظر إلى قول الآخر من شعراء الجاهلية :

ومعرس عرض الردى عرسته — والصبح ساطع لونه لم ينجل
فاتيت حانوتا به فصبحته — من عاتق بمزاجها لم تقبل
صهباء صافية القذى أغلى بها — يسر كريم الخيم غير مبخل

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر . ولكنهم لم يكونوا يمعنون فى هذا الوصف امعانهم فى وصف الخيل والابل ، وما الى الخيل والابل ، لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون ان يعكفوا عليها ويعاشروها معاشرة متصلة كما كانوا يعاشرون الابل والشاء . وانما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة يشرب فيها ويلهو ؛ فاذا فرغ

من شربه ولهوه تحدث بذلك مفاخراً وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وانما دعاه الى ذلك الفخر والفن . فقد دخل وصف الخمر والالمام بها فى فن الفخر والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء ومن العفة حين يدعو كل شيء الى اطراح العفة ، الى غير ذلك من هذه المعانى الشائقة التى تجدها عند الجاهليين جميعا. فاذا اردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه وجدت صفتين اثنتين. الاولى ان الشعراء كانوا يلمون بالخمر الماما ولا يلحون فى وصفها ولا يكثرون منه ولا يدققون فيه . وانما كانوا يعرضون له مع شيء من الاحتياط. الثاني انهم لم يتخذوا وصف الخمر فنا مستقلا من فنون الشعر كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون . ولم يكن من الممكن ان يستقل وصف الخمر فى هـذا العصر ويصبح فنا قائما بنفسه يقصد من حيث هو. لأن الحياة الجاهليه لم تسكن تسمح بذلك ولا تدعو اليه . ولهـذا اشتهر الاعشى وعدى بن زيد باكثارهما فى وصف الخمر لأن ذلك لم يكن شيئا مألوفا . فلما جاء الاسلام سكت الناس عن الخمر حينا ، صرفهم عنها الدين، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار . ومع ذلك فيظهر ان الشعر وحده هو الذى سكت عن الخمر خوفا واشفاقا ، وان كثيراً من العرب البادين والمتحضرين كانوا لا يضنون على انفسهم باللهو يختلسونه اختلاسا ويسترقونه استراقا . وللرواة فى ذلك أحاديث منها الصحيح ومنها المتكلف المنحول . فهناك بيت يحضرني ولست أدرى لمن هو ، ولـكنى أعلم انه قيل ايام عمر رضى الله عنه ، وانه موجه اليه وهو : —

لعل أمير المؤمنين يسوءه   تنادمنا فى الجوسق المتهدم

وقصة الوليد بن عقبة عامل عثمان رضى الله عنه على الكوفة شائعة معروفة . والرواة يزعمون انه كان يدمن على الشراب وانه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران فركع ثلاثا ثم التفت الى المصلين وقال : « ان شئتم زدناكم » ويروى الرواة ان عثمان امر بحده وان عليا رضى الله عنه هو الذى ضربه . والرواة يتحدثون بشىء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى فيزعمون انه كان يحب الخمر ويعكف عليها وكأنه كلم فى ذلك وذكر بآيات الله فقال كلاما لا نرويه

وما كاد ينتهى عصر الخلفاء ويثبت سلطان بني أمية حتى ضعف سلطان الدين وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع الى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات . وكثرت الغنائم وعظمت الثروة واضطر افراد كثيرون من احفاد المهاجرين والانصار واشراف قريش إلى أن يقيموا فى الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغني كثير . وقد حيل بينهم وبين العمل السياسى خوفا منهم أو عقابا لهم ، فانصرفوا إلى اللهو وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيها وتغيرت الآية : فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو ، وكانت لهؤلاء الناس جميعا مجالس معروفة مشهورة كثر ذكرها فى كتب الادب والتاريخ ، وكثرت حولها الاخبار والاشاعات . واضطر الخلفاء من بنى أمية إلى أن يظهروا فى بعض الاحيان ضروبا من القسوة . فنكلوا ببعض هؤلاء الناس وعذبوا بعضهم ثم نفوه . وخبر الاحوص ابن محمد الأنصارى معروف .

وخبر المخنثين فى المدينة معروف أيضا . وشعر عمر بن ابي ربيعة وأخبار الدلال أكثر وأشهر من أن نلح فى ذكرها

ومع هـذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون ، ولـكنهم كانوا يحتشمون ، فلا يكادون يذكرن ذلك فى الشعر الا الماما ، كانوا يحتشمون اشفاقا ووقارا ، ولم يكن المسيحيون مكلفين آن يحتشموا ولا ان يخافوا ، بل كانوا يجهرون بلذاتهم ، وظهر فى ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بنى امية ولسانهم الناطق بسياستهم المناضل عن حزبهم ، كان مسيحيا وكان كلفا بالخمر مشغوفا بها حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال انهم عذبوه وضربوه لانه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينـه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين : أكثر الاخطل من الشرب وأكثر من وصف الخمر وأجاد فيه وجاهر بشربه ولهوه واستخدمه فى السياسـة . فيروي أنه دخل ذات يوم على عبد الملك ابن مروان وهو سكران يترنح فانشده هذين البيتين

اذا ما نديمى علنى ثم علنى ثلاث زجاجات لهن هـدير
خرجت أجر الذيل تيها كأننى عليك أمـير المؤمنين أمـير

فلما سأل عبد الملك عن شأنه ذكر الاخطل ما كان من زفر بن حارثة الذى عادى بني أمية وكلفهم ضروبا من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم قربه عبد الملك وأخذ يحبه فاغتاظ لذلك الزعماء وأغروا به الاخطل فدخل على الخليفة فى هذه الحال وأنشده هذين البيتين ، وكان زفر جالسا على سرير عبدالملك ، فروي الاخطل من شعر زفر هذين البيتين :

أريني سلاحي لا أبا لك انني ... أرى الحرب لا تزداد الا تماديا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات الصدور كما هيا

فيقال ان عبد الملك ضرب برجله فى صدر زفر فألقاه على السرير وكاد يقتله

ولسنا نريد أن نطيل فى شعر الاخطل ووصفه للخمر فشعر الاخطل معروف وديوانه مطبوع . ولكننا نستطيع أن نقول بالاجمال ان الاخطل على إكثاره فى وصف الخمر لم يكد يتجاوز ما سبقه اليه الاعشى وغيره من شعراء الجاهلية فهو أكثر فى وصف الخمر ولكنه لم يخترع شيئا كثيرا

أخذ الزمن يتقدم وأخذ الناس يترقون . وأخذ الاحتشام يقل ويضعف فى الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل الى اللذة والاسراف فيها ينتقلان من مكة والمدينة الى دمشق . ولسنا نذكر يزيد بن معاوية . فقد كان الانكار عليه شديداً ، وكان سخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريبا وحرصهم عليه لم يزل قويا . بل لا نذكر أبناء عبد الملك فقد كانوا يحتاطون فى اللهو ويتسترون . ولكن القرن الاول للهجرة لم يكد ينتهى حتى كان الجيل قد تغير والعهد قد تبدل وحتى كان الاختلاط بين العرب والفرس وهذه الامم الكثيرة المتباينة فى الشام قد عمل عمله وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ، ومن أعظمها وأشدها خطراً المجون وحب اللهو وحرية الفكر والسيرة . ولقد أشرنا فى الحديث الماضى الى أن هذا القرن الثانى للهجرة قد كان عصر مجون وشك ، وقلنا يكفى أن يكون هذا القرن قد

بدىء بالوليد بن يزيد وختم بالامين بن الرشيد . ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد وعما سلك من طرق الهزل وما ابتدع من ألوان المجون حين كان وليا للعهد وحين كان أميراً للمؤمنين . ولسنا نود ذلك حبا فيه أو كلفا به ، بل لأن للوليد بن يزيد أثراً قويًا جدا عرفه المتقدمون انفسهم فى شعر أبى نواس فان صاحب الاغانى مثلا يتحدث بان الشعراء العباسيين أخذوا كثيرا عن الوليد فى الخمر . ويختص منهم أبا نواس لانه أكثر الانتفاع بشعر الوليد . وليس فى هذا شىء من الغرابة فقد كان الوليد سىء الحظ فى حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره فعدا عليه الشعراء وأمنوا أن يتهموا بالسرقة . كان الوليد سىء الحظ فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ويضع ابنه مكانه . فكان لذلك يضطهده ويضطهد أولياءه . فلما مات هشام واستخلف الوليد لم يطل عهده بالخلافة وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه . وليس يعنينا أن يكون الوليد ظالما أو مظلوما وليس يعنينا أن نحكم فى أمر الوليد من جهة الدين والسياسة . وأما الذى يعنينا الآن هو أن نقول ان الوليد كان شاعراً مجيدا وماجنا ماهرا فى المجون مفطورا عليه وانه هو الذى فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة سىء الحظ لان شعره ضاع ولم يحفظ وتفرقت شخصيته بين الشعراء فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تنم به اخباره فى الاغانى .

نقول ان الوليد هو الذى فتح للشعراء باب المجون . ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه .

فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهدا فى حياته أيام عمه هشام . وانه اضطهد بعد موته ولا سيما أيام بنى العباس وان خصومه واعداءه من الامويين والعباسيين قد أضافوا اليـه من الشعر والحوادث ما لم يقل ولم يعمل . واذن فيجب الاقتصاد والحذر عندقراءة مايضاف اليه . ومع هذا الاقتصاد والحـذر فليس من شك فى أن الوليد كان ماجنا خليعا وكان مسرفا فى الخلاعة والمجون . ولم يكن اسرافه فى الخلاعة والمجون أثراً من آثار اللذة والكلف بهـا فحسب ، وانما كان فيما يظهر أثراً من آثار اضطراب الدين وفساد العقيدة فى نفسه . كان أثراً من آثار البدع الجديد الذى نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة فأحدث الشك والالحاد فى نفوس نفر منهم غير قليل . فلم يكن الوليد مؤمنا بالبعث ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدى فرائضه الدينية فيصلى ويصوم لان الناس كانوا يصلون ويصومون . ولانه كان وليا لعهد الناس أو خليفـة على الناس . وانظر الى هذه الابيات :

أدر الكاس يمينـاً لا تدرهـا ليسـار
إسق هذا ثم هـذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوهـا منـذ دهر فى جرار
ختموهـا بالأفاريـــه وكافور وقار
فلقـد ايقنت أني غـير مبعوث لنار
. . . .
وذروا من يطلب الجنـــة يسـعى لتبار

فى هذا الشعر شيء من روح أبي نواس . ولكنه لم يبلغ من الصقل وصفاء الأديم ما بلغه أبو نواس . والوليد يعترف فيه بانه لن يبعث ولن يعذب . واذن فليستمتع باللذات . وليدع الاتقياء يشقون بخيال الجنة الذى يسعون اليه . بل هو لايريد أن يدع هؤلاء الناس وما يسعون اليه من نعيم حق أو باطل ، وانما يريد أن يروضهم حتى يصل بهم الى ما يريد من انكار كل شيء والعبث بكل شيء سواء فى ذلك الدين والخلق والعادة ولقد تحدث بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء وأخذ يتحدث ، ثم قال : اسقيني : فاقبلت جوار فقمن بينه وبين الراوى فسقينه . وأخذ يقول اسقيني وأخذ الجواري يسقينه حتى أقبل الفجر ، قال الراوى فاحصيت له سبعين قدحا . ومثل هذا كثير فى أخبار الوليد . والناس يروون أنه سكر يوما فأمر جارية له فصلت بالناس . ولم يكن الوليد مغرقا ولا مندفعا فى اللذات اندفاعا غير منظم . لم يكن سكيراً معربداً وانما كان فى قلبه مكان للحب ، وللحب القوي المتين ، فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان . وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى فحال هشام بينه وبين ذلك ، فأنطقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء . فلما ولى الخلافة وصل الى ما أراد ولكن سلمى لم تقم عنده الأربعين يوما ثم ماتت فجزع الوليد ورثاها بالشيء الكثير . وأكثر ما قال الوليد فى سلمى غنى فيه . وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها . فاذا أردت أن تتعرف روح

الوليد وشخصيته الشعرية فاقرأ هذا الشعر فى الاغانى. ولكنى أروى لك أبياتاً له فى الخمر لا تشك حين تقرؤها فى أنك تقرأ ابانواس .

إصدع نجىّ الهموم بالطرب — وانعم على الدهر بابنة العنب

واستقبل العيش فى غضارته — لا تقف منه آثار معتقب

من قهوة زانها تقادمها — فهى عجوز تعلو على الحقب

أشهى الى الشَّرب يوم جلوتها — من الفتاة الكريمة النسب

فقد تجلت ورق جوهرها — حتى تبدت فى منظر عجب

فهى بغير المزاج من شرر — وهى لدي المزج سائل الذهب

كأنها فى زجاجها قبس — تذكو ضياء فى عين مرتقب

فى فتية من بني أمية أهـ — ـل المجد والمأثرات والحسب

ما فى الورى مثلهم ولا بهم — مثلى ولا منتم لمثل أبى

فانظر الى هذا الشعر الجيد السهل ، وانظر ما فيه من تشبيه بديع ينم عن حضارة وترف :

فهى بغير المزاج من شرر — وهي لدى المزج سائل الذهب

ثم ألست تحس فى هذا الشعر كله رقة أبي نواس وخفة روحه ؟ ومع هذا فالوليد محتفظ بالسنة القديمة : يتخذ الخمر وسيلة الى الفخر

لم يكد يبتدىء القرن الثانى اذن حتى ظهر المجون وانتشر ووصل الى قصور الخلفاء . ثم كانت ثورة العباسيين فتم انتصار الفرس على العرب وانتقل مركز الخلافة من الشام الى العراق وأصبح الادب عراقيا لاشاميا ولا بدويا . أي اصبح خاضعا من كثب لتأثير الفرس وحضارة الفرس .

فتم انتصار العبث والمجون ، وتمت استحالة الطبع العربى وانقطع أو كاد ينقطع العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الاموى . وأقبل ابو نواس وأصحاب ابى نواس فوجدوا سنة موروثة وطريقا ممهدة فاحيوا السنة وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد فلم يضيعوا الميراث ولم يفسدوه، وانما نموه ورقوه ،وكان هذا الشعر العباسى الذي نزعم ان ابا نواس يمثله والذي سنحدثك عنه فى الاسبوع الآتى

الخمر عند أبي نواس (١)

رأيت فى الأسبوع الماضى أن الخمر قد وصفت قبل أبي نواس بنحو قرنين، فأحسن وصفها، وأن الشعراء قد كلفوا بهـا وتهالكوا عليها، وأن الوليد بن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخمر وسيلة إلى اعلان المجون فيما نعلم، وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره فاحسنوا وأجادوا ولكن أبا نواس هو زعيم هـذا الفن كما قلنا، والناس مجمعون على ذلك، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبي نواس فى وصف الخمر والافتنان فيها، ولقد كان بعض الرواة يغلو فى ذلك فيزعم أن أبا نواس قد وصف الخمر وصفاً لو سمعه الحسنان لهاجرا اليه ولعكفا عليها: يريد الحسن البصرى وابن سيرين. ولسنا ندرى الى أى حد كان ينصف هذا الراوية. ولكنا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخمر احساناً لم يسبق اليه ولم يلحق فيه، ونعلم أيضاً أن هذه الاوصاف التى نستحسنها ونستعذبها ليست من الجودة أو الحسن بحيث ترغبنا فى الخمر أو تحملنا على أن نهاجر اليها ونعكف عليها بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك فنزعم أن كثيراً من هذا الاحسان وهذه الإجادة قد يمر بنا دون أن نلاحظه أو نلتفت اليه إلا اذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذى عاش فيه أبو نواس وتبينا ذوق أهله وما كانوا يحبون ويكرهون، فى هذا الاحسان والإجادة شىء كثير اضافى، أى أنه احسان وإجادة بالقياس الى العصر الذى قيل فيه، والى الناس الذين

(١) نشرت بالسياسة فى ١٩ رجب سنة ١٣٤١ ـ ٧ مارس سنة ١٩٢٣

سمعوه ، فاذا تغير الزمان واستحال الذوق فليس بالاحسان ولا بالإجادة ، وربما كان أدني إلى الثرثرة ولغو الكلام ، ولهذه الملاحظة خطرها فهى تدل على شيئين قيمين : أحدهما أن الحكم على شعر القدماء ـ ولا سيما الشعر الغنائى ـ لاينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصري وحده مقياساً للجودة والرداءة ، وإنما ينبغى أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذى عاش فيه الشاعر ، فان الشعر الغنائى بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر وقومه وما كانوا يشعرون به . وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون مالانحب ويكلفون بما لانكلف به ، ويميلون الى مالانميل اليه ، فليس غريبا أن يستعذبوا من الشعر ما لانستعذب ، وأن يفتنوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترثين . الثاني أن قليلا جداً من هذا الشعر الغنائى مايبقى على الدهر ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلا جداً من الشعراء المغنين من يظفرون باعجاب الجيل الذى يعيشون فيه والأجيال التى تليه ، فاذا ظفر احدهم بهذا الاعجاب المتصل فذلك آية نبوغه وقدرته على وصف العواطف التى تهز قلوب الناس من حيث هم ناس لا من حيث أنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث أنهم من أهل القرن الثانى أو الرابع عشر للهجرة . ولأبى نواس حظ غير قليل من هذا الاعجاب كما رأينا فيما مضى وكما سنرى فيما نعرض له من شعره . ولكن لأبى نواس شعراً كثيراً عجب به الناس فى عصره ولا نحفل به نحن الان . وهذا الشعر كثير فى الخمر . وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال التى قالها أبو نواس

وغير أبي نواس في قدم الخمر وتعتيقها . وأنها قد شهدت عصر نوح ثم عاد وثمود وانها تستطيع أن تتحدث اليك باخبار الأولين الى آخر ماهنالك مما هو كثير يملأ شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا اعجاباً اضافياً لاننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه . ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذى يصف الشعراء فيه بحثهم عن الخمر وارتيادهم إياها ومغالاتهم فى ثمنها فيشبهونها بالعذراء تخطب الى أبيها الدهقان ويغالى هذا الدهقان فى مهرها ويتمنع فى تزويجها من شاربيها لانه يريد أن يتخذ لها الاكفاء . ومن ذلك ايضا الاكثار فى وصف طعم الخمر وريحها وانها تقطب الجبين وتزيل الزكام الى آخر ما هنالك مما لا نحفل نحن به الآن

ثم هذا الكلام الكثير فى ان الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وانما عتقت وتخمرت فى جوف الارض بمعزل عن حر الشمس والنار . وقد نقرأ الشعر الذى يتناول هذه المعاني فنعجب به لان لفظه جيد، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئا من الإحالة والبعد عن معقول الناس . فاذا اردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا لم نجد شيئا . وأغرب من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يحتذون القدماء ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة ويسحروننا بكلام نسمعه فنعجب به ، حتى اذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئا أو وجدنا مالا يروق فأى الناس سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به :

يا غلامُ المدامَ والكاسَ والطا ... سَ وهيِّئْ لنا مكاناً كأمسِ

واسقنى يا نديم حتى تراني   لا اطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها   من خدود الملاح فى يوم عرس

فانظر الى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك ؛ وكيف لا تفتنك خدود الملاح فى يوم عرس ؛ ولكن تكلف أن تتبين هذه الخمر التى تعصر من خدود الملاح : وحدثنى أتستطيع أن تشربها ،أو أتستطيع أن تنظر اليها دون أن تتأذى وينالك شىء من الألم غير قليل ، اذن فينبغى أن نحتاط ونقتصد فى الإعجاب بالشعر عامة وبشعر القدماء خاصة. فان سحر الشعر كثير قوى ، مختلفة أسبابه وبواعثه .

والآن وقد بسطنا هذه المقدمة التى لم يكن منها بد نستطيع أن نعرض لوصف الخمر فى شعر ابى نواس . وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التى نستطيع أن نعتبرها مقياسا لذوق الشعراء فى ذلك العصر وللموضوعات التي كانوا يامون بها ويقصدون اليها وهى :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها   بالرطل يأخذ منها مائة ذهبا
قصرت بالراح فاحذر أن تسمعها (كذا)   فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا
انى بذلت لها لما بصرت بها   صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا
فاستوحشت وبكت فى الدن قائلة   يا أم ويحك أخشى النار واللهبا
فقلت لا تحذريه عندنا ابداً   قالت ولا الشمس قلت الحر قد ذهبا
قالت فمن خاطبى هـذا فقلت أنا   قالت فبعلىَ ؟ قلت الماء ان عذبا
قالت لقاحى ؟ فقلت الثلج أبرده   قالت فبيتى فما أستحسن الخشبا

قلت القناني والأقداح ولدّها فرعون قالت لقد هيجت لى طربا
لا تمكنني من العربيد يشربني ولا اللئيم الذى ان شمنى قطبا
ولا المجوس فان النار ربهم ولا اليهود ولا من يعبد الصلُبا
ولا السفال الذى لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل الا من يوقرنى من السقاة ولكن أسقي العربا
يا قهوة حرمت الا على رجل أثرى فأتاف فيها المال والنشبا

فانظر الى هذه القصيدة فلن تجد فيها معني يخلبك أوشيئا يستهويك، ومع ذلك فاستطيع أن أؤكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعانى ويستعذبون الشعر الذى ترد فيه. وكانوا يحبون هذا التشبيه: تشبيه الخمر بالعروس تخطب ويغالى فى مهرها، وكانوا يحبون هذا الحوار يجرى بين الخمر ومن يرتادها، وكانوا يحبون هذه الابيات الاخيرة التى تقصى عن الخمر من ليس لشربها أهلا، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت الاخير الذى يحل الخمر للغنى يتاف ثروته فيها. أما نحن فلعلنا لا نحب من هذا كله شيئا ولعلنا نقرأ هذه القصيدة فلا نجد فيها ما يستخف ولا ما يرغب فى الخمر

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حبا ربما كان أشبه بالدين: كان يعبدها ويقدسها تقديسا.

فانظر الى هذه الابيات ولست أشك فى أنك ستستحسنها وتعجب بها الاعجاب الكثير وتشعر بانها ليست مدحا للخمر وانما هي صلاة الى الخمر:

أثن على الخمر بآلائها وسمّها أحسن أسمائها
لا تجعل الماء لها قاهرا ولا تسلطها على مائها

كرخية قد عتقت حقبة — حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها — منها سوى آخر حوبائها
دارت فأحيت غير مذمومة — نفوس حراها وانضائها
والخمر قد يشربها معشر — ليسوا اذا عدوا باكفائها

فانظر الى هذا البيت :

أثن على الخمر بآلائها — وسمها أحسن أسمائها

أليس الشطر الاول منه تسبيحا للخمر أليس الشطر الثانى منه تقديسا للخمر ؛ اليس في هذا البيت على سهولته وبراءته من الفاظ المجون أشد الوان المجون ؛ اليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ؛ اليس يذكرك القرآن ؛ اليس يذكرك قول الله تعالى : « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » ثم انظر الى ما جاء بعد هذا البيت انظر الى سهولة اللفظ وخلوه من التكلف ، أنظر الى هذا النظم يكاد يكون نثرا ، وانظر الى دقة هذا المعنى الذى قد لا يعجبك في نفسه ولكنه على هذا جميل دقيق يمثل عقل أبى نواس واصطباغه بالصبغة الفاسفية التي كانت عامة فى عصره

كرخية قد عتقت حقبة — حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها — منها سوى آخر حوبائها

فهذه الدقة لا تستهويك ولا ترغبك فى الخمر ولا تنزع بك الى حب الشراب ، ولكنها فى نفسها جميلة محببة

وانظر الى استئناف الثناء على الخمر فى لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع

دارت فأحيت غير مذمومة نفوس حراها وأنضائها
والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عُدّوا بأكفائها

فقد رأيت فى هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت فى الأولى معانى لاتعجبك ولا تروقك وكانت تعجب القدماء وتروقهم ، ورأيت فى الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحث عليها ، وانما هى جميلة لنفسها لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته وحسن غوصه على المعانى ، وهى تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين

وانظر الى هذه الابيات التى تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء لأنها تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء فى وصفه :

كم مترف عقل الحياء لسانه فكلامه بالوحى والايماء
لما نظرت الى السكرى فى عينه قد عقّل الجفنين بالاغفاء
حركته بيدى وقلت له انتبه يا سيد الخلطاء والندماء
حتى أزيح الهم عنك بشربة تسمو بصاحبها الى العلياء
فأجابني والسكر يخفض صوته والصبح يدفع فى قفا الظلماء
انى لافهم ما تقول وانما رد التعافى سورة الصهباء

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديمك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا تستأنف الشراب اذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء . ولكن انظر الى هذا البيت بنوع خاص :

فأجابنى والسكر يخفض صوته والصبح يدفع فى قفا الظلماء

كان أبو نواس اذن يعبد الخمر ويدمن عليها فيشربها اذا أمسى ويشربها

اذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه ، وربما عكف عليها الأسبوع كله لا ينصرف عنها الا حين يثقله النوم كما ترى ذلك فى قصيدته التى مطلعها :

ياطيبنا بقصور القفص مشرقة   فيها الدّساكر والأنهار تطّردُ

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذى كان ينادمه ويساقيه ، واتخذ أنصار المأمون فى خراسان هذا سلاحا يحاربون به الامين . فكان ينشد مجون أبى نواس فى المسجد الجامع عند الصلاة ويلعن من قاله ومن أحبه ، وكأن هذا قد وصل الى الأمين فى بغداد فاشفق منه وأراد أن يحتاط ويصطنع الوقار ، فنهي أبا نواس عن شرب الخمر وأظهر أبو نواس الطاعة . ولكن ذلك شق عليه فقال فيه شعرا كثيرا جدا منه هذه الابيات

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا   وأعربت عما فى الضمير وأعربا

وقلت لساقيها أجزها فلم أكن   ليأبي أمير المؤمنين وأشربا

فجوّزها عنى سلافا ترى لها   الى الأفق الأعلى شعاعا مطنبا

اذا عب فيها شارب القوم خلته   يقبل فى داج من الليل كوكبا

وقال هذه القصيدة الأخرى التى تبين مقدار ما يعانى من الالم والحرمان لطاعة الأمين

أيها الرائحان باللوم لُوما   لا أذوق المدام الا شميما

نالني بالملام فيها إمام   لا أرى لى خلافه مستقيما

فاصرفاها الى سواى فاني   لست الا على الحديث نديما

كبر حظى منها اذا هى دارت   أن أراها وأن أشم النسيما

فكأني وما أزين منها   قَعَدِيٌّ يزين التحكيما

كلٌ عن حمله السلاح الى الحر ب فاوصى المطيق ألاّ يقيما

وليس كل الناس قادراً على أن يفهم هذين البيتين الاخيرين على انهما لا يخلوان من جمال . فهو يشبه نفسه في وصفه للخمر وحثه الناس على شربها دون أن يستطيع لها مذاقا بالخارجي الذي عجز عن الحرب فقعد وأخذ يحث الناس عليها . على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب . ولعل التوبة لم تدركه الا حين أدركه الموت . وقد ذكرنا لك في غير هذا الفصل ما كان من أمر صديقه الكوفي الذى مازال به حتى حمله على خلاف الأمين فشرب الخمر وسب زبيدة وعاد الى الامين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ، فلم يغضب لذلك الامين بل حمده ورضي عنه وأمر أبا نواس فحمل اليه صديقه الكوفي فاتخذه نديما .

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئا غير هذا الفسق والاغراق في المجون وهو أنه كان يريد أن يتخذ ، ويتخذ الناس معه في الشعر مذهبا جديدا . وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها هذه الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء وما ألفوا من ضروب العيش ، فاذا تغيرت ضروب العيش هذه وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف الخيام والاطلال أو يتغنى الابل والشاء . وانما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ويتغنى الخمر والقيان ، فان فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف

أراد ابو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجد فيه ووفق التوفيق

كله واتخذ وصف الخمر وما اليها من اللذات وسيلة الى مدح طريقته الحديثة وذم طريقة القدماء . ولولا ما نعرفه من سيرته وإدمانه لكان من الحق أن نشك فى أنه من اللهو والمجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والاسراف أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد؟ على أن هذا المذهب الجديد على حسنه واستقامته ، وعلى أن ابا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكننا من أن نفهم بغض الناس له ونعيهم عليه : فهو ليس مذهبا شعريا فحسب وانما هو مذهب سياسى أيضاً . يذم القديم — لا لأنه قديم — بل لأنه قديم ولأنه عربى . ويمدح الحديث — لا لأنه حديث — بل لانه حديث ولأنه فارسى . فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب : مذهب الشعوبية المشهور . ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصار العربية على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب : ومهما يكن من شىء فالخمريات التى عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجديد وذم المذهب القديم هى اجود ما يروى عن أبي نواس . ولا بد من ان نلم بكل هـذه القصائد لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجديد كما كان يتصوره أبو نواس . ولكننا نرجىء هذا الى الاسبوع الآتى ونختم حديث اليوم بهذه الأبيات فى هذا الموضوع

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت من حلق شاربها ... أجدته حمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... فى كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها ... خمراً فمالك من سكرين من بد

لى نشوتان وللندمان واحدة　　شىء خصصت به من بينهم وحدى

ويتحدث الرواة ان أبا نواس انشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه فخروا له سجّدا : فقال فعلتموها اعجمية والله لا كلمتكم ثلاثا وثلاثا وثلاثا. ثم ندم وقال تسعة أيام فى هجر الاخوان كثير! وربما كان أصحاب أبى نواس مسرفين حين سجدوا له اعجابا به . ولكن الشىء الذي لاشك فيه هو أن هذه الابيات من أحسن شعره واجوده . وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الابيات ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك دون أن تستطيع له تحديداً : جمال فى اللفظ وجمال فى المعنى ، فليس فى اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هى ألفاظ متخيرة ليست بالمبتذلة ، ولا التى لا يفهمها عامة الناس ، وليس فى المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل بل هى معان مألوفه ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ما كنت لتحسها لولا ان قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها الى بعض . انظر الى قوله :

« واشرب على الود من حمراء كالوردِ »

وانظر الى قوله :

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة　　فى كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمرا ومن فمها　　خمراً فما لك من سكرين من بد

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضا ويكمل بعضها بعضا هى التى تحدث فى نفسك اللذة وتبعثها على الاعجاب : وانظر الى هذا البيت

الآخير ، والى شطره الثاني بوجه خاص ، تجده حضريا فانيا فى الحضارة ومترفا مغرقا فى الترف ، يعبر عن حضارته وترفه بلفظ يكاد يصل الى قلبك دون أن تسمعه

لى نشوتان وللندمان واحدة   شىء خصصت به من بينهم وحدي

ولست أدرى لماذا لم أسمع هذا البيت مرة الا وددت لو سمعته من فم مغن يجيد الغناء

الخمر عند أبي نواس (١)

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس ، فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال كتبناه عن وصف الخمر فى شعره . وما إخالك الا قد نسيت هذا المقال كما هو شأن القارىء لما يكتب فى صحيفة سيارة مهما يكن هذا الذي يكتب ، سياسة أو أدبا أو غير السياسة والادب . ما إخالك الا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن الا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبي نواس . فقد رأينا أن أبا نواس كان بعد الوليد بن يزيد أشد الشعراء عناية بالخمر وأكثرهم افتنانا فيها ، وان الناس جميعا شهدوا له فى ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس محقون فى هذا . ولكننا رأينا أن معانى أبى نواس فى الخمر على أنها كثيرة مختلفة يكاد ينالها الاحصاء ، ونستطيع أن نقسمها الى قسمين اثنين : القسم الأول هذه المعانى الكثيرة التى كانت تعجب القدماء وتفتن النقاد منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا أو لا تفتننا على أقل تقدير كتشبيه الخمر بالعذراء تخطب الى أبيها الدهقان ، وكالاسراف فى وصف قدم الخمر وما مر عليها من الأجيال والعصور ، وكالافتنان فى وصف طعم الخمر وريحها . القسم الثانى هذه المعاني التى أعجبت القدماء وفتنتهم ومازالت تعجبنا وتفتننا لانها لاءمت ذوق القدماء وحياتهم وما زالت تلائم ذوقنا

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٦ ذو القعده سنة ١٣٤١ هـ ١١ يونية سنة ١٩٢٣ م

وحياتنا ، ولانها حببت الى القدماء شرب الخمر وما زالت تحبب الى المحدثين شرب الخمر . وهذه المعاني قليلة فى شعر أبى نواس ، قليلة فى شعر غيره من الشعراء ، قليلة فى الخمريات قلتها فى غير الخمريات ، ذلك لأن المعانى التى تتفق على استحسانها العصور المتباعدة والاجيال المتباينة قليلة بطبعها فى كل فن من فنون الشعر والادب . ثم مثلنا فى ذلك المقال لهـذه المعانى وتلك ، وأشرنا الى أن شعر أبى نواس فى الخمر لم يكن هزلا كله ، ولم يكن الغرض منه المجون وحـده أو الاسراف فى وصف اللذات . وانما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسيلة الى شىء من الجد ، له خطره فى الأدب ، ووسيلة الى شىء آخر من الجد ، له خطره فى غير الأدب .

كان أبو نواس اذن حين يصف الخمر ، أو حين يتغزل ، يقصد الى ما يقصد اليه الشعراء المجيدون من وصف الحس والشعور وتمثيل العاطفة تمثيلا صحيحا ، ولـكنه كان يقصد مع هذا الشىء المشترك بينه وبين الشعراء الى شيئين آخرين أشرنا اليهما فيما مضى ونعود اليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجا جديداً لم ينهجه المتقدمون أو قل انهم نهجوه ولـكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه عقيدة أو مذهبا فى الأدب . كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشـبه المنهج الذى نريد نحن وأصحابنا أن ننهجه بالـكتابة . كان يريد أن يتخذ الشعر لسانا للحياة الحاضرة وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء والذين يسمعون للشعراء . كان يريد بعبارة مجملة أن يعدل عن أساليب القدماء فى وصف الاطلال والبكاء عليهـا وفى تغنى الابل والشاء ، إلى وصف الحيـاة التى يحياها الشعراء

والمستمعون لهم ، ايثارا للصدق وبعداً عن الـكذب . كان أبو نواس اذن في هـذا الشعر المخالف للاخلاق وأصول الفضيلة محبا للاخلاق وأصول الفضيله ، كان يؤثر الصدق وينكر الـكذب . ولـكن يجب أن تفهم هذا على وجهه ، فلم يكن أبو بواس مؤثراً للصدق لأنه صدق ، لم يكن واعظا ولا ناسكا ، لم يكن حكيما يبشر بالحـكمة أو فيلسوفا يدعو الي الفلسفة ، وانما كان شاعرا يصدق فى شعره ويحب أن يتحدث الى الناس بمايفهمونه ، فينزل منهم موضع الاعجاب والفتنة ، كان يحب الصدق حبا عمليا أو قل كان يحب الصدق حبا فنيا ، ولم يكن يدعو اليه لان الدعوة اليه ترضى الدين أو ترضى الفضيلة ، وانما كان يدعو اليه لأن الدعوة اليـه ترضى الذوق وترضى الجمال الفني

وهو لم يكن يدعو الى تجنب أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو الى تجنب أساليب القدماء في المعانى فحسب ، وانما كان يدعو الى تجنب سـنة القدماء في المعاني وفى الالفاظ جميعا . كان يريد ألاّ يستعير المحدثون معانى القدماء لأن لهم معانيهم ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون في استعارة ألفاظ القدماء لأن لهم ألفاظهم ، أي لان لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لان حياتهم تطورت فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة . حدثت معاني لم يكن يألفها القدماء فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء ، رقت حاشية الحياة الحديثـة وظهر فيها الترف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة ،

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين : الأول أن هـذا التطور فى اللغة واقع على كل حال سواء أراده الشعراء والكتاب أم لم يريدوه . وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ، فشعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وان كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قويا ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين . وقل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس . التطور اذن واقع لأنه قانون لا منصرف عنه لأي جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور راضون عنه ، ولكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وانما هى فى اعترافهم به واتخاذه مذهبا وطريقا . وهذا هو الشيء الثانى الذى نريد أن نلاحظه وهو أن الخلاف بين القدماء والمحدثين يكاد يكون فى الاعتراف بالحديث لا فى قبول الحديث ، فالحديث مقبول بطبعه لأنه الحياة ، ولكن الاعتراف به شاق لاننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة . ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحا فى تغيير الأسلوب الشعرى وتجديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعرى ولا مجدد اللفظ والمعنى . وانما كان الشعراء المعاصرون له سواء منهم أنصاره وخصومه يغيرون الأسلوب الشعرى ويجددون اللفظ والمعنى ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ويرى انه مشروع فيمضى فيه ويحرص عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ويتكلف الفرار منه . وقع هذا أيام أبي نواس ، ووقع هذا فى القرن السابع عشر الفرنسى ، ووقع هذا فى كل عصر من العصور التى تطورت فيها الامم وتطورت فيها اللغات أيضا . كان أبو نواس اذن يطالب

الشعراء بأن يكونوا صادقين غير منافقين مع أنفسهم . وانظر الى طريقه في الدفاع عن رأيه وأخذ الناس بهذا الرأى :

عاج الشقى على رسم يسائلهُ ... وعجت أسأل عن خمّارة البلدِ
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ ... لادر درك قل لى مَنْ بنو أسد
ومَن تميم ومن قيس ولفهما ... ليس الاعاريب عند الله من أحد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها ... وبين باك على نُؤىٍ ومنتضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة ... صفراء تفرق بين الروح والجسد
من كف مضطمر الزنار معتدل ... كأنه غصن بان غير ذى أوَدِ
أما رأيت وجوه الارض قد نضرت ... وألبستها الزرابى بثرة الاسد
حاك الربيع بها وشيا وجلاها ... بيانع الزهر من مثنى ومن وَحَد

فانظر اليه كيف آثر العنف فى خطاب خصمه فاسرف فى ذم القديم والنعى على من يتكلفه وأسرف فى مدح الجديد والحث عليه . وانظر الى تبرمه باسد ومن يبكى على أسد ، والى ذمه لتميم وقيس والعرب كافة . ثم انظر اليه كيف يحقر هذا القديم ويرفع من شأن الجديد ، ويأخـذ الناس بأن ينظروا الى ما حولهم من جمال الطبيعة فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته بطلول الجزيرة العربية وصحاريها . ومثل هـذا الشعر كثير فى خمريات أبى نواس ، كثير فى غير الخمريات أيضا . يكفى أن ترجع الى ديوانه لتقنع منه بما تريد

هذا أحد الشيئين اللذين كان يقصد اليهما أبو نواس حين يفتن فى

وصف الخمر واللذة . الشيء الثاني مذهب فى الحياة لا فى الأدب . ذكرناه كثيراً فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم فى السخط والاشفاق حتى ظن بنا انا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر الا فى شيء واحد هو التاريخ ، هذا الشيء الذى نريد اليوم أن نمر به مسرعين هو المجون . فقد كان أبو نواس مجددا فى كل شيء ، مجددا فى الشعر ومجددا فى الحياة . ويقيننا نحن أن أبا نواس لم يكن مجددا وحده وانما كان أهل عصره كلهم مجددين . والفرق بين أبى نواس وغيره من معاصريه أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم ولا يكذبوا على أنفسهم ، فاذا كانوا قدنبذوا القديم واجتنبوه فى واقع الامر فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه . فهو اذن فى قضية المجون يسلك نفس الطريق التى يسلكها فى قضية الأسلوب الأدبى . يرى أن هناك تطورا واقعا واننا خاضعون لهذا التطور واننا ننكر هذا التطور ولا ننكر خضوعنا له وانما نؤمن به ايمانا ونعترف به اعترافا . وحجته فى ذلك أن هـذا سبيل الصادقين . وانك قد تستطيع أن تخفي ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفى على الله شيئاً ، والله وحده هو الذى يجب أن تصدقه فى سرك وجهرك ، فاذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده فما يعنيك أن يقول الناس فيك. وانظر الى هذه الابيات :

. . . .

لاتسقنى ان كنت بى عالما   الا التى اضمرت فى صدرى

هات التى تعرف وجدى بها   واكْنِ بما شئت عن الخمر

يا حبـذا الجهر بامر الصبا ما كنت من ربك فى ستر

هو اذن مقتنع بوجوب العدول عن القديم والاعتراف بالجديد ، وهو شديد الاقتناع قد يتكلف فى سبيله ما يتكلفه المقتنعون من الاسراف والتعصب والخروج من الطور ، وانظر الى هذه الابيات التى لم يحفل فيها أبونواس بقاعدة دينية أو خلقية وإنما اتخذ الإباحة والصراحة مذهباً وسبيلا :

الا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمرُ ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهرُ

فعيش الفتى فى سَكرة بعد سَكرة فان طال هذا عنده قصر الدهر

وما الغبن الا أن ترانىَ صاحياً ولا الغنم الا أن يتعتعني السكر

فبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر

ولا خـير فى فتـك بغـير مجانة ولا فى مجون ليس يتبعـه كفر

ولا تحسبن أبا نواس شاذاً فى هذا أو منتحلا اياه انتحالا . وإنما هو أثر البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا فيقول :

وقائل هـل تريد الحـج قلت له نعم اذا فنيت لذات بغـداذ

أما وقطربل منها بحيث أرى فقنة الفرك من أكناف كلواذ

فالصالحية فالكرخ التى جمعت شـذاذ بغـداد ما هم لى بشـذاذ

فـكيف بالحج لى مادمت منغمساً . . . .

وهبك من قصف بغداد تخلصنى كيف التخلص لى من طيزنا باذ

ويقول بعد أن حج :

قالوا تنسكَ بعـد الحج قلت لهم أرى وأرجوا وأخشى طيز ناباذا

أخشى قضيّب كرم أن ينازعني رأس القطار وان أسرعت اغذاذا

ما أبعد النسك من قلب تقسمه ... قطربل فقرى بنى فكلواذا
فان سامت وما قابي على ثقة ... من السلامة لم أسلم ببغداذا
ما شئت من بلد دان منازهه ... .
وقحا توصوا بترك البر بينهم ... تقول ذا شرهم بل ذاك بل هذا
ليسوا كقوم اذا حاذيت مجلسهم ... أنفذت بالترك والاركان إنفاذا
هناك لاتتخطى الأذن لائمة ... ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

فقد رأيت مما روينا أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه فى القديم ولا فى المجون ابتداعا ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش فى عصر وبيئة كانا يضطرانه الى أن يرى هذا الرأى وينهج هذا المنهج ، وكل الفرق كما قلنا بينه وبين خصومه وأنصاره أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التى يحياها على التستر والتكتم ، ولسنا نقول إنه مصيب ولسنا نقول إنه مخطىء ، فقد يختلف الناس فى ان الصراحة خير أو شر اذا كان موضوعها الاثم والمجون . وليس يعنينا أن تكون صراحة أبي نواس شراً أو خيراً ، وليس يعنينا الآن اثم أبي نواس أو مجونه أو بغضه القديم وحبه للحديث ، ليس يعنينا شيء من هذا فى نفسه فنحن لانتخذ أبا نواس قدوة ولا إماما ، ولا نعتقد أن أبا نواس يصلح قدوة أو اماما فى ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب مذهب المؤرخ ، ويخيل الينا أن هذا البحث على ايجازه ينتج لنا أن شعر أبي نواس فى الخمر على ما فيه من جمال فنى يعجب الأدباء والنقاد كان يرمى الى غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد فى الأدب ، والاعتراف بالجديد فى الحياة ، بل نستطيع أن نوجز فنقول كان شعر أبى نواس كله رفضاً للقديم

فى كل شىء وكلفاً بالجديد فى كل شىء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبى نواس فى الخمر لاينبغى أن ننصرف عن هذا الباب من شعره دون أن نشير الى ماله من المقطوعات والقصائد التى تنظر اليها فى نفسها النظر الفنى الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب بها وترضى عنها ، فتقرأها وتقرأها وتميل الى حفظها وتميل الى أن تسمعها فى الغناء

كثير جداً هذا النوع من شعر أبى نواس فى الخمر ، وكأنه كان يريد حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين تمجيداً للخمر وتأييداً لمذهبيه فى الأدب والمجون ، فأنت تذكر همزيته المشهورة : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء » وتذكر انى قد حللتها فى غير هذا المكان وتذكر قصيدته الاخرى :

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا   وأعربت عما فى الضمير وأعربا

وانظر الى هذه القصيدة وقد كان فيها جدال بينه و بين مسلم بن الوليد :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا   وأمله ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة   غرداً يصفق بالجناح جناحا
بادر صباحك بالصبوح ولا تكن   كمسوفين غدوا عليك شحاحا
وخدين لذات معلل صاحب   يقتات منه فكاهة ومزاحا
نبهته والليل ملتبس به   وأزحت عنه نقابه فانزاحا
قال ابغني المصباح قلت له اتئد   حسبى وحسبك ضوؤها مصباحا
فسكبت منها فى الزجاجة شربة   كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوة جاءتك قبل مزاجها   عطلا فالبسها المزاج وشاحا

شك البزال فؤادها فكأنما ... أهدت اليك بريحها تفاحا
صهباء تفترس النفوس فما ترى ... منها بهن سوى السبات جراحا
عمرت يكاتمك الزمان حديثها ... حتى اذا بلغ السآمة باحا

وانظر الى هذه المقطوعة التى تكلف أبو نواس فيها البديع فاحسن التكلف :

عاذلى فى المدام غير نصيح ... لاتلمني على شقيقة روحى
لاتلمنى على التى فتنتني ... وأرتنى القبيح غير قبيح
قهوة تترك الصحيح سقيما ... وتعير السقيم ثوب الصحيح
ان بذلى لها لبذل جواد ... واقتنائى لها اقتناء شحيح

وانظر الى هذه الابيات التى لايشك قارئها انها قيلت أمس أو اليوم لأنها تصف شيئا مما نحن فيه ، واحسب انها ستظل جديدة على الدهر :

تفتير عينيك دليل على ... أنك تشكو سهر البارحة
عليك وجه سيء حاله ... من ليلة بت بها صالحة
ونفحة الخمر وأنفاسها ... والخمر لا تخفى لها رائحة
وغادة هاروت فى طرفها ... والشمس فى مفرقها جانحة
تستقدح العود باطرافها ... ونغمة فى كبدى قادحة

وانظر الى هذه الابيات أيضا وحدثنى اليست وضعت لتغني

إله بالبيض الملاح ... وبقينات وراح
لا يصدنك لاح ... هو عن سكرك صاح
ليس للهم دواء ... كاغتباق واصطباح

فلعمري ما يداوى الهـــم بالمـاء القـراح

ولو أني أردت أن أروى لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت. ولـكني أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جد وقد أعجب بها العلماء والنقاد فى القرن الثالث لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده وأحسنه احسانًا عظيما ، وأعجب بها أنا لأن أبا نواس أراد أن يبكى الأطلال والديار فبكاها ولـكنه لم يبك أطلال البـادية وانما بكى أطلال الحاضرة . لم يبك أطلال حى ارتحل وانما بكى أطلال الشرب وأصحاب اللهو بعد أن فرغوا من لهوهم وانصرفوا عن ملهاهم فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار . فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النؤى ولا الوتد وانما يذكر ما ستسمع :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا . بها أثر منهم جـديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحـان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم واني على أمثـال تلك لحابس
ولم أر منهم غير ما شهدت به بشرقى ساباط الديار البسابس
أقمنا بهـا يومـًا ويومين بعـده ويومًا له يوم الترحـل خامس
تدور علينا الـكأس فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مهًى تدّريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

أرأيت الى هذه الآثار تركها جر الدنان ؟ أرأيت الى هـذا الريحان جنيه ويابسه ؟ هذه هى أطلال أبي نواس . ثم أتحس فى هـذه القصيدة شيئًا من الميل الى الفرس والاعجاب بهم والحنين الى عهدهم القديم ؟ ثم أترى

وصف الكأس ومافيها من صورة وتقسيم هذه الصورة بين الخمر ومزاجها ؟
ثم انظر الى هذا البيت الذى يبتدىء به أبو نواس إحدى قصائده وانظر الى ما فيه من هذه السخرية العصرية بأصحاب الاطلال والباكين عليها : بامرىء القيس وأصحابه :

قل لمن يبكى على رسم دَرَس   واقفاً ما ضر لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به   مثل سلمى ولبيني وخنس
اترك الربع وسلمى جانبا   واصطبح كرخية مثل القبس

هذه طائفة من شعر أبى نواس فى الخمر لم نتكلف اختيارها ، ولا نشك فى أن لأبى نواس خيراً منها ولكننا أطلنا فى هذا الباب فلننتقل منه الى الغزل فى الاسبوع الآتى .

الغزل في شعر ابي نواس[1]

رأينا مذهب أبي نواس فى وصف الخمر وتمجيدها ، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثا وانما اتخذ وصفها وسيلة الى اعلان رأيه فى تجديد الادب واعلان مذهبه فى المجون واعلان ما يكنّ للخمر من حب وما يختصها به من كلف ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل ، ولكنى أتعجل فألفتك الى أن هذا غير ميسور : لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبله ، وانما سلك سُبُلا أخرى ليس يباح لنا فى صحيفة سيارة أن نسلكها معه أو نتبعه فيها

لأبى نواس غزلان : غزله بالنساء وغزله بالغلمان وهو مجيد فى الثانى ، محسن الاحسان الفني كله ، صادق أيضا أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب الا فى كتاب مخصص لأبي نواس يقرؤه الخاصة ولا تصل اليه يد العامة الا مصادفة وبعد مشقة . أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الردىء . ولعلك اذا أردت أن تميز هذا الغزل أو تصفه بوصفه الصحيح لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم : وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقا حين كان يتغزل بالنساء ، وانما كان مازحا أو بعبارة أصح كان مخادعا وكان كذابا ، كان

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٤١ هـ اول اغسطس سنة ٢٩٢٣ م

مغرورا وكان مفتونا ، وكان مع هـذا كله شاعراً يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ومنها التغزل بالنساء فتغزل بهن حتى لا يفوته هذا الفن .

وفى الحق انه لم يقصر فى هذا الفن . فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ، وقد وصف مابين النساء والرجال من صلة فأجاد الوصف وأتقن التصوير . ولكنه لم يصف النساء جميعا وانما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هـذه الطائفة أقرب النساء الى الطهر والعفاف ، ولا الى البر والصون ، وانما كانت طائفة مبتذلة ممتهنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكد يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للاحرار منهن ، وانما عرض للاماء فأحسن وصفهن وترك لنا منهن صورة ان لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق فهى قريبة جداً من الحقيقة الواقعة . عرض للاماء ولطائفة بعينها من الاماء ، لهذه الطائفة التى كانت تتألف من إماء مهذبات قد أُحسن تأديبهن فروين الشعر وقرضنه وأحسنّ الموسيقى ونبغن فيها وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لابأس به ، فكنّ يثبتن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكنّ يمتزن بذلك ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهن وبين التحدث الى الرجال والتبذل فى هذا الحديث . كان الاماء اذن مظهر المرأة فى بغداد ولكنه كان مظهراً سيئاً جداً من جهة وحسناً جداً من جهة أخرى كان مظهراً سيئاً لانهن كن مبتذلات خليعات يتهالكن على الخلاعة ويسرفن فى المجون ، ويتخذن من تهالكهن على الخلاعة واسرافهن فى المجون سلاحاً قويا يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم ، ويحاربن به الحرائر المحصنات

حرباً غير متكافئة . وكن مظهرا حسنا لانهن كن أديبات عالمات يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها . ومن هنا وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس وبما نرى في الاغاني وغير الاغاني مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة وانحطاطهن الخلقي من جهة أخرى . يجب القصد والاحتياط لان الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة . بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة . وانما تمثل هذا الرقيق الذي كان يجلب الى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين فيتخذ فيها تجارة ولهواً كما يتخذ تجارة ولهوا فاخر الاثاث وحسن الرياش . هولاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة وانما يمثلن الرجل الحر : فقد كن له لذة ولهوا ، وكن لأخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة تمثلها أحسن تمثيل . فلولا أن هؤلاء الاماء اللاتي ذكرهن أبو نواس كن يحببن اللهو ويتهالكن على المجون ويقبلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال مالا يقبله الحرائر لما استطاع أبو نواس وغير أبي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به .

كان في جاهلية العرب وصدر الاسلام وأيام بني أمية شعراء يحبون الفتك ويتحدثون به . فلامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة في ذلك شعر كثير . ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول حتى في الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلا جداً بالقياس الى شعرهم العفيف . وكان الشعراء الصادقون في الحب المؤثرون للعفة والطهارة في كل مايقولون

كثيرين جداً بالقياس الى هؤلاء الشعراء الفاتكين . ذلك لأن سلطان الاماء كان ضعيفا جداً أو لم يكن موجوداً فى هذه العصور ، ولأن الرجال الاحرار كانوا يؤثرون كرامتهم على لذاتهم فكانوا يؤثرون نساءهم على إمائهم . أما فى أيام بني العباس فقد تغيرت الحال تغيراً شديداً : كثر الاماء كثرة فاحشة وتفوقن تفوقا فاحشا فى الادب والشعر والغناء وفى ضروب الزينة واستهواء الرجال ، وتغيرت أخلاق الرجال فتهالكوا على اللذة واستبقوا الى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المحصنات وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة من الاشراف على حياة الأسرة فى عفة وكرامة ولكن من وراء حجاب ، ثم أسرفوا فى اتخاذ الرقيق وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات ما تأبي الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات فكان هذا الفساد العظيم الذى يمثله غزل أبي نواس بالنساء والغلمان ، أتظن أن أبانواس كان يستطيع أن يقول فى حرة محصنة مثل هذه القصيدة

ونابه فى الهوى لنا ناسى	قطع بالهجران أنفاسى
لست لها واصفا مخافة أن	يعرف مابى جماعة الناس
أكثر وصفى لها شكاية ما	فيها قضى الله لى على راسى
يطمعني لحظها ويؤيسني	باللفظ منها فؤادها القاسى
فصرت باللحظ من معذبتى	واللفظ بين الرجاء والياس
أسعد يوم لها حظيت به	مقالها لى ولست بالناسى
لذلك اليوم ما حييت وما	ترجم قولى سواد أنفاسى
تقول لى والمدام مرسلة	تفيض حولى نفوس جلاسى

هل لك أن تطرد النعاس فقد　　طاب انضواع المدام والآس
قلت لها فابتدى وهاتي فما　　حسوت منها فانني حاسى
وغايتى أن أنال فضلتها　　فى الكأس من شربها أو الطاس
ثم أظن الحذار نبهها　　وما بها قد أردت من باس
قالت فدع عنك الاحتيال لما　　أردت سكرى له وإنعاسى
أعرضت عنها وقد فهمت لكى　　تحسب انى لقولها ناس
ثم دعتها المدام من كثب　　والليل ذو سدفة وادماس
فاحتلبت زقاً فمج بها　　فى الكأس راحا كضوء مقباس
ثم تحست حتى اذا شربت　　نصفا كما قيس لى بمقياس
نازعتها الكأس فيه فضلتها　　ففزت بالكأس بعد إمراس
فكادت النفس للسرور بها　　تخرج بين المدام والكاس

أترى الى امرأة حرة محصنة تستحث أبا نواس على المنادمة ومنازعة الكأس ؟ أترى اليها تذهب هذه المذاهب الملتوية فى اجتذابه اليها وترغيبه فيها ، تطمعه حينا وتؤيسه حينا آخر ؟ بل أترى الى امرأة حرة محصنة تبتذل نفسها فتنزل الى المنادمة والمداعبة ؟ كلا ! وانما هى أمة من الاماء وامرأة من هؤلاء النساء اللاتى بذلن أنفسهن فابتذلهن الرجال . ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقا ولا متحدثا عن عاطفة قوية متقدة فى أكثر الأحيان حينما كان يذكر هؤلاء النساء أو يتغزل بهن ، وانما كان يترضاهن ترضيا ويتملقهن تملقا ويتخذهن وسيلة الى إرضاء مجونه من جهة وفنه من جهة أخرى . أضف الى هذا أن أبا نواس كان معتدلا جداً فى الميل الى النساء وكان

مسرفا جداً فى ميل آخر ... فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء . ولا تكاد تقرأ قصيدة أومقطوعة من شعر أبي نواس فى هذا الفن من الغزل إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً والكذب واضحا ، لا أريد التكلف اللفظى وانما أريد تكلف المعنى وانتحال الحب . وربما كان من الحق أن نستثني من هذا الشعر شعره فى « جنان » . فقد يظهر أنه كلف بها حقا وهام بها بعض الهيام وتجشم فى سبيلها ما لا يتجشمه الماجن الداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصدا ولا عفيفا فى كل ما قال فى «جنان» وانما أسرف وورط نفسه فى شيء من الاثم، فانظر الى هذه الابيات :

وعاشقين التفّ خداهما عند التثام الحجر الأسود
فالتقيا من غير أن يأتما كأنما كانا على موعد
لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند
قلنا كلانا ساتر وجهه مما يلي جانبه باليد
نفعل فى المسجد ما لم يكن يفعله الابرار فى المسجد

وليس من شك فى أنهما كانا على موعد . فانظر الى هذه الابيات :

ألم تر أنني أفنيت عمري بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا اليها يقربني وأعيتني الأمورُ
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير

وأنا أحسب أن حب أبى نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف وانما كان نوعا من الامل يتحرق الرجل لتحقيقه ويعسر عليه هذا التحقيق ، فاما إيثارها بالخير وتقديم لذتها على لذته وأمنها على أمنه فعاطفة

أحسب أنها لم تجد الى نفسه سبيلا . وهذه الابيات أصدق دليل على ذلك

ياقمرا أبصرت في مأتم ينـدب شجوا بين أتراب

يبكى فيذري الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

أبرزه المـأتم لى كارها برغم بواب وحجاب

لا زال موتا دأب أحبابه وكان أن أبصره دابى

أتظن أنه يحبها حقا حين يتمني أن يموت أحبابها فى كل يوم لتظهر مُعْولة . نادبة ، وليستطيع هو أن يراها ؟ ألست ترى فى هذا أن الرجل كان أَثِراً مسرفا فى حب نفسه ولذته يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة مهما تكلفت هذه المرأة فى هذا من شر واحتملت من خطوب ؟ لم يكن أبو نواس اذن صادقا فى حب النساء ، وليس شعره صادقا فى تمثيل النساء كما هو صادق فى تمثيل الرجال . ولكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الادبية والعادية فى بغداد أيام بني العباس . ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر . واذن فمن الحق أن نتناول هذا الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق وأن نعرض فى شيء من التفصيل لمن عُرف من هؤلاء الإماء اللاتى تعشقهن أبو نواس ، ونرجو أن نفى بذلك في مقال آخر

الغزل عند ابى نواس [1]

بعيد جدا ما بين هذا الغزل النواسى العباسى الذى أشرت فى الفصل الماضى الى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الاموي العربي الذى أشرت فى فصل مضى أول هذا العام الى صدقه وقوته

نعم إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النواسى وبين ذلك الغزل الذى كان ينشره جميل أو كثير أو عمر بن ابى ربيعة . الفرق عظيم جدا ، وليس عظم هذا الفرق شيئا غريبا فى نفسه ، فيكفى أن تنظر الى العصر الأموى والعصر العباسى من جهة ، وتنظر الى نفسية الشعراء الامويين ونفسية أبى نواس من جهة أخرى لتقتنع بأن هـذا الفرق لا ينبغى أن يكون غريبا بل ينبغى أن يكون واجبا محتوما . يجب ان تنظر الى العصرين لترى فى أولهما على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة سذاجة ظاهرة مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ولم ينته الى نتائجه المعقولة ، وفى ثانيهما لتري أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلا قليلا من عربيتها وتتأثر بهذه الاجناس المختلفة من الناس التى كانت تفد على العراق وعلى بغداد بنوع خاص فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها وكل مافيها من خير وشر بعيد ما بينه وبين مافى نفس الأجناس العربية من صلة . يكفى أن تنظر الى هذا كله لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسى عامة وبين

---

(١) نشرت بالسياسه فى ٨ صفر سنة ١٣٤٢ هـ ـ ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ م

الغزل الاموي عامة ، فاذا فهمت هذا وعرفت له أثره فى نفس أبى نواس وجب عليك أن تنظر الى أبى نواس نفسه ، والى ماقدمت من حياته وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك الى أئمة الغزل من شعراء العصر الاموى والى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيمانًا ، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحا .

كان جميل وأمثال جميل قوما غزلين بطبيعتهم ، غزلين لأنهم يحبون النساء أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها فيملك عليهم هـذا الحب نفوسهم وحياتهم حتى لايعيشون الا به وله ، وحتى لايصدرون إلا عنه ولا يردون الا عليه ، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية ، فكانوا اذا ذكروا النساء أو تغنوا بحبهن وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا فى الوصف وكانوا فيه أقوياء . ثم كان كثير وأمثال كثير يحبون النساء ويحبون ذكر النساء ، يتخذونه فنًا ويحاولون الإجادة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم لأنهم كانوا يتأثرونهم ويسلكون سبيلهم ويريدون أن يخدعوا الناس عن أنفسهم وأن يمثلوا أنفسهم فى صورة العاشقين حقًا ، كان الاولون صادقين . وكان الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يحرموا الصدق حرمانًا تامًا . أما عمر بن أبي ربيعة ومن سار سيرته من شعراء بني أمية فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية ، ولم يكونوا يتكلفون هـذه العاطفة العذرية ، لم يكونوا ينظرون الى المرأة من حيث هى المثال الأعلى

للجمال والحب » . وإنما كانوا ينظرون اليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة » والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبي ربيعة رجلا يحب الحياة ويحب المرأة لأنها زينة الحياة أو لأنها اللذة في الحياة » وكان صادقا في حب المرأة » من حيث هي لذة الحياة . فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية كما يقول المحدثون مؤثراً لأنه كان صادقا ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة تؤثر في نفس الشاعر وتؤثر في حياته العملية ايضا . كذلك كان شعراء بني أمية . سواء منهم العذريون حقا ومن تكلفوا العذرية ومن أعرضوا عنها ولم يلتفتوا الا الى اللذات وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله . لم يكن عذريا ، وما كان يستطيع أن يكون عذريا ، وهو الرجل الذي شك في كل شيء » أو قل أنكر كل شيء ولم يؤمن الا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد في ذلك بحرج أو جناح ، لم يكن عذريا ولم يكن يتكلف أن يكون عذريا ، وانما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وانما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر بن أبي ربيعة » لم يكن أبو نواس يحب النساء . وكان ينفر منهن نفوراً شديداً حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج رغم إلحاحهم عليه وتوسلهم اليه : لم يفلحوا لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة . لم يكن اذن يحب النساء فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن أو يحسن الغزل فيهن » ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ولأن

من الحق على كل شاعر أن يتغزل . فالغزل فن من فنون الشعر يجب على الشعراء المجيدين أن يطرقوه ويأخذوا منه بنصيب . وقد طرقه أبو نواس وأخذ منه بنصيب. ولكنا نظلم أبا نواس إن قلنا إنه لم يكن قط صادقا فى غزله . نظامه لأنه كان صادقا فى غزله ، بل كان شديد الصدق فيه ، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر ابن أبى ربيعة فى صدق العاطفة وإجادة الوصف وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : الفرق بين العصر العباسى والعصر الأموى ، والثانى أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء وإنما كان يجيد الغزل بالغلمان ... فلابي نواس فى هذا الباب ما لابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس فى هذا الباب أشعر من ابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، واست أستدل على هذا الا بشىء واحد وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل رغم مافيه من منافرة للطبع والخلق والدين ، أما ابن أبى ربيعة فهو لايكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شيء يحملك على أن تعجب بغزله ، فطبيعتك تحبب اليك ذكر النساء والتغزل بهن . واذا أسرف ابن أبى ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين فايس فى هذا الإسراف خروج عن الطبيعة أو تجاوز لها . وإنما هو جزء من الطبيعة أو قل إنه الطبيعة بنفسها جاء الدين والأخلاق لتقييدها وإصلاحها .

أبو نواس اذن مجيد حين يتغزل بالغلمان . ولكنه فاتر أو كاذب أو متكلف حين يتغزل بالنساء . وهو على كل حال لايصف حين يذكرهن عاطفة قوية فى نفسه أو حبا صحيحا ، وإنما يصف ضروبا من اللهو وفنونا

من المجون ، وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف لا لأنه يشعر به بل لأنه شاعر مجيد يتكلف الشيء فيحسنه احيانًا .

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيء فسرته فى الفصل الماضى وهو أنه لم يتغزل بحرة وإنما وقف غزله كله على الإماء ، وذلك واضح فقد عرفنا أنه يكره الزواج وعرفنا أنه كان ماجنا مسرفا فى المجون فلم يكن من السهل عليه ولا من الميسور له أن يخالط الحرائر أو يتحدث اليهن حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإماء ويسرف فى مداعبتهن ، ولا سيما بعد ماقدمت لك فى الفصل الماضى من رقى الأمة فى هذا العصر وتفوّقها على الحرة وتهالكها على اللهو والمجون . فاذا عرفنا هذا كله وأنزلنا غزل أبي نواس بالنساء منزلته الصحيحة كان من اليسير أن نتبين شيئًا مما فى هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى ، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياسًا لنبوغ أبى نواس فى الشعر أو لصدقه فى الحب ، فاذا أردنا أن نبحث عن مقياس لذلك فليس أمامنا إلا وصفه للخمر وغزله بالغلمان ، وإنما نبحث عن غزله بالنساء لنعرف شيئًا من أخلاق العصر ومن أخلاق الإماء فيه ، ولنعرف أيضًا شيئًا من ظرف النساء فى بغداد ، وإن شئت فقل : من ظرف الغزل بالنساء فى بغداد . ولهذه الأشياء قيمتها فى الأدب وفى التاريخ .

وانظر الى هذا العبث الذى يمثل الحياة البغدادية ، حياة المجون والدعابة تمثيلا صحيحًا :

أرسل من أهوى رسولا له إلىَّ والمنسوب محبوب
فقلت: أهلا بك من مرسل ومن حبيب زانه طيب

جشمته فى كلمة فانثنى وقال هـذا منك تجريب
مثلك لايعشق مثلى وقـد هام به بيضاء رعبوب
وجاءت الرسل بأن ائتنا فجئتها والقلب مرعوب
قالت : تعشقت رسولى لقد بدت لنا منك الأعاجيب
ذاك وهـذا لك يا غادرا فى دفـتر الحاصل مكتوب
من يأمن الذئب على معزة أهـل لأن يخفره الذيب
فقلت فى رفق وفى تؤدة مقالة قد قال يعقوب
الذئب لايؤمن لكنه عليه فى يوسف مكذوب
هم طرحوا يوسف فى جبـه عمـداً وقالوا خانه الذيب

أترى اليه كيف كان يحب صاحبته حبا قويا صادقا حتى خانها فى رسولها فداعب هذا الرسول ، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك ، ولـكنه حين يلقى حبيبته ويريد أن يدافع عن نفسه يضع نفسه موضع الذئب فى قصة يوسف ؛ ولـكن أعجب من هذا أن تـكتفى صاحبته منه بهذا الدفاع ، بل أن تلومه فى هذا الرفق واللين . ولـكننا فى بغداد وبين قوم يلهون لا أكثر ولا أقل .

وانظر الى هذه الأبيات الأخرى التى يسخر فيها من نفسه فيحسن السخرية :

وقصرية أبصرتها فهويتها هوى عروة العذرى والعاشق النهدى
فلما تمادى هجرها قلت : واصلى . فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى
فقلت لها لو كان فى السوق أوجه تباع بنقد حاضر وسوى نقد

لغيرت وجهي واشتريت مكانه لعلك أن تهوى وصالى من بعد
وان كنت ذا قبح فإنى شاعر فقالت: ولو أصبحت نابغة جعدى

ثم انظر الى هذا الظرف

سألتها قبلة ففزت بها بعد امتناع وشدة التعب
فقلت بالله يامعذبتى جودى بأخرى أقضى بها أربى
فابتسمت ثم أرسلت مثلا يعرفه العجم ليس بالكذب
لاتعطين الصبيَّ واحدة يطلب أخرى بأعنف الطلب

وانظر الى هذه القصيدة التى لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية، لأنها تمثل رقة بغداد وتمثل هذه النزعة الدينية التى تجدها فى العامة والتى تحملهم على أن يقسموا بالقرآن وسور القرآن وبالحج ومناسك الحج حين ينبغى أن يقسموا بشىء آخر:

مالى وللعاذلات زوقن لى ترهات
سعين من كل فج يامن فى مولاتى
يأمرنني أن أخلىّ من راحتىّ حياتي
وذاك مالا ولالا يكون حتى الممات
والله منزل طه والطور والذاريات
الر وصاد وقاف والحشر والمرسلات(١)
ورب هود ونون والنور والنازعات
لارمت هجرك حي حتى وإن لم تواتى

---

(١) يريد ألف لام راء وهو مفتتح سور من القرآن

تجمعوا علمونى يا إخوتى كيف آتي
يا ويلتنا أى شىء بين الحشا واللهاة
من لوعة ليس تطفى تطير فى جانحاتى
أنا المعنى ومن لى يرثى لطول شكاتى
الظاهر العبرات الباطن الزفرات
منيت بالمتحرّى فى كل أمر مساتى[1]
يا سائلى عن بلائى أنظر الى لحظاتى
يخفى الهوى فى سكون الـــمحب والحركات
والله لو كنت أعمى عرفت فى سحناتى
حلفت بالراقصات فى لجة الفلوات
ومنثن بالهدايا يطعنّ فى اللبات
وما توافى بجمع والشعب فى عرفات
لو جاء منك رسول يقول : نفسك هات
لقلت : هاك خذنها مسلما لوفاتى
ويلاه نار التصابى رقت الى اللهوات
فأبكت العين مني بمثل ماء الفرات
وصاحب كان لى فى هواى ذاتهات
لم يطلع طلع شأني الا اتهام هناتي
فبينما نحن نمسى نسيح فى الطرقات

---

(١) يريد مساءتى

اذ قيل شمس ضحاها في أربع عطرات
فقلت شمس وربي قد جلت الظلمات
وقد نسيت الذى بى منها من الكربات
لريح حب جرت لى فانشأت عبراتى
وانزفت ماء عينى وأصعدت زفراتي
وقد تغيّر لونى كمثل نقس الدواة
فالحب فيه هناة موصولة بهناة
يعقبن طوراً سروراً وتارة حسرات

ألست ترى أنه قد أحسن التحدث الى النساء بلغة النساء ولهجة النساء
واقد أراد أن يسلك سبيل امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة فيما كانا
يقصّان من زيارتهما اعشيقاتهما فقال فى ذلك شعرا لا بأس به . ولكن
لا أروى لك منه الا هذين البيتين لأن فى أولهما إيجازا ظريفا ، وفى الآخر
تمثيلا لأمر بغداد :

فكدنا ولمّا ، غير أن شفاهنا تعاطت خليطى سكّر وعقار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها وقد بادلتني خاتما بسوار

وانظر اليه كيف يمازح صاحبته ويتمني عليها الوصل وينكر عليها
الهجر ويعدها بألاّ يكون ثقيلا ولا مطيلا إن وصلته ؛ كل ذلك فى بيت
واحد ظريف وهو :

فراجعى الوصل فإن زرتكم قدر فواق فاحلقى راسى

وانظر إلى هذه الابيات التى لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء اذا

أسقطت منها بيتا واحدا لأن لفظ الانقاس فيه غريب قد نستثقله :

إني عشقت وما بالعشق من باس ما مر مثل الهوى شيء على راسى

مالى وللناس كم يلحونني سفها ديني لنفسي ودين الناس للناس

ما للعداة اذا ما زرت مالكتي كأن أوجههم تطلى بأنقاس

الله يعلم ما تركي زيارتكم الا مخافة أعدائي وحراسي

ولو قدرنا على الإتيان جئتكم سعيا على الوجه أو مشيا على الراس

وقد قرأت كتابا في صحائفكم لا يرحم الله الا راحم الناس

ولأبي نواس من هذا شيء كثير لا أستطيع أن أرويه وتستطيع أنت أن تقرأه في ديوانه ، فتجد فيه ماشاء الله أن تجد من ألوان الكذب والغرور والدعابة والمجون والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص مايلذ ومايضحك. ولكني قات لك إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب . وأريد أن أختم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله وبأنه انما يتكلف الغزل بالنساء ليرضي حاجته الفنية أو ليخدع النساء عن أنفسهن . على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس

يا من يوجه الفاظي لا أقبحها لانه ساحر العينين معشوق

لو كان من قال نار أحرقت فمه لما تفوه باسم النار مخلوق

وسأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرد

جد أبي نواس (١)

المدح

وما رأيك في أن نترك القديم والجديد، وكأنما لن يفيد، ونعود الى أبي نواس فنستأنف البحث عن شعره بعد أن انصرفنا عنه حينا طويلا. على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبي نواس لن نترك القديم والجديد وإنما نوغل فيهما إيغالا، فلقد كتبنا عن أبي نواس في السنة الماضية فصولا طوالا أثبتت — فيما نعتقد — أنه صاحب الجديد وحامل لوائه، وأنه خصم القديم وأشد اعدائه، حتى خيل الى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل وبين الأدب العربي القديم، وأنه كان يريد أن يهدم كل شيء ويبني على أنقاضه شيئا آخر، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة لأنها صادفت في نفسه هوى وفي قلبه ميلا، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة لأنه من أنصار القديم المشغوفين به الملحين في البكاء عليه. ولكن أبا نواس خليق بان يحبه أولئك وهؤلاء معا، لأنه على حبه للجديد وإلحاحه في الدعوة اليه كان محبا للقديم ملحا في الحرص عليه كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون الى فريقين مختلفين، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب، وما لنا نتحدث بشيء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ومرة إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم فطرة في الناس تلزمهم في كل زمان ومكان إن كان لهم حظ من حياة؟

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢ هـ — ٢٨ فبراير سنة م ١٩٢٤

وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس ، فكان منهم محب الجديد وكان منهم محب القديم . وكانوا جميعاً أقوياء في حبهم . وكان من المعقول أن يتحدث اليهم جميعاً شاعر كأبي نواس بما يحبون وما يفهمون . بل مالنا نذكر شيئاً كهذا ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع مهما يسرفا في حب الجديد والتهالك عليه فهما لم ينشآ من لا شيء وهما ان يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم الذي غذاهما وأنشأهما . فهما بطبيعة الحال يمثلان الجديد الذي يصبوان اليه ويمثلان القديم الذي نشآ منه . ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظاً له . قالوا إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال ؟ ولسنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم . وليس من اليسير ولا من الممكن أن يخلص أبو نواس من هذا كله فيكون جديداً صرفاً في كل ما يقول .

فاذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والجديد . ولن نستطيع ان نتحدث عن شاعر مجيد حقا أو عن كاتب بارع حقا إلا اذا تحدثنا عن القديم والجديد ، لأن إجادة الشعر والبراعة في الكتابة يستلزمان شيئين لا بد منهما ، الاول الاحتفاظ بالخير من القديم ، والثاني استغلال الجديد واجتناء ثمراته الطيبة . ففي الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان أحدهما قديم والآخر جديد ، أو فيهما شخصية واحدة هي المزاج المعتدل لاتصال القديم بالجديد ونشوء أحدهما عن الآخر .

على أن الحياة في عصر أبي نواس كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه الى أن يظهروا مظهرين يكادان يختلفان اختلافا تاما : أحدهما مظهر المجدد المسرف فى التجديد ، والآخر مظهر الحريص على القديم المسرف فى الاستمساك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة يعكفون فيها على لذاتهم ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة فيتصلون فيها بعامة الناس وأوساطهم وأصحاب الحرف والصناعات منهم ويتصلون فيها أيضا بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبيحونها للناس ويمهدون لهم أسبابها ووسائلها من الخمارين والمغنين والحسان من الذكور والإناث ، فيتحدثون الى هؤلاء الناس جميعا لغة يفهمونها ويذوقونها ، وتعبر حقا عما يجدون ويشعرون. وأما عيشتهم الثانية فهى تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشراف الناس فى حياتهم الظاهرة الرسمية إن صح هذا التعبير ، وهم فى هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة ترضاهما الأخلاق وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية ، وهم مضطرون الى أن يتحدثوا الى أمراء الناس وأشرافهم لغة شريفة مختارة ترتفع عن الابتذال وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف وعظم حظها من التصنع . كانوا مضطرين اذن الى أن يصدقوا فى حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق فى حياتهم الثانية.

وهذا دأب الأجيال المختلفة ، فلك فى بيتك وبين أصدقائك وخلانك عيشة ولغة تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء

خاصة ، فليس عجيبا إذن أن تقرأ لأبى نواس فى الخمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب الذي هو مرآة النفس حقا والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هـذا الشعر الذى رقّ لفظه ودقّ معناه ، وبرئ من التكلف وانحط فى بعض الأحيان حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة ، وليس عجيبا أن تقرأ لأبى نواس شعرا آخر قد قوى متنه واشتد أسره وتخيّرت فيه الالفاظ تخيراً دقيقاً وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ما كان ليتقيد بها فى شعره الآخر .

وفى الحق أنك تري أبا نواس حين يذكر الخمر والغزل والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر لا يكتفى باطلاق العنان لشعوره وعاطفته وإيثار اللفظ السهل العذب للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف الى ذلك شيئاً آخر ، فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها وأيسرها على الأذن وأقربها من النثر وألينها قيادا للمعنى . فاذا تحدث الى الأمراء والأشراف عمد الى اللفظ الضخم الفخم ، والى الاسلوب المتين الرصين ، والى الأوزان الطوال التى لا تخلو من فخامة وجلال فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث به الى هؤلاء الناس ، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم الى ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذى يقصد به الى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها وفى هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حراً يرسل نفسه على سجيتها فلا يكاد يتقيد بشيء ، من ذلك الغزل والمجون ووصف الخمر والهجاء. والآخر هذا النحو الذى يقصد به الى الجد وفنونه من مدح ورثاء ووصف وفخر ، وفى هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد فى الوزن والقافيـة

والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة وتكسبه شيئاً من الارستقراطية يلائم الموضوع الذى يقول فيه . ولقد تحاول أن تقارن بين أبي نواس حيث يمجن ويتغزل ويصف الخمر ويهجو ، وحين يمدح أو يرثى أو يفخر فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وانما يظهر الفرق عظيما بين الرجلين . وأنت مضطر الى أن تكون ناقدا بصيراً لتتميز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام ، بل أنا أذهب الى أكثر من هذا فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحى أو تكاد تنمحى فى هذا الشعر الجدى بحيث تلتبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جلية كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب بحيث يشعر بها ويمسها الناقد وغير الناقد ، بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبي نواس أو فخره الى غير أبي نواس من الشعراء المجيدين ، وأن تضيف الى أبي نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره دون أن يكون خطؤك عظيما من الوجهة الفنية لأن هنالك مثلاً أعلى من الإجادة والإتقان قد وضعه الشعراء امامهم فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى انما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين فاذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده فهم راضون .

ومالى لا أقيم الدليل على ما أقول ؟ فانظر الى هذه الأبيات من شعر أبي نواس الجدى ، وحدثنى أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم حدثنى أتكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة الماضية ما رويت من العبث والمجون :

لما نزعت عن الغواية والصبا   وخدت بى الشدنية المذعان

سبط مشافرها دقيق خطمها وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى فى جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

هو يصف ناقته التى حملته الى ممدوحه الرشيد ، فيجب أن يسلك فى وصف الناقة تحمله الى ممدوحه طريق غيره من الشعراء الذين حملتهم النوق الى الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وانما يعنيه أن يتحدث الى أشراف الناس أشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب الى الرشيد ناقة ولم تحمله الى الرشيد الا قدماه ، ولكنه مضطر أن يسلك مسلك جرير والفرزدق والأخطل والشماخ وغيرهم من الشعراء الذين كانوا يتكلفون الأسفار الطوال ليبلغوا من يمدحون . ثم قارن بين الشعر الذي لا تكاد تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله .

دمعة كاللؤلؤ الرط ب من الطرف الكحيل
ذرفت فى ساعة البـ ين على الخد الأسيل
انما يفتضح العشـ ـاق فى وقت الرحيل

أتجد فى هذا الشعر لفظا غريبا أو معنى عويصا ؟ أتشعر بأن بينك وبين قائل هذا الشعر من بعد الأمد ما بينك وبين قائل تلك الابيات الثلاثة فى وصف الناقة ؟

ثم أريد أن أروى لك من جد أبي نواس هذه القصيدة التى سيعسر عليك فهمها عسرا شديدا كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين .

أيها المنتاب من عفره   لست من ليـلى ولا سمره
لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره
فاتصل إن كنت متصلا   بقوى من أنت من وطره
خفت مأثور الحديث غداً   وغد أدنى لمنتظره
خاب من أسرى الى بلد   غير معلوم مدى سفره
وسدته ثنى سـاعده   سنة حلت إلى شفره
فامض لاتمنن عليّ يدا   منّـك المعروف من كدره
رب فتيـان ربأتهم   مسقط العيوق عن سحره
فاتقوا بى مايريبهم   إن تقوى الشر من حذره
وابن عم لايكاشفنا   قد لبسناه على غمره
كمن الشنآن فيـه لنا   ككمون النـار فى حجره
ورضاب بت أرشفه   ينقع الظمآن من خصره
عـنيه خوط اسلحة   لان متناه لمهتصره
ذا ومغـبر مخارمـه   تحسر الأبصار عن قطره
لا ترى عين البصير به   ما خلا الآجال من بقره

ثم يقول فى وصف الفرس :

يكتسى عثنونه زبداً   فنصيـلاه الى نحره
ثم يعتمّ الحجاج به   كاعتمام الفوف فى عشره
ثم تذروه الرياح كما   طار قطن الندف عن وتره
كل حاجاتي تناولهـا   وهو لم تنقض قوى أشره

ثم يتخلص الى صاحبه فيقول .

ثم أدنانى الى ملك يأمن الجاني الى هجره
تأخذ الأيدى مظالمها ثم تستذرى الى عصره
كيف لايدنيك من أمل من رسول الله من نفره
فاسل عن نوء تؤمله حسبك العباس من مطره

ثم يقول :

واذا مج القنا عاقا وتراءى الموت فى صوره
راح فى ثني مفاضته أسد يدمي شبا ظفره
تتأيى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

أفهمت من هذه الأبيات شيئاً كثيراً ؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف فى إيثار الغريب حتى كأنه أراد أن يبهر أبا عبيدة والاصمعى وأمثالهما وأن يحير أصحاب النحو والعروض بما تكلف من غموض وبما ركب من ضرورة شعرية ؟ وفى الحق أن اللغويين تعبوا فى تأويل بعض هذه الأبيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله .

كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار فى حجره

فان مرجع هذا الضمير المذكر ليس بالواضح ولا الجلى وان كان المعنى فى نفسه واضحاً جلياً

أليس معقولا أن يقول بعض أئمة اللغة فى أبي نواس : لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره ؟ ففي هذا الشعر وأمثاله مايرضى أنصار الغريب والمشغوفين به ، ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب

الشاعر فيها من خير ماقال أبو نواس ، فيها من دقيق المعنى وشريفه مالا تكاد تجده فى مدائحه الأخري ، ثم فى لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به وتميل اليه دون أن تستطيع تفسيره فى سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد فى إيثار الغريب أحيانا حتى كدت لاتفرق بينه وبين رؤبة والعجّاج ، فانظر الى شيء من هذه الأرجوزة التى مدح فيها الفضل بن الربيع :

وبلدة فيها زور   صعراء تخطي فى صعر
مرت اذا الذئب اقتفر   بها من القوم الاثر
كان له من الجزر   كل جنين ما اشتكر
ولا تعلاه شعر   ميت النسا ، حتى الشفر
عفتها على خطر   وغرز من الغرر
ببازل حين فطر   يهزه جن الأشر
لا متشك من سدر   ولا قريب من جور
كأنه بعد الضمر   وبعد ما جال الضفر
وانمسج فى خسر   جأب رباعى الثغر
يحدو بحقب كالاكر   ترى باثباج القصر
منهن توشيم الجدر   وعين ابكار الخصر

ثم يصل الى المدح فيقول :

. . . . .   اليك كلفنا السفر
خوصا يجاذبن النحر   قد انطوت منها السرر

طى القرارى الحبر   لم تتعقدها الطير
ولا النسيج المزدجر   يافضل للقوم البطر
اذ ليس فى الناس عصر   ولامن من الخوف ورر

ثم يمضى فى ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف شأن الذين ينحدرون من الرجز على سفح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئا من هذه الطاسمات ، ولكني أرى أن الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب الذى انما تتسع له المدارس والجامعات . على أنى لا أريد أن تيأس من أبي نواس فتعتقد أنه لا يؤثر الا الغريب فالحق أنه قد آثر الغريب احيانا وآثر السهل اللين احيانا أخرى

ولقد تجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة لاحيطة فيهما ، ولقد تجد من مدحه مافيه مجون مع احتياط . وأحسب أن فهم ذلك وتعليله ميسور ان اذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس ، فقد مدح اشخاصا لم يكن من السهل عليه أن يبتدىء مدحهم بالمجون أو أن ينزل فى مدحهم عما ألف الشعراء من فخم الالفاظ ورصينه ، ومدح اشخاصا آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم ويتجاوز الفكاهة الى الدعابة ، فهو جاد حريص اذا مدح الرشيد ، وهو يتردد بين الجد والهزل اذا مدح الأمين . ولعله انما اجترأ على الهزل فى مدح الأمين بعد أن اتصل به وكثر اختلافه الى مجالس لهوه وشربه . وهو يتردد كذلك بين الهزل والجد حين يمدح هذا الأمير السمح الذى كان يطمع فيه الشعراء ويدلون عليه وهو العباس بن عبدالله بن أبي جعفر . وكثيراً ما يداعب هذا الوزير الخطير الذى كان يهابه أيام

الرشيد ثم طمع فيه أيام الأمين حين لان الخليفة له ويسر عليه فى أمور كان يعسر فيها الرشيد وهو الفضل بن الربيع

ولم يكن أبو نواس يشفق من التصريح بالمجون والفسوق حين كان يعرض لمدح شابين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا لم يكن يرى مكانا للكلفة بينه وبين ابني صديقه ونديمه الذى كثيراً ما خلصه من غضب الأمين وشفع له فى مواقف حرجة اضطره اليها المجون

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعا ، لانه كان يحبهم ويدلّ عليهم ويطمع فى الخير منهم . ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ، لان ميله اليهم لم يكن الا بمقدار طمعه فيهم . وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك فيحتملونه احتمالا ولا يضمرون له حبا صحيحا . أما الصلة بينه وبين الخصيب فسنعرض لها بشيء من التفصيل فى غير هذا الفصل .

ولكنا لا نريد أن نتركك على ما روينا لك من هذا الشعر الغريب فنتم مقال اليوم بهذه الابيات التى مدح بها أبو نواس العباس بن عبد الله ابن أبي جعفر :

غـرد الديك الصبوح	فاسقنى طاب الصبوح
واسقـني حتى ترانى	حسنا عنـدى القبيح
قهوة تذكر نوحا	حين شاد الفلك نوح
نحن نخفيها ويأبى	طيب ريح فتفوح
فكأن القوم نهى	بينهم مسك ذبيح

أنا فى دنيا من العبا س أغدو وأروح
هاشمى عبدلى عنده يغلو المديح
علم الجود كتاب بين عينيه يلوح
كل جود يا أميرى ما خلا جودك ريح
انما أنت عطايا أبداً لا تستريح
بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح
ما لهذا آخذ فو ق يديه أو نصيح
جدت بالاموال حتى قيل ما هذا صحيح
صور الجود مثالا وله العباس روح
فهو بالمال جواد وهو بالعرض شحيح

خاتمة القول في أبي نواس [1]

المدح ـ الرثاء ـ الهجاء ـ الزهد

فصلنا القول فى هزل أبى نواس ومجونه تفصيلا ، ونحن مضطرون الى ان نجمل القول فى جده اجمالا ، لا لانا نؤثر هزل أبى نواس على جده ولا لانا نريد ان نتملق هذا الميل العام الذى يحمل جمهور القراء ان يؤثر الهزل على الجد ويفضل ما يسر ويلهى على ما ليس له حظ من السرور واللهو بل لانا نعتقد أن شخصية أبي نواس فى حقيقة الامر إنما هى شخصية شاعر هازل ماجن تظهر الظهور كله اذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات والتغنى بآثار هذه اللذات فترى فيها خفة ونشاطا وشيئاً يشبه النزق أو هو النزق . ونرى فيها جرأة غريبة وحرصا قليلا جدا على الاحتياط وصراحة لا تعد لها صراحة . فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره فى الخمر والمجون والنساء . ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والادب الموروث عظيم . ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذى رويناه لك تخيرا دقيقا وراعينا فيه اخلاق الناس فى هذا العصر وميولهم وحاجة الشباب الى القول الطاهر البرىء . وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددين فى الدين والمستمسكين بالادب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المنزمتين ، راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبى نواس فى اللهو والمجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدين وإنكار المنكرين ، وغلو

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ ـ ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤م

قوم اتهمونا بألوان من التهم وأضافوا الينا ضروباً من الخروج على الدين والأخلاق والكيد لتاريخ الأمة العربية المجيد .

ولو اننا روينا لك من شعر أبي نواس فى العبث والدعابة وفى اللهو والمجون دون تحفظ ولا احتياط لمثلنا لك شخصيته على وجهها ولكنا مؤرخين حقا ، ولكنا كنا نتعرض لما لا نحب من إفساد الذوق والاساءة الى الاخلاق . فابو نواس شاعر خطر لا ننصح بقراءته الا لطائفة خاصة من الناس يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا دون أن يتأثروا أو يقلدوا .

شخصية أبي نواس شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء . وبعد كل شيء . ونحسب أن هذا الرجل لو خلى وطبعه ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية — إن صح هذا التعبير — الى أن يصطنع الجد من حين الى حين لكان شعره كله هزلا ومجونا . وما رأيك فى رجل لم ينظر فى يوم من الايام الى الحياة الا من حيث هى سبيل من سبل اللذة ووسيلة من وسائل اللهو ، ولم يجد الا ليستعين بجده على الهزل : أفتظنه مدح لأنه كان يحب ممدوحيه أو يكبرهم ؟ أو لأنه كان يحب المدح ويميل اليه ؟ كلا ! انما مدح الخلفاء والوزراء والامراء ، ليتخذ مدحهم وسيلة الى مدح الخمر ، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة الى شرب الخمر والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات . مدحهم لانه كان فى حاجة الى ما يرزقونه من المال ، ومدحهم لأنه كان فى حاجة الى أن يتملقهم ويتقى شرهم ، مدحهم مستجديا ومدحهم متقيا . ولعله لم يخلص فى مدح واحد من هؤلاء الا نفراً نستطيع أن نتعرفهم اذا نظرنا فى تاريخهم من جهة وفى سيرة أبي نواس معهم من

جهة أخرى . لم يخلص أبو نواس فى مدح الرشيد ، وانما مدحه مستجديا أو متقيا . ولم يخلص أبو نواس فى مدح البرامكة ، وأخلص ابو نواس فى مدح الامين ، لا لأنه كان يكبر الامين ويجله ، بل لأنه كان ينادم الامين ويرى فيه خليلا على الشرب وصديقا على اللذة . وكثيرا ما كان يسخر من الامين اذا سنحت له الفرصة ، وقد هجا الامين غير مرة . وقل مثل ذلك فى مدحه للفضل بن الربيع وزير الامين ، وقل مثل ذلك فى مدحه لابناء الفضل بن الربيع فقد كان هؤلاء جميعا أصدقاءه وندماءه كما أنهم كانوا حماته ورازقيه . وقل مثل ذلك فى مدحه للخصيب فقد بلغ الخصيب من الإنعام على أبى نواس والانبساط له حداعظيما . ويروون أن أبا نوس كان يشرب مع الخصيب حتى يمعن فى السكر ويفقد الرشد ويأتي من المنكرات ما يأتيه السكارى اذا انتهوا من سكرهم الى الحد الاقصى ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة فى الخمر التى مطلعها :

يا شقيق النفس من حكم   نمت عن ليلى ولم أنم

وهو فى شر حال . . .

ومن هنا لا تكاد تحس الاخلاص فى مدح ابى نواس ، وانما هو شىء متكلف تظهر فيه الصنعة ويستخفى فيه الطبع . وقد تحسن هذه الصنعة حينا وقد تسوء حينا آخر . وهى على كل حال ميالة الى الاسراف والمبالغة وقليل فيها التجديد وكثير فيها الاعتماد على القدماء ومشاركة الشعراء فى هذه الصفات الشائعة التى كانوا يقدمونها الى الخلفاء والوزراء يستجدون بها المال . فانظر الى هذه الابيات التى يقولها أبو نواس فى مدح الرشيد :

والى أبي الامناء هارون الذي يحيى بصوت سمائه الحيوان
ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنما لم يخل منه مكان

فاما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعني ولكن جماله افظى . وأما الثاني فلا يخلو من دقة ولا من جمال، ولكن انظر الى ما يقول بعد ذلك .

هارون ألفنا ائتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان
فى كل عام غزوة ووفادة تنبتُّ بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكري باليعملات شعارها الوخدان
يرمى بهن نياط كل تنوفة فى الله رحّال بها ظعان
حتى اذا واجهن أقبال الصفا حن الحطيم وأطت الاركان
لأغر ينفرج الدجى عن وجهه عدل السياسة حبه إيمان
يصلى الهجير بغرة مهدية لو شاء صان أديمها الاكنان
لكنه فى الله مبتذل لها ان التقيَّ مسدد ومعان

أفترى فى هذا الكلام كله شيئا قيما أو معني طريفا ؟ أفتؤمن له با كثر من الجمال اللفظى يلقاك من حين الى حين ؟ ثم ألست تضع يدك على الصنعة ؟ ألست تتبين التكلف واضحاً جليا ؟ ثم انظر الى هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال ولكن التكلف فيهما ملموس .

الفت منادمة الدماء سيوفه فلقلما تحتازها الاجفان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى وأعجب به فاعاده فى قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب الى الإجادة وأبعد عن

التكلف ، وذلك حيث يقول :

ملك تطيب طباعه ومزاجه عذب المذاق على فم المتذوق
ياقى جميع الأمر وهو مقسم بين المناسك والعدو الموفق
يحميك مما تستضر بفعله ضحكات وجه لايريبك مشرق
حتى اذا أمضى عزيمة رأيه أخذت بسمع عدوه والمنطق

فهذا كله كلام عذب سهل ولكنه عادى مألوف . أما المعني الذى أشرنا اليه فى القصيدة الماضية فانظر اليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

انى حلفت عليك جهد ألية قسما بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتق
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

فانظر الى هذا البيت وقارن بينه وبين قوله

حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

ألست تري أنه أقل تكلفا فى اللفظ وأكثر صفاء فى الأسلوب ومع ذلك فالمعنى فى نفسه سخيف لأنه محال . وقد لاحظ القدماء ذلك واختلفوا فيه فمنهم من أنكر على أبى نواس هذه الإحالة ومنهم من أعجب بها . وأنا أشارك المنكرين في إنكارهم وأوثر على هذا المعنى عند أبى نواس قول أشجع السلمى فى مدح الرشيد :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

فهذا الشعر متين رصين وهو فى الوقت نفسه صحيح مستقيم

لا ينكره العقل ولا يذهب فيه الخيال الى غير حـد ، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته أحسن تمثيل . ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب : فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمل وانما هو مغمور بنعمة الخصيب راض عن حياته في مصر سعيد بهذه الحياة.فشعره يصف هذا كله ويمثله تمثيلا صادقا ولست أروي لك القصيدة المشهورة

أجارة بيتينا أبوك غيور ومیسور ما يرجي لديك عسير

ولكن أقرأ شيئاً من قصيدة أخرى لم يكثر الناس تناقلها .و انظر ألا ترى الشاعر فيها سعيداً مغتبطا بحاضره عظيم الامل فى مستقبله :

ذكر الكرخ نازح الاوطان فصبا صبوة ولاتَ أوان
ليس لى مسعد بمصر على الشو ق الى أوجه هناك حسان
اذ لباب الامير صدر نهارى ورواحى الى بيوت القيان
واغتفالى المولى لاختلاس الغمـ ـزة ممن أحبه بالبنان
واعتمالى الكؤوس فى الشرب تسعى مترعات كخالص الزعفران
يا ابنتى أبشرى بميرة مصر وتمني وأسرفى فى الاماني
أنا فى ذمة الخصيب مقيم حيث لاتعتدى صروف الزمان
كيف أخشى عليَّ غول الليالى ومكانى منْ الخصيب مكانى

ثم يقول .

قادنى نحوك الرجاء فصدقـ ـت رجائى واخترت حمد لساني

انما يشترى المحامد حر طاب نفساً لهن بالأثمان

ولم لا يكون سعيدا ؟ ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق وهو يقضى نهاره وليله بين باب الامير ودور اللهو ؟

وكما أن مدح أبي نواس فى أكثر الاحيان ليس بالصادق ولا الممتاز فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطراً من مدحه ، وربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس ، وهذا واضح فلم يكن أبو نواس رجلا محزونا ولا ميالا الى الحزن وانما كان رجلا مبتهجا بطبعه أو كان هو الابتهاج . فليس غريبا أن لا يجيد الرثاء ، وليس غريبا أن يتكلفه اذا اضطر اليه ، ثم لا ننس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن الى حياة الزوجية ، وعجز الذين أرادوا أن يحملوه على الزواج فلم تكن له أسرة ولم يعش بين أبنائه وبناته فلم تنشأ فى نفسه هذه العواطف الرقيقة التى تنشئها الحياة المنزلية الصالحة . وانما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاح .

أما صلات المودة التى كانت تصل بينه وبين الناس فلم يكن أكثرها يقوم على الجد وانما كان يقوم على اللذات ، فكان أبو نواس مدينا لاصدقائه بالابتسام لا بالعبوس ، ومن هنا لا تكاد تشعر بشىء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة . وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق فى رثائه الا مرة واحدة وذلك حين رثى الامين فى هذه الابيات :

طوي الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشرُ

فلا وصل الا عبرة تستديمها أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر

وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شىء عليه أحاذر

لئن عمرت دور بمن لا أوده   فقد عمرت ممن أحب المقابر

فاما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف . ولست أشك فى أن أبا نواس كان يشعر بضعفه فى هذا الفن وكان مع ذلك يحاول أن يخفى هذا الضعف فكان يسلك الى اخفائه سبلا مختلفة أظهرها الاكثار من الوصف على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما الى ذلك

ليس لرثاء أبي نواس قيمة فخير ألاّ نطيل فيه ، وأن ننتقل الى فن آخر أجاد فيه أبو نواس اجادة مطلقة ليست أقل من اجادته فى الخمر ولا فى المجون لانه باب من المجون وهو الهجاء . على أننا نسرف اذا قلنا ان هجاء أبي نواس مجون كله ففي هجاء أبي نواس جد كثير وفيه هزل كثير ، ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبي نواس فصلا مطولا ولكنا مضطرون الى أن نعدل عن ذلك لان أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش القول ومقذعه فليس الى روايته من سبيل . فانكتف بان نعطيك منه صورة موجزة جدا . ولنلاحظ قبل كل شيء أن هجاء أبي نواس ينقسم أقساما . فهناك الهجاء السياسى وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين أحدهما هجاء أبي نواس للعرب عامة وللنذاريين خاصة . فقد كان أبو نواس شديد الميل الى الفرس ، وكان لا يحب من العرب الا اليمانية . فاما النذارية فقد كان يزدريهم ويمقتهم كل المقت ، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاعا حتى يُروى أن الرشيد حبسه فى ذلك ، وكان لا يكاد يستثني قريشا فاذا فعل فمخافة السيف لأن النبوة والخلافة كانتا فى قريش . القسم الثانى من هجائه

السياسى هجاؤه للذين عاصروه من الأمراء والوزراء فقد كان أبو نواس يكره البرامكة وكان يكره الأمويين وكان ينال اولئك وهؤلاء بفاحش القول ، ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحيما اذا هجا أعداءه السياسيين وانما يظهر أنه كان شديد الضغن منكر الحقد . فانظر الى هذه الابيات التى هجا بها اسمعيل بن صبيح مولى الأمويين وكاتب الأمين :

ألا قل لاسماعيل إنك شارب ... بكأس بني ماهان ضربة لازم
أتسمن أولاد الطريد ورهطه ... بإهزال آل الله من نسل هاشم
وان ذكر الجعدى اذريت عبرة ... وقلت أدال الله من كل ظالم
وتخبر من لاقيت انك صائم ... وتغدو بجحر مفطرا غير صائم
فان يَسْر اسماعيل فى فجراته ... فليس أمير المؤمنين بنائم

فانظر الى هذه الوقيعة المنكرة ، ثم اقرأ هذه الابيات الاخرى فليست أقل نكرا مما روينا لك :

ألست أمين الله سيفك نقمة ... اذا ماق يوما فى خلافك مائق
فكيف باسماعيل يسلم مثله ... عليك ولم يسلم عليك منافق
أعيذك بالرحمن من شر كاتب ... له قلم زان وآخر سارق
أحيمر عاد ان للسيف وقعة ... برأسك فانظر بعدها ما توافق
تجهز جهاز البرمكيين وانتظر ... بقية ليل صبحه بك لاحق

وقسم آخر من هجاء أبى نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب النحو والكلام ، فقد هجا الهيثم بن عدى وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين المنكرين ويروى أنه كتبهما على الحائط حيث كان يدرس أبو عبيدة

صلى الاله على لوط وشيعته ... أبا عبيدة قل بالله آمينا
فانت عندى بلا شك بقيته ... منذ احتلمت وقدجاوزت سبعينا

وهجا النظام من المتكلمين بهذه الابيات :

قولا لابراهيم قولا هترا ... غلبتني زندقة وكفرا
ان قلت ما تشرب قال خمرا ... .
أو قلت ما تترك قال برا ... أو قلت ما ترهب قال بحرا
أو قلت ما تقول قال شرا ... أصلاه ربى لهبا وجمرا

ولعلك تذكر انه كان يقصد الى النظام بقصيدته التى أولها : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء » . والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه ويعجبون بشعره ولعل شيئاً من هذا الاعجاب مصدره الخوف فقد كان أبو نواس ينذر العلماء اذا احتاج الى ذلك ، ولما لم يجد له الكلبى نسبا فى أنساب العرب قال فيه :

أبا منذر ما بال أبواب مذحج ... مغلقة دونى وأنت صديقى
فان تعزنى يأتك ثنائى ومدحتى ... وان تأب لا يسدد عليك طريقى

وقسم ثالث من هجاء أبى نواس هو هجاؤه لأصحابه من الشعراء والندامى فله فى الرقاشى وفى بنى نوبخت كلام كثير مقذع . وظاهر أن رجلا كأبى نواس قضى حياته بين الكاس والطاس فى لعب ومزاح كان من خفة الروح وتوقد الذكاء ودقة الفطنة بحيث كان يبلغ ما أراد اذا هجا فهو من اشد الشعراء فى عصره إقذاعا ومن اكثرهم نكاية بالخصم ، وفى هجائه ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئاً

قليلا فانظر الى قوله :

أمات الله من جوع رقاشا   فلولا الجوع ما ماتت رقاش
ولو أشممت موتاهم رغيفا   وقد سكنوا القبور اذاً لعاشوا!

وانظر الى قوله فى هجاء داود بن رزين راوية بشار

اذا أنشد داود   فقل أحسن بشار
له من شعره الغث   اذا ما شاء أشعار
وما منها له شىء   ألا هذا هو العار

وانظر الى هذين البيتين :

بما أهجوك لا أدرى   لسانى فيك لا يجرى
اذا فكرت فى عرضك   أشفقت على شعرى

وانظر الى قوله :

سيروا الى أبعد منتاب   قد ظهر الدجال بالزاب
هذا ابن نوبخت له إمرة   صاحب كتاب وحجّاب

وانظر الى قوله فى البرامكة :

إنىَ لولا شقاء جدى   ما مات موسى كذا سريعا
ولا طوته المنون حتى   أرى بنى برمك جميعا
هذا زمان القرود فاخضع   وكن لهم سامعا مطيعا

وهذا أخف ما قال أبو نواس فى الهجاء . ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حداً يحول بيننا وبين روايته

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ولعله

أول من اتخذه فنا مستقلا من فنون الشعر فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها وهو فن الصيد ، ولكني لا أحدثك عنه فى هذا الفصل لأن أبا نواس قد آثر فيه الغريب ايثارا شديدا حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة لشدة احتياجه الى الشرح والتفسير . ولعلى أوفق الى جمع هذه الفصول كلها فى كتاب فأضيف اليها فصلا عن الصيد فى شعر أبى نواس .

أما الفن الذى أريد أن أختم به القول فى أبي نواس فهو من الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها وذلك مفهوم أيضا : فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبى نواس لما استطعت الا أن تقول ان أبا نواس كان يزدرى الحياة ويسخر منها ، ولعلك تدهش اذا قلت لك انى أشبه أبا نواس بأبى العلاء ، تدهش لان أبا نواس مشرق مبتسم ، بينما أبو العلاء عابس مكتئب ، وتدهش لان أبا نواس رجل لذة وفجور بينما أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فابو نواس شبيه بأبى العلاء : كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمقتها مقتا شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدريها ويستعين عليها باللذة واللهو ، وان أبا العلاء كان يكره الحياة فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفى الحق أن المتشائمين ينقسمون الى هذين القسمين : فنهم متشائم يضحك ويلهو ، ومنهم متشائم يعبس ويبكى ، وهم جميعا متشائمون تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهى أن الحياة شىء ليس بذى خطر ، لم ينشأ من خير وان ينتهى الى خير ، فلتقض فى لعب ولهو ، أو فلتقض فى حكمة وزهد . هذا شيء

تلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريبا اذاً أن يجيد
ِ نواس فى المجون وفى الزهد معا ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على
، نواس أكان هو مسلما حقا أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن فى
، نواس هو انه تجاوز حدود الاسلام وازدرى أصوله وقواعده غير مرة
حياته الطويلة ، ولنقل إن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً
نختم قولنا فيه بهذه الابيات القيمة التى قالها فى الزهد :

أيّة نار قدح القادح ... وأى جد بلغ المازحُ
لله در الشيب من واعظ ... وناصح لو حظى الناصح
يأبى الفتى الا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك الى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
لا يجتلى الحوراء من خدرها ... الا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذى ... سيق اليه المتجر الرابح
شمّر فما فى الدين اغلوطة ... ورح لما أنت له رائح

الوليد بن يزيد(١)

كان خليعاً ماجنا ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون . تبعه أبو نواس فى خلاعته ومجونه ، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر فسطوا على شعره وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل انهم استباحوها واغتصبوها اغتصابا ، لم يروا فى ذلك حرجا ولم يخشوا فى ذلك دفاعا . كان الوليد أمويا فكان بغيضا إلى الناس أيام بني العباس ، ثم كان الوليد بغيضا الى بني أمية أنفسهم قبل أن يمكن الله لبني العباس فى الارض ، فكان بغض الناس له مضاعفا ، كرهوه حين كان الأمر لبنى أمية لأنه كان بغيضا إلى قومه ولان التوفيق السياسى أخطأه ولانه كان على شيء غير قليل من سوء السيرة ولان قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا فى تسوىء سيرته وأضافوا اليه من القول ما لم يقل وحملوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسى وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها الى النصر ثم كانت ثورة العباسيين واستقرار الامر لهم ، فشمل البغض بني أمية جميعاً وكان حظ الوليد منه مضاعفاً وتقرب الناس الى بني العباس بلعن بنى أمية جميعاً خيرهم وشريرهم ، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح فى بنى هاشم جميعاً وبلعن على رضى الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد فى الكتب من ذم الوليد والنعى عليه ورميه

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ ٢ ابريل سنة ١٩٢٤

بالكفر حيناً وبالزندقة حيناً آخر واضافة الشعر المملوء كفراً وفجوراً اليه؛ يجب أن نحتاط في هذا كله فاكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك بل قاله الاولون فقد اختلفوا فيه فيه اختلافا عظيما، فاما أكثرهم فكانوا يتقربون الى بني العباس وإلى عامة الناس بالطعن فيه والنعي عليه، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ينالونها بضروب الغضب وينزلون بها ألوان السخط. وأما القليل من هؤلاء الاولين فكانوا يقصدون في ذلك فيسكتون وربما اصطنع بعضهم الشجاعة فدافع عنه في رفق وحذر. قالوا دخل مروان بن أبي حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد فتردد فاعفاه الرشيد من آثار قوله فقال « كان من أصبح الناس وأظرف الناس وأشعر الناس » فاستنشده الرشيد من شعره فانشد هذه الابيات

ليت هشاماً عاش حتى يرى ... مكياله الاوفر قد أترعا

كلنا له الصاع التي كالها ... فما ظلمناه بها أصوعا

لم نأت ما نأتيه عن بدعة ... أحلها القرآن لي أجمعا

قالوا فأمر الرشيد بهذه الابيات فكتبت له. وتحدثوا أن رجلا من ولد الغمر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد فسأله عن نسبه فانتسب إلى قريش فسأله أن يخصص وأمنه على نفسه إن ظهر انه مرواني فلما ذكر الرجل نسبه بش له الرشيد وقال لعن الله قاتلي أبيك فقد قتلوا خليفة مجمعاً عليه وقضى حوائجه. وعلى نحو من ذلك كان رأى المهدى، قال الرواة ان فقيهاً من الذين كانوا يختلفون الى مجلس المهدى استطاع أن يدفع عن الوليد حين

اتهم بالزندقة فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ولكنه ذكر شربه وحبه للهو وعكوفه عليه ، ويقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفا فى اللهو والفجور الى غير حد كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقيا صالحا وانما كان رجلا من الناس أحب اللذة وكلف بها وأعانته عليها ظروف نريد أن نجملها ، فأخذ منها بحظ موفور دون أن يخرجه ذلك عن دينه أو يتجاوز به حدود ما ينبغي للخلفاء فى عصره ولكنه كان شقيا سيء الحظ جنت عليه الظروف السياسية التى عاش فيها أكثر مما جني عليه لهوه ومجونه

أول هذه الظروف السياسية التى جنت على الوليد أنه كان وليا العهد أبيه يزيد بن عبد الملك ولكنه كان غلاما فتوسط بينه وبين أبيه فى الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ولم يكد يتم الأمر لهشام حتى طمع فى الخلافة لابنه وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد، وكان قد أعطى العهد على نفسه ليفين للوليد ولكن الأثرة وحب الابناء كانا أقوى وأشد تأثيراً فى نفس هشام من العهد والوفاء به، أزمع هشام خلع الوليد وأخذ يحتال فى ذلك ويعد له وأحس الوليد ذلك فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد اشتدت شيئا فشيئا حتي أصبحت عداء صريحاً وحتى اضطرت الوليد الى أن يترك العاصمة ويرتحل إلى البادية مغاضباً لعمه مجتنباً شره فلم يزد ذلك هشاما إلا بغضا لابن أخيه وحقداً عليه والا اضطهاداً له ولاوليائه ، وأخبار ذلك كثيرة منتشرة فى الكتب ، وبأي شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ويصرفهم عن بيعته الا بالدين وذكر الفجور والفسوق؛ وقد انتفع هشام بهذا وأسرف فى الانتفاع به فاذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والمجون والادمان.

والكفر والزندقة وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ومكذب ولكنه يتماق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع فلأمر ما كان مغنوه يغنونه هذين البيتين .

يا أيها السائل عن ديننا   نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفا وممزوجةً   بالسخن أحياناً وبالفاتر

وأبو شاكر هذا هو مسلمة بن هشام الذى كان يرشح للخلافة مكان الوليد ، وتحدثوا ان هشاماً سأل الوليد ذات يوم أسئلة تنم عن رأيه فيه فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سأله ما شرابك فاجاب : شرابك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم ان الوليد لم يكن يشرب وانما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ومن الخلفاء أنفسهم كان يشرب كهشام وبنى هشام ، ولكن الغرض السياسى أباح لهشام أن يذمه ويشنع عليه بما كان يأتي هو وبما كان يأتي أبناؤه

كان الوليد مضطهدا أيام هشام فكان هذا الاضطهاد نفسه يضطره الى اللهو واللعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يناله به السلطان من المحن من جهة . وليظهر نفسه مظهر الرجل الذى لا يريد أن يضعف ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عنادا وكان يشرب طالبا للعزاء ، ومضى في الشرب عناداً وتعزيا حتى شغف به شغفا غير مألوف فأمكن من نفسه وصدق بعض آراء الناس فيه ومات هشام دون أن يستطيع خلعه ولكنه كان قد استطاع ايذاءه وايذاء أصحابه ونالهم بمحن كثيرة شديدة فلما تم له الامر وتبوأ دار الخلافة جرى مع طبيعته فانتقم وأسرف فى الانتقام كما

أسرف هشام فى الاساءة اليه ولكنه انتقم من الابرياء أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا اليه الا تأثراً لهشام وكذلك شأن الانتقام السياسى ، يصيب البرىء قبل أن يصيب المسىء . ثم لم يكتف الوليد بالاسراف فى الانتقام بل أسرف فى شىء آخر ، كان محروما أيام عمه تجرى مع طبيعته وأراد أن يستوفى حقه بعد الحرمان فتجاوز الحق . كان مقترا عليه فقد قطع عنه هشام عطاءه وارزاق أصحابه ومواليه وقد انفتحت له الان خزائن الدولة فأسرف فيها ، كان مضيقا عليه يختلس اللهو اختلاسا ويفر باللذة فرارا وقد أصبح الآن صاحب السلطان فاطلق لنفسه عنانها وأخذ من اللذة ما استطاع وفوق ما استطاع .

ثم لم يكد يصل الى الخلافة وينتقم لنفسه حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ، فقد كون حزبا قويا يكره الوليد ويأتمر به ويرثى لأبناء هشام ويبث الدعوة للتشنيع على الوليد واساءة رأى الناس فيه . فلم يكن بد للوليد من أن يدفع عن نفسه ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكا ولا قديسا وانما كان رجلا من الناس وكان أمويا من بني أمية فيه أخلاقهم وخصالهم وفيه عنفهم وعنادهم وفيه غرورهم وطغيانهم فالقى الشر بالشر وتحدى خصومه فامكنهم من نفسه وصدق رأيهم فيه . ثم انتصر عليه خصومه فخلعوه وقتلوه وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمد الناس ما فعلوا فاضافوا الى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا . ثم كانت الفتنة العباسية فأصبح بنو أمية جميعا فى رأي الخلفاء العباسيين وعامة الناس ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء كفرة فجاراً وأصبح الوليد مثالا لكفرهم

وفجورهم ، وكذلك يكتب التاريخ فيظلم فيه ناس من الحق ألا يُظلموا :

لا نريد أن ندافع عن الوليد فليس يغني الدفاع عن الوليد شيئاً ، وليس يعنينا في حقيقة الامر أن يكون الوليد خيِّرا أو شريرا ، ولكن أمامنا حقيقة تاريخية نريد أن نتصورها تصورا صحيحا ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، فاذا أردنا أن نحكم على الوليد حكما قريبا من الصدق كان من الحق أن نقول انه كان رجلا مستمتعا بلذاته مسرفا في هذا الاستمتاع ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ولعله لم يصل الى هذا الاسراف في الاثم الا لأن خصومه اضطروه الى ذلك اضطرارا ، اما باضطهادهم اياه واما بتشنيعهم عليه وتحديهم له .

ولقد نريد أن ننظر الى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية ، نريد أن ننظر اليه من الوجهة الادبية ، فقد كان الوليد أديبا وكان شاعرا ، وهذا وحده هو الذي يعنينا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر اليه من هذه الوجهة ونريد أن نتبين شخصيته الادبية والشعرية بنوع خاص ولكن ذلك ليس ميسوراً ، فقد ذهبت أشعار الوليد كلها أو أكثرها ولم يبق منها الا الشيء القليل ، ذهبت لتعصب الناس عليه وتحرجهم من رواية شعره . وما نحسب أن هذا التحرج كان دينيا فقد روى الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون . وانما كان هذا التحرج سياسيا . ومن يدري لعل هذا التحرج السياسي قد أضاع علينا من آثار بني أمية شيئاً كثيراً ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظا يتناقله الناس في القرن الرابع فانا نجد في الاغاني أن قصائد الوليد (تدل على نفسها)

ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها واثباتها وليته فعل ، فان هذه القصائد التى كانت تدل على نفسها فى القرن الرابع لم يبق منها الآن شىء الا هذه المقطوعات التى أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير اذن أن نعطى من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون الى أن نعطى منه صورة شاحبة ممتقعة ضعيفة لا تكاد تمثله أو تدل عليه ، ومع ذلك فهى خير من لا شىء .

أخص ما يمتاز به الوليد انه كان شاعرا صادقا لا يكذب ولا يميل الى الكذب فى شعره ، ولم يكذب ؟ وهو من فتيان بني أمية عزيز النفس رفيع المنزلة ليس فى حاجة الى أن يمدح ليكسب الحياة . وليس فى حاجة الى أن يهجو ليدفع عن نفسه خصما يكافؤه ؛ وأى الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولى عهد المسلمين ؟ ولو فعل فما كان ولى عهد المسلمين ليهجوه وانما كانت السبيل فى ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكلفا فى حياته . وكأنه كان يزدرى الناس ولا يحفل بهم ، ولم لا يزدريهم ؟ وقد رآهم يتملقون عمه ويعينونه على الظلم ونقض العهد لا لشىء الا لأنه صاحب السلطان ، أفيحفل بمثل هؤلاء ؟ واذا لم يحفل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه أو ينتحل من الخصال خصلة لا تعجبه .

قالوا كان الوليد متزوجا من احدى بنات سعيد بن خلد بن عمرو ابن عثمان . فعرف أن لزوجه اختا تفوقها جمالا وحسنا فطلق زوجه وأراد أن يقترن بأختها فخطبها الى أبيها ، وعرف ذلك هشام فارسل الى سعيد أتريد أن تستفحل الوليد ابنائك يطلق هذه ويتزوج تلك ؛ فرد سعيد خطبة

الوليد . فقال الوليد هذا سعيد يرد خطبتي ولو كنت خليفة لزوجتي بناته جميعا ... وفي الحق أن سعيدا لم يرد هـذه الخطبة الا مجاراة لهشام ، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ورأي الوليد في الناس رأيه أن يحفل بهم أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد فلم يكن يحاول ارضاءهم ، وكان سيدهم وهو خليفة فلم يكن يحاول ارضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حبا في الشعر ، لم يكن يحرص على أن يكون شاعرا مجيداً وانما كان يلهو أو كان يجد وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجد في لهوه وجده وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب وانما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه وترجم عن عواطفه ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقا يمثل نفسه تمثيلا صحيحا . وسنري أن هذه النفس لم تكن بغيضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضا كان شعر الوليد أقرب الى الرداءة اللفظية منه الى الجودة . فقد قلت لك انه لم يكن يتكلف هذه الجودة ولا يطمع فيها وانما كان يقول جريا مع الطبع ولم يكن يقول الشعر الا وهو متأثر بما يسر أو يحزن . واذن فقد كان مشغولا بسروره وحزنه عن الألفاظ . كان يقول الشعر وهو سكران يشرب ويطرب بما حوله وكان همه أن يكون قد قال شعراً سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه أو خاطراً خطر له ، وكان يحب شعره لأنه كان معجبا بنفسه وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس وكان يحب أن ينظر كثيراً في هـذه المرآة ولذلك كان لا يكاد يقول شعرا الا طلب الى أحد المغنين أن يغني له فيه صوتا وربما

قال الابيات فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله .

وهذا النحو من الشعر الذى لا يتكلف صاحبه فيه لفظا ولا معني وانما يغترفه اغترافا سهلا لا مشقة فيه يكفى أن يخطر الخاطر أو تعرض الحادثة فاذا الشاعر ينظم فيها أبياتا أى يقول فيها كلاما كان يستطيع أن يقوله نثرا ولكنه تعود النظم فهو ينظم فى غير عسر ، ولهذا كان الشعر أيسر شيء على الوليد ، كان يتكلم شعرا حين ينثر الناس ، كان اذا أعجبه شيء عادي وصفه شعرا ، وكان اذا اشتهى شيئاً اشتهاه شعرا ، وكان اذا غمه شيء مهما يكن جليلا أو ضئيلا عبر عن ذلك بالشعر ، كان الشعر عنده كالنثر عند غيره ولهذا اصطنع من بحور الشعر أخفها وألطفها وأقربها الى النثر وأشدها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التى كان يحياها ، فقليلا ما نجد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة وانما شعره كله هزج ورمل وهو اذا عمد الى البحور الطوال اجتزأها اجتزاء وخففها تخفيفا فاختار أيسرها وأقصرها . قلت لك انه لم يكن ينظم الشعر وانما كان يتكلمه . وهو فى هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ، فقد حدثتك عن أبي نواس انه كان اذا لها أو تغزل آثر من بحور الشعر أيسرها وأقصرها وأخفها موقعا وأدناها من النثر مكانا ، وكذلك كان غير أبى نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم فى هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجد فى شعره لاختار لهذا الجد

من الاوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ولكنه لم يكن يجدّ في شعره كثيراً ، فقد قلت لك انه لم يكد يمدح ولم يكد يهجو ، وانما تعاطى من فنون الشعر ضروبا خاصة ، وصف الخمر لانه كان يشربها ، ووصف اللذة لانه كان يستمتع بها ، ووصف الصيد لانه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج الى الشعر السهل والى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً فقد ذكرت لك انه أحب أخت زوجه وكانت هذه المرأة التى فتن بها تسمى سلمى بنت سعيد فلا تكاد تجد شعرا للوليد يخلو من سلمى وهو يفتن فى ذكر سلمى افتنانا عظيما فيذكر اسمها مكبرا ومصغرا ويذكره كاملا ومرخما ويتخذه مرة كنية لها كأنه يداعبها ، ومن الغريب انه كان فى هذا الحب سيء الحظ كما كان فى حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج أختها فحال هشام بينه وبين ذلك فندم على تطليق امرأته وكأنه أحبها فأراد أن يراجعها ولكنها كانت قد تزوجت رجلا آخر فقال فى ذلك شعرا لذيذا ولكنه يأس من امرأته فانصرف الى عشيقته سلمى وكأنها كانت تحبه بل كانت تحبه ولكنها كانت تطيع أباها وتكبره فكان الوليد ينسب بها حياته وكان شعره يصل اليها وكان يحب أن يسمع رأيها فى هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تذمه بل لانه يريد أن يجد فى كلامها صدى لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم ان خاصم سعيدا وهجاه فبلغ ذلك سلمى فغضبت لهجاء أبيها وبلغ الوليد أنها مغضبة فترضاها بشعر كثير وترضى أباها واعتذر اليه وظل أيام هشام فى وجد وحزن يحب ولا يصل الى من يحب ، وله فى ذلك فنون فقد احتال ذات يوم فى أن يدخل قصر سعيد

فيقال انه لقى زياتا يسوق حمارا فأخذ من الزيات ثيابه وحماره وزيته ونزل له عن فرسه وثيابه ومضى يبيع الزيت حتى دخل قصر سعيد يعرض زيته ورأته سلمى ورآها ثم نهره الخدم فانصرف وقال فى ذلك شعرا . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة خطب سلمى الى أبيها فقبل خطبته هذه المرة وزوجه ابنته ، وللوليد فى ذلك شعر عذب لذيذ من أخف الشعر ظلا وأحسنه فى النفوس وقعا ، ولكني قلت لك إن الوليد كان سيئ الحظ فى حبه كما كان سيئ الحظ فى حياته كلها ، فلم تلبث سلمى عنده الا أربعين يوما ثم ماتت فجزع الوليد لموتها جزعا شديدا ورثاها رثاء لا نقول انه يفطر القلوب حزنا وأسي ولكننا نقول انه يمثل نفس الوليد التى كانت تعرف كيف تحزن كما كانت تعرف كيف تبتهج . ويكفى أن تقرأ شعر الوليد فى سلمي هذه حية وميتة لتعرف أن الوليد لم يكن يتكلف الشعر ولا يحرص على الاجادة فيه وانما كان يرسله كما يرسل أنفاسه فى سهولة ويسر فاذا هو حار حينا وفاتر حينا وقد يصل الى البرد حينا آخر .

ثم للوليد جد ، ولكننا لم نحفظ منه الا قليلا فقد خاصم هشاما فاضطره هذا الخصام الى شىء من الفخر والعتب ونالته محن اضطرته الى أن يقول فيها شعرا وفقد ابنا له فرثاه وهو فى هذا الجد كله قوى متين لا يخلو من جلال ورصانة .

ولم يكن الوليد شاعرا فحسب ، وكأنه كان يتصرف فى النثر تصرفا حسنا فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ولكنى أتردد (وأظن اني محقق) فى نسبة هذه الرسائل الى الوليد والى هشام

وأحسب ان مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ولست أشك فى ذلك بالقياس الى هشام وأنا أرجحه بالقياس الى الوليد ، ومهما يكن من شيء فان معانى هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلا لا بأس به . ثم كان الوليد مع هذا عالما بأيام العرب واحداثها وبأشياء أخري كثيرة وأحسب أن اتصاله بالموالى من الفرس قد علمه شيئاً كثيراً ، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزندقة ومال معهم الى مذهب ماني ، وليس من شك فى أنه كان يلم باصطلاحات حديثة علمية أو فلسفية ظهرت فى شعره عند ما وصف الخمر كما ظهرت فى شعر أبى نواس . ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبى نواس ليس بالقليل . كان الوليد أقرب الى البداوة منه الى الحضارة وذلك ظاهر جلى فى شعره ، فعلى هـذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس فى لهوه ومجونه حضري رق حتى كاد ينمحى رقة وخفة

ولنختصر . فللوليد شخصيتان ، شخصيته السياسية التاريخية التى حدثتك عنها فى أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية ان لم تكن جذابة خلابة فليست منفرة ولا بغيضة وهى لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره من الخلفاء الامويين والعباسيين الذين يذكرون بالخير ولعلهم ليسوا أقل إثما من الوليد . وشخصيته الأدبية شخصيته من حيث هو شاعر . وأحسب أنى قد رسمتها لك رسما الا يكن صادقا كل الصدق فليس بعيدا عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً

ـيفا جذابا خفيف الروح . ولـكني أريد أن أثبت كل هذه الصفات
، قدمتها ولا بد لذلك من أن ننتقل الى طائفة من شعره ، فليكن
ك فى الفصل الآتى

مطيع ابن اياس (١)

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد لاني وعدتك فى الاسبوع الماضى أن استأنف الحديث فيه ، ولكن بدا لى . فسأحدثك عن شاعر آخر ، ولست اكره إخلاف هذا الوعد ، فمن اليسير عليك ومن الخير لك ولى إذا أردت أن تتعرف شعر الوليد وتتثبت صحة تلك الصورة التى رسمتها لك من شخصيته أن ترجع الى كتاب الاغانى وما روى فيه ابو الفرج من شعر الوليد ، ففى ذلك مقنع لك وفى ذلك فائدة أعظم واجدى من الفائدة التي تجنيها لو أني رويت لك طرفا من شعر الوليد فى هذا الحديث . ومن يدرى ؟ لعلك إن رجعت الى أخبار الوليد وأشعاره فى الاغاني صححت بعض ما قد اكون تورطت فيه من خطأ ، ومهما يكن من شىء فان رجوعك الى الاغانى بعد أن قرأت حديثى عن الوليد أنفع لك وأجدى عليك من قراءة حديث آخر ليس لى فيه إلا رواية وتحليل . وذلك في الوقت نفسه ينفعنى ، فانا أريد أن اتحدث اليك مسرعا عن طائفة من الشعراء تصل بينهم وبين الوليد وأبى نواس صلة متينة قوية هى صلة الخلاعة والمجون والشك والاعراض عما ألف الناس ، أريد أن اتحدث اليك فى هؤلاء الشعراء لا لانى أوثر هزلهم وخلاعتهم على جد غيرهم ، ولا لانى أشعر بأنك تؤثر الخلاعة والهزل على الجد فأحاول أن أرضيك واسليك ، بل لانى أرى فى

---

(١) نشرت بالسياسه فى ٥ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ — ٩ ابريل سنة ١٩٢٤ م

الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون في ذلك العصر نوعا من الجد عظيم الخطر يمكننا من أن نفهم عصراً من العصور الاسلامية كما ينبغي أن نفهمه ، ويمكننا من أن نحكم على هذا العصر حكما ملائما لاحق مقاربا للصواب ، وليس هذا بالشيء اليسير وليس هذا بالشيء الذي يزدريه الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أني لم أكد أعرض لابي نواس في السنة الماضية حتى سخط ناس كثيرون في مصر وفي غير مصر ، سخط قوم لأن في شعر أبي نواس وأمثاله مخالفة للاخلاق ونبوا عن الدين ، وسخط قوم آخرون لانهم زعموا أني أسيء الى العرب وأتهمهم بما ليس فيهم واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياسا لحياة العصر الذي عاش فيه فأعمم حين يجب التخصيص واسرف في التعميم حين يجب الاحتياط والدقة . لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يعنون بالبحث الادبي والتاريخي عناية صادقة اذا خطر لهم رأى وظهر لهم أنه الحق فآمنوا به واطمأنوا اليه لم يسهل عليهم ان يتركوه أو ينصرفوا عنه حتى يثبتوا لأنفسهم وللناس أنه الحق وهم يشتدون في ذلك ويحرصون عليه حرصا ليس فوقه حرص ، وانا من هؤلاء الناس ، حاولت ان أبحث عن أبي نواس فخطر لي أنه كان شاعراً شاكا ماجنا وان هذا الشك والمجون لم يكونا مقصورين عليه بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر فتتبعت هذا الرأي وجعلت أدرسه وامتحنه وجعلت كلما أمعنت في هذا الدرس والامتحان أزداد إيمانا بهذا الرأى واطمئنانا اليه . ثم انتقلت منه إلى رأي آخر أوسع منه واشمل فاعتقدت وما زلت اعتقد ان القرن الثاني للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد

وأصحاب الشك والمشغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون وعصر افتتاذ والحاد عن الاخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضاً :

رأيت هذا الرأى وذهبت اثبته بالادلة المختلفة والحجج المتباينة أثناء بحثى عن أبى نواس . ولكنى لا اكتفى الآن باثبات هذا الرأى ولا بأن أقيم عليه النظرية أستمدها مرة من انتقال العرب من حال الى حال ومرة من اختلاطهم بالامة الفارسية ومرة من طبيعة الحضارة والترف ومرة من ظهور العلم ونقل الفلسفة ، لا اكتفى بهذا كله وإنما أريد ان أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون تشخيصا لا يجعل إلى الشك فيها سبيلا ثم أريد أن ابين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون اليهم ويتفكهون بما يوصفون به من ظرف وما يروى عنهم من هزل ومجون .واذا كان هؤلاء الشعراء وأصحابهم من حرية الرأى ومن الاسراف فى حب اللذة والتهالك عليها سرا وجهراً بهذا الحد الذي بينته وسأبينه في هذه الفصول ، واذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين ، أقول اذا كان الامر على هذا النحو فليس عندى شك فى ان هـذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهـم لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته وإنمـا كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات . ولم لا يكون كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيئان كلاهما خطر على حياة السذاجة والقناعة ؟ احدهما العقل ، أريد العقل الفلسفى الذي يتدخل فى كل شىء بالنقد والتحليل

و بالنفى والاثبات ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد وإنما يريد اذا بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو فى أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم ما يعترض فى طريقه من آثار الوراثة ، والثانى الحضارة وما تستتبعه من نعمة ولذة وترف ، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ، فاما العقل الفلسفى فمعول يهدم القديم فى الحياة المادية على اختلاف فروعها . ومن زعم ان العرب لم يتأثروا فى القرن الثانى للهجرة بهذين المؤثرين الخطرين فهو مسرف كل الاسراف بعيد عن الحق كل البعد .

ليس غريباً اذن أن يظهر فى هذا العصر الوليد بن يزيد ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد وابن المقفع ووالبة بن الحباب وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم فى شكهم ومجونهم . وفى لهوهم وعبثهم ، ليس غريبا أن يظهر هؤلاء الناس فى ذلك العصر ، وإنما الغريب أن يخلو منهم ذلك العصر ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنساك وأصحاب الزهد والتقى .

نحن اذاً مضطرون الى أن نأخذ هذا العصر كما هو والى أن نصطنع من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر اليه فى جملته وفى تفصيله لا مشفقين ولا مترددين ولا كالنعامة التى يأتيها الخطر فتخفى رأسها كى لا تراه ويخيل اليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . . . فمهما تنكر ظهور الشك والمجون وأصحابهما فى هذا العصر وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين من أهله فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصراً ظهر فيه الشك والمجون واستأثرا بعقول الكثرة المستنيرة من أهله حتى بعض الفقهاء وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان

عصر شك أو عصر يقين ؟ وما يضرنا أن نجهل ذلك ؟ ولست أري على ذلك جوابًا معقولا ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه الى من يسألك مانفع العلم وما ضرر الجهل وما فائدة الصواب ومامضرة الخطأ ؟ سيقولون ولكنك سيء الاختيار ردىء الذوق ؛ فما أنت وأصحاب الشك والمجون تحدثنا عنهم فى شهر الصوم وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم فى ألوان الهزل ؟ وهلا أجلت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم وهلا اكتفيت فى هذه الايام التى ينصرف فيها الناس الى الطاعة والتقوي بالتحدث اليهم فى اخبار الزهاد والناسكين وفى مناقب الوعاظ والصالحين ؟ نعم ، سيقولون هذا .ومن يدرى؛ لعلى انما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم لأرفه على هؤلاء الصائمين وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلا ، وأى اثم فى ذلك وأى جناح فيه ؟

زعموا أن ناسا سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟ فانشد ابن عباس شعراً لا استطيع أن أرويه ثم نهض فصلى ، وزعموا أن ناسا سألوا عن شيء كهذا أحد الفقهاء المحدثين وأحسبه سعيد بن المسيب فانشد :

أُنبئت أن فتاة كنت اخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

لم يتحرج ابن عباس ولم يتحرج ابن المسيب ولم يتحرج غيرهما من الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة جدها وهزلها . فما لنا نتحرج الآن ؟ أليس هذا التحرج نفسه مظهراً من مظاهر الضعف ولين العقيدة واضطراب اليقين ؟ إن المؤمن حقا المتدين حقا المخلص فى نسكه

وعبادته لايخشى على ايمانه ولا على دينه ولا على زهده وعبادته شعر مطيع وأصحاب مطيع ، وانما يخشى هذا الشعر من يحس من نفسه الضعف ويريد أن يتقيه ويتجنب أسبابه والمغريات به . واذا أحس الرجل من نفسه ضعفاً فى مثل هذه الاشياء فارو له ماشئت من شعر أو اكفف عن رواية هذا الشعر له فما أنت بنافعه ولا ضاره.

على انى قلت إنا نبحث بحثاً علمياً لا نريد به أن نرضى الناس ولا أن نسلى عنهم وإنما نريد أن نفيد وأن نستفيد . وأرى انى قد أسرفت فى هذه المقدمة ان كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة . ولم أتحدث اليك بعد فى مطيع ، ومع ذلك فهو خليق بان أتحدث اليك فيه وبان أطيل الحديث .

كنت اذكر لك فى الحديث الماضى صدق الوليد بن يزيد وخفة روحه فى الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع ابن اياس اذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة وخفة الروح وحلاوة الدعابة وجمال اللفظ ؛ الفرق بين الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جداً أن نجد شاعراً مجيداً أو غير مجيد يبلغ مابلغه مطيع من صدق اللهجة وخفة الروح حتى ابو نواس وأنت تعلم رأيي فى أبي نواس . نعم ، مطيع ابن اياس أصدق لهجة من أبى نواس ومن الوليد وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد كثير الخصوم أيام خلافته فكان فى لهوه ومجونه فى هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم . فكان ذلك ربما دفعه الى شىء من الاسراف فى القول والامعان فى التحدى ونجاوز طبيعته أحيانا ليغيظ خصومه ومضطهديه ، وكان

أبو نواس شاعراً مجيداً مستأثراً فى عصره بالاجادة المضطردة وكان قد اتخذ المجون مذهباً وكان قد أعلن ذلك وأسرف فيه وكان له حساد وخصوم ومضطهدون فكان كالوليد يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم ويسرف فى القول اسرافا متعمداً يريد أن يغيظ الفقهاء والمتكلمين ويهزل ويسف فى اللفظ ، يريد أن يغيظ النحاة واللغويين ، لم يكن يخشى الا الخلفاء أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء الا الرشيد فكان يحتاط أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف فى القول ليتحدى خصومه السياسيين ، وبينما كان أبو نواس يسرف فى القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لايسرف في القول لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرضا لخطر . ستقول وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد وكيف برىء من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ملحاً فى الفسق متهما فى دينه يوصف بالزندقة ؟ فأقول بل كان مطيع شراً من هذا ايضاً فى النصف الثانى من حياته ، فقد كان بينه وبين الأمويين صلة : مدح الغمر بن يزيد بن عبدالملك ونادم الوليد بن يزيد ومدح أبوه والياً من ولاة بني أمية ومدح هو رجلا من ولد خالد القسرى وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بنى أمية ويكره أيام بني العباس فكان من المعقول جداً أن يراع من الوجهة السياسية كما كان من المعقول جداً أن يراع من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يرع الا مرة أو مرتين خرج منهما آمناً مسروراً موفور الحظ من العطاء ايضاً . تريد أن تفهم هذا وأنا ايضاً أريد أن أفهمه وأعتقد أن تعليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه فى الحياة والناس أحسن تصوير وأصدقه ، كان

مطيع يزدرى الناس وكان يزدرى الحياة وكان يسخر من هذه كما كان يسخر من هؤلاء وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة الى اللذة والى اللذة التى لا حد لها ، فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم وكان يتقلب مع الحياة فى صورها المختلفة ، كان أمويا أيام بني أميـة لم يكره حين مثل بين يدى الوليد فسأله عن شعر أعجب به لمنْ هو ، لم يكره أن يجيب « عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين » قالوا فاستدناه الوليد وقبل فاه وبين عينيه وهوى هو فقبل الارض بين يديه . وكان عباسيا حين ثبت الله الملك لبني العباس ولم يكن عباسيا معتدلا ولا هادئا بل قل لم يكن عباسـيا متطرفا لانه لم يكن مقتنعا بشيء وانما كان يريد أن يعيش ويلذ وكان يجـد الحياة واللذة عند بنى العباس ، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئاً الا هـذه الحياة وهذه اللذة ، فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس وهو لم يكن يتملقهم كما يفعـل الذليل الخانع وانما كان يتملقهم ساخرا منهم مزدريا لهم بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطرا . قالوا أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدى وكان ابنـه جعفر يعترض عليه فى ذلك فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا وتكلم الخطباء والشعراء كلهم يمدح المهدى ويبين فضله حتى اذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور فقال : يا أمير المؤمنين حـدثني فلان عن فلان عن النبي (صلعم) انه قال : المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غير يملؤها عدلا كما ملئت جورا .وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ثم أقبل على العباس فقال له أنشدك الله هل سمعت هذا فقال نعم مخافة من المنصور فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدى . أفترى اليـه أحس شهوة

المنصور فى أن يبايع لابنه المهدى وعزمه على ذلك فأراد أن يرضى المنصور وولى عهده فوضع هذا الحديث وضعا ولم يكتف بالكذب على النبي حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق فشهد خوفا من أخيه . ولا تقل انه فعل هذا ذلة أو إسرافا فى التملق ولكن قل إنه فعل هذا ترضيا للخليفة وولى العهد وازدراء لهما وسخرية من الدين . وقد عرف المهدي له هذه الصنيعة فانت تعلم أن المهدى كان شديدا على الزنادقة أسرف فى قتلهم والفتك بهم وتجاوز فى ذلك حدود العدل والرحمة ، وهو مع ذلك لم يرُع مطيعا. بلى! راعه مرة ولكنه أخرجه من عنده موفورا له الحظ من العطاء . قالوا كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور واشتهر ذلك واشتهر مجون جعفر وتهتكه ورفع أصحاب الخبر ذلك الى المنصور وكان المهدي عنده فقال لابيه أنا به عارف . ليس زنديقا ولكنه خبيث الدين فاسق ، فقال له المنصور احضره فانهه ، فاحضره المهدى ولامه وعنفه وأمر أن يضرب مئتى سوط ، قال مطيع ان اذنت لى احتججت فاذن له فقال أنا شاعر وانما ينفق شعرى عند الملوك وقد كسدت عندكم واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك وأصفيته على ذلك شعرى وشكري فان رأيت أن فى ذلك سوء اتبت عنه ، ومضى الحديث على نحو ذلك حتى رق المهدى فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يحبس ، قال فأنصرف بغير جائزة ؟ قال المهدى لا يجوز هذا وأمر له بمأتى دينار خفية عن أمير المؤمنين . قال الرواة وكان المهدى يحفظ له أنه وضع الحديث يوم اراد المنصور البيعة له ... اعتقد أنا ان هاتين القصتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويرا صحيحا فيخيل

الى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء وانتهى الى السخرية والازدراء للناس وللحياة واتخاذ الناس والحياة وسيلة الى الشيء الوحيد الذي يستحق أن يعيش الناس من أجله وهو اللذة ، ومن هنا تملق المنصور في سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضاً ، ومن هنا تلطف للمهدى حتى ابتز منه جائزة وخرج من عنده موفوراً . أضف الى هذا أن مطيعا اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه وكان محتميا به فلم يمسه أذى

كل هذا يبين لك ما زعمته آنفا من أن مطيعا لم يكن مضطهدا لا من الوجهة السياسية ولا من الوجهة الدينية ، وانما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه فى ذلك احتياطا يسيرا فيأمن كل شر . ولقد كثر تحدث الناس فى عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه وعن افسادهم أخلاق الناس وأديانهم واست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب الى الوليد ابن يزيد فقد بينت ان حياة الوليد كلها كانت تدعو الى الاحتياط فى تصديق ما كان ينسب اليه ، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء ولم يكونوا ولاة عهد ولم يكونوا محسودين الى حد عظيم ، واذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم أو لم يسرفوا فى هذا التكلف وما أشك فى أن حياة هؤلاء النفر الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال . ما أشك فى أن حياتهم كانت تدعو الى الريب والاتهام فكثيرا ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه وكثيرا ما كانت تجرى على ألسنتهم الفاظ ينكرها الدين وينكرها الخلق ولكنى مع ذلك أعتقد أن شيئا من الاحتياط واجب فى تصديق كل ما ينسب الى مطيع وأصحابه . فالناس مشغوفون بالاسراف أبدا

لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الالحاد حتى يتطوعوا هم باثبات زندقته وإلحاده يخترعون على ذلك الادلة وينتحلون الحجج ويروون الوقائع يزعمون أنهم رأوها وما رأوها وانما يخدعون الناس أو يخدعون أنفسهم . وهـذا الاسراف كثير فى شأن مطيع وأصحابه ولكني لا أنكر المثل القائل : لا دخان بلا نار ، فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو الى القال والقيل لما قال فيهم الناس شيئاً

قلت كان مطيع صادق اللهجة فى شعره لا يكذب ولا يتكلف وعلات صدق لهجته بانه كان حر الرأى وانه كان حر الرأى لانه كان يزدرى الناس والحياة ولست أريد أن أغفل شيئا رواه أبو الفرج وهو يمثل رأى مطيع فى الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدرائه للناس وسوء ظنه بهم . زعموا انه مر بصـديقيه يحيى بن زياد وحماد عجرد وهما يتحدثان فقال فيم أنتما قالا فى قذف المحصنات قال وهل فى الارض محصنة تقذفانها فانظر اليه كيف فاق صاحبيه بغياً وسوء ظن بالناس ، كان صاحباه يقذفان المحصنات ويعترفان بانهما يقذفان المحصنات أما هو فلا يرى أن فى الارض محصنة واذن فليس هناك قذف وانما كل قذف هو الحق أو دون الحق . واذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم الى هذا الحد فما الذى يمنعه أن يكون حرا فيما يعمل وما يقول ، لا يتقى الا شيئا واحـدا هو ما يعرضه للموت أو للحرمان واذا كان قد احتاط فارضى السلطان وأمن شره فليس عليه بأس فى شيء آخر . على أن ازدراء مطيع للناس لم يكن شاملا فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه وأخدانه ، ومن أشـد الاشياء تأثيرا فى

النفس هذه الصلة المتينة التى كانت بينه وبين صديقه يحيى بن زياد والتى حرص عليها حرصا شديدا يستثير فى النفس عاطفة مؤثرة حقا . قالوا: شرب مطيع مع صديقه يحيى فعربد عليه وكانت بينهما ملاحاة فآذى مطيع صاحبه فخلف لا يكلمه أبداً ولم يستطع مطيع أن يصبر على هذا الهجر فكتب الى صديقه هذه الابيات العذبة التى تفيض حنانا ورقة والتي لا تخلو من شرف اللفظ وجمال الاسلوب :

ان تصلني فمثلك اليوم يرجى — عفوه الذنب عن أخيه ووصله
ولئن كنت قد هممت بهجرى — للذى قد فعلت إنى لأهله
وأحق الرجال أن يغفر الذنـ — ـب لاخوانه الموفر عقله
الكريم الذى له الحسب الثا — بت فى قومه ومن طاب أصله
ولئن كنت لا تصاحب الا — صاحبا لا تزل ما عاش نعله
لم تجده وان جهدت وإنى — للذى لا يكاد يوجد مثله
انما صاحبي الذى يغفر الذنـ — ـب ويكفيه من أخيه أقله
الذى يحفظ القديم من العهـ — ـد وان زل صاحب قل عذله
ورعى ما مضى من العهد منه — حين يودى من الجهالة جهله
ليس من يظهر المودة إفكا — واذا قال خالف القول فعله
وصله للصديق يوم فان طا — ل فيومان ثم ينبت حبله

وكتب اليه :

كنت ويحيى كيدى واحد — نرمى جميعا ونرينا معا

ان عضني الدهر فقد عضه يوجعنا ما بعضنا أوجعا
أو نام نامت أعين أربع منا وان أسهر فلن يهجعا
يسرني الدهر اذا سره وان رماه فلنا فجّعا
حتى اذا ما الشيب فى مفرق لاح وفى عارضه أسرعا
سعى وشاة فمشوا بيننا وكاد حبل الود أن يقطعا
فلم ألم يحيي على فعله ولم أقل ملّ ولا ضيّعا
لكن أعداءً لنا لم يكن شيطانهم يروى بنا مطمعا
بينا كذا غاش على غرة فأوقد النيران مستجمعا
فلم يزل يوقدها دائبا حتى إذا ما اضطرمت اقلعا

وانظر الى هذا الشعر يرثى به يحيي هذا :

قد مضى يحيي وغودرت فردا نصب ما سر عيون الاعادى
وأرى عيني مذ غاب يحيي بدلت من نومها بالسهاد
وسدته الكف منى ترابا ولقد أرثى له من وساد
بين جيران أقاموا صموتا لا يحيرون جواب المنادى
أيها المزن الذى جاد حتى أعشبت منه متون البوادى
اسق قبرا فيه يحيي فانى لك بالشكر موافٍ مغاد

كان يحيي صديقا لمطيع فى الخير والشر ، صديقا حقاً ، وكان لمطيع صديق آخر ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة صداقة مزاح ولهو وسخرية ، ذلك هو حماد عجرد فسنري يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوبا ضيق الذرع وكان أصحابه يعرفون منه ذلك فلا

يرقون له ولا يرفقون به ، وكان حماد أصلع وكانت صلعته شديدة الحمرة فانتهز ذلك صديقه مطيع وأفسد بينه وبين صاحبة له تسمى خشة وتعرف بظبية الوادى فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه واتصل بينهما هجاء لذاع ولكنه لذيذ لم يمنع اتصال المودة بينهما . ولست أروي لك منه شيئاً وقد تستطيع أن تجده فى الاغانى

وأنا مضطر الى أن أعدل عن شعر مطيع كله لضيق المكان وطول هذا الفصل ولكنى لا أستطيع أن أغفل هذه الابيات المشهورة التي تمثل شعر مطيع ونفسه وعواطفه تمثيلا صادقا أحسه القدماء فرقوا له وكلفوا به . وقد قال هذه الابيات فى جارة له أحبها بالرى ثم اضطر ففارقها فلما كان فى طريقه مر بعقبة حلوان فجاس يستريح الى نخلتين هناك وذكر صاحبته فقال :

أسعدانى يا نخلتى حلوان ... وابكيالى من ريب هذا الزمان

واعلما ان ريبه لم يزل يفـ ... ـرق بين الألاّف والجيرانى

ولعمري لو ذقتما ألم الفر ... قة أبكاكما الذى أبكانى

أسعدانى وأيقنا أن نحسا ... سوف يلقاكما فتفترقان

كم رمتني صروف هذى الليالى ... بفراق الاحباب والخلان

غير أنى لم تلق نفسى كما لا ... قيت من فرقة ابنة الدهقان

جارة لى بالرى تذهب همى ... وتسلى ذنوبها أحزاني

فجعتنى الايام أغبط ما كنـ ... ـت بصدع للبين غير مدان

وبرغمى ان أصبحت لا تراها الـ ... ـعين منى وأصبحت لا ترانى

إن تكن ودعت فقد تركت بى　　لهبـاً فى الضمير ليس بوان

كحريق الضرام فى قصب الغا　　ب رمتـه ريحان تختلفان

وقد جعلت هذه الابيات لنخلتى حلوان تاريخا وذكري بين الأدباء والشعراء . قالوا أراد المنصور أن يقطعها فلما أنشد هـذا الشعر كره أن يكون النحس الذى يفرق بينهما . وأراد المهدى أن يقطعهما فنهاه المنصور عن ذلك . قالوا ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب الى طوس فهاج به الدم ووصف له الطبيب جمارا فلما سئل الدهقان أشار الى النخلتين ولم يكن فى حلوان غيرهما فقطعت احداهما ثم مر الرشيد بالاخرى فرأى عليها هـذه الابيات فندم وقال لو علمت أن هـذه الابيات قيلت فى هاتين النخلتين ما عرضت لهما ولو قتلني الدم

واذا صح ما تحدث به الرواة فقد كان موت مطيع شعرا لا يعـد له شعر . قالوا سأله الطبيب فى علته التي مات فيها ماذا تشتهى اليوم ؟ فأجاب أشتهى ألاّ أموت !! أترى جوابا أكثر شعرا وأغزر معنى وأشد تمثيلا لضعف الانسان وقوة رغبته فى الحياة من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكما جامعا مختصرا بعد هذا التفصيل لما تجاوزنا حكم أبى الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسـية وليس من فحول الشعراء ولـكنه كان ظريفا خليعا حلو العشرة مليح النادرة ماجنا متهما فى دينه بالزندقة » ولو شئنا أن نضيف الى هذا الحكم شيئاً لقلنا إنه كان صادقا في شعره آخذا بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها.

حماد عجرد (١)

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون » حماد عجرد وحماد الرواية وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الاشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة وكانوا كأنهم نفس واحدة يرمون بالزندقه جميعاً وأشهرهم بها حماد عجرد . « الاغانى جزء ٣ صفحة ٧٣ طبع بولاق »

وتجد مثل هذا الكلام كثيرا فى كتاب الاغاني ، تجده اذا عرض أبو الفرج لمطيع بن اياس ، وتجده اذا عرض لغير مطيع بن اياس ، وتجد مثل هذا الكلام كثيراً فى كتب أخرى غير الاغانى لكتاب ورواة آخرين غير أبي الفرج اذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين الذين عاشوا فى النصف الاول للقرن الثانى من الهجرة . ونجد فى الاغاني وغير الاغانى كلاما كثيراً عن شعراء عابثين فى المدن الثلاث التى كانت أمصارا متقدمة للعالم الاسلامى أيام بني العباس وهى الكوفة والبصرة وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الامصار الاسلامية : لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ولا عن مصر ، فان وجدت ذكر اللازندقة والزنادقة وللعبث والعابثين آخر أيام بني أميـة فانك واجد مع هذا ان هذه الزندقة وهذا العبث والمجون إنما حملت كلها من العراق إلى الشام بامر الوليد بن يزيد أو غير الوليد بن يزيد من مجانى بنى أمية ، الزندقة اذن عراقية لانها

---

(١) نشر بالسياسة فى ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣هـ — ١٦ ابريل سنة ١٩٢٤ م

فارسية ، نعم ، إنك تجد فى الاغانى وغير الاغانى أن الوليد بن يزيد عبث ومجن وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية وندامى من العابثين وأهل المجون فالتمسهم فى الشام فلم يجدهم ، وسأل عنهم فدله الناس على قوم فى العراق ، دلوه على هذين « الحمادين » ، حماد عجرد وحماد الراوية ، ودلوه على مطيع بن اياس وكانوا فى الكوفة فارسل يطلب إشخاصهم اليه فأشخصوا فاتخذهم ندامى له حتى قتل فعادوا إلى أوطانهم . وتجد فى كتب الادب كلها أو أكثرها ذكرا لطائفة من العابثين وأهل المجون المسرفين فيه ظهروا أيام بني أمية وايام كان بنو أمية حازمين منصرفين الى الجد ، ظهروا فى الحجاز، فى مكة وفى المدينة بنوع خاص ، ولكنك اذا بحثت عن مجون هؤلاء وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث ويتهمون به فى دينهم وسيرتهم انتهيت الى نتيجتين نجملهما الآن ونفصلهما يوم نعرض للعابثين من أهل الحجاز، الاولى أن مصدر هذا العبث عراقى دعا اليه الموالى الرقيق من الفرس وأهل العراق، الثانى أن لهذا العبث صبغة عربية تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد، لأن زعماء العابثين فى المدينتين المقدستين كانوا من اشراف العرب الذين اضطرتهم الحياة السياسية أيام بني أمية الى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ففرغوا لانفسهم وكان الله قد افاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح وكان الخلفاء من بنى أمية يعرفون لهم أقدارهم ويسكونهم فى هاتين المدينتين بعيدين عن السياسة لايقطعون عنهم الارزاق والجوائز وإنما يدرونها عليهم ادراراً فكانوا يلهون ويعبثون ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالى من الفرس وأهل العراق.

مهما تبحث اذن عن أصل العبث والمجون والزندقة فى الاسلام فلن تستطيع أن تعدو الفرس وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس وكانوا بهم أشد اتصالا ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم فى زندقة هؤلاء الزنادقة واباحة هؤلاء الشعراء، ولكن هذا التأثير عرضى لا جوهرى ان صح هذا التعبير ، فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية يزينون بها شعرهم وزندقتهم ولكنهم لم يتعمقوا قط فى الفلسفة اليونانية ولم تتأثر بها حياتهم وعواطفهم تأثراً قويا . على ان زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذي أزهرت فيه الفلسفة اليونانية فى بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ، فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زياد ولا أيام هؤلاء قبل عصر المأمون وقبل ان يصبح البدع فى بغداد ترجمة الكتب اليونانية ودرس الفلسفة اليونانية . ولو أنى أردت ان أشخص زندقة القرن الثانى للهجرة تشخيصا إن لم يكن علميا دقيقاً فهو يقربها من الاذهان تقريبا لا بأس به ، أقول لو أني أردت أن اشخص هذه الزندقة تشخيصا أدبيا لقلت إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هى ضرب من هذا السخط ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية، وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا يكرهون الاسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ويطمئنون اليه حقاً وإنما كانوا يكرهون الاسلام وكان كرههم للاسلام يضطرهم الى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية . فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة

إلى النعى على الاسلام والتخلص من قيوده وما أخذ الناس به من واجبات
لم يكونوا يؤثرون على الاسلام النصرانية ولا اليهودية لان الفرس لم يكونوا
نصارى ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الاسلام الديانة
الفارسية القديمة الخالصة من بدع المبتدعين وإنما كانوا يؤثرون من هذه
العقائد الفارسية ضروبا من البدع تدعو إلى الاباحة واللذة وترغب فيهما
وتعين عليهما ، كانوا اذن يطمحون قبل كل شيء الى أن يستمتعوا باللذات
فى غير حساب ولا تقتير . ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم الحياة لما انكروا
من الاسلام شيئاً ولا سيما هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة ولا
يكرهون سلطان الدولة العربية ولا يريدون أن يثأروا للفرس من العرب،
ولكن الاسلام كغيره من الديانات السماوية شديد فى باب اللذة حريص
على تطهير الاخلاق وأخذ الناس بالطهر والنقاء فى سيرتهم الخاصة والعامة،
وهذا يناقض الاباحة والاسراف فى اللذة ويأخذ عليهما الطريق فاذا استطاع
محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الاسلام فيستمتع بلذته فى
غير حرج ولا جناح فهو مضطر بحكم الطبيعة الانسانية إلى أن يدفع عن
مسلكه ويلتمس الحجج والادلة أو التعلات والمعاذير يحسن بها سيرته ،
وقد فعل ذلك هؤلاء العابثون فوجدوا ما كانوا يحتاجون اليه فى حياة الفرس
وما شاع فيهم من البدع واستحالوا إلى شيء آخر أكثر من نصر اللذة هو
التعصب على الاسلام وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من
القسط فى الاستمتاع باللذات ، ومن هنا هاجموا أصول الديانات وسخروا
منها ، ومن هنا آثروا النار التى يعبدها الفرس ويردون اليها كل شيء على

الطين الذى ترد اليه الديانات السامية أصل الانسان والحيوان . ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامى ، وهم فى حقيقة الامر لايحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث وإنما يحفلون باللذات فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضاً . ولهم من الحياة السياسية فى ذلك العصر معين على هـذا الاسراف فى الالحاد والعبث فهو عصر انتصار الفرس على العرب وهـو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ويعتزون بالفرس ويتملقونهم ويؤثرونهم بالحظوة ويكلون اليهم أمور الدولة كلها ، فما الذى يمنع الفارسية وأنصارها الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والاسراف فى المجون أن تنتصر وتسود وتظهر جهرة غير مستخفية ولا محتاطة . من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الادبية التى ظهرت فى القرن الثانى للهجرة واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والادباء جميعاً . كانت أيام بني أمية ضعيفة مترددة متسترة لا يكاد الناس يظهرون الميل اليها فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية على أن يجهر بالفجور قويت واستطاعت ان تظهر ثم انتصر الفرس فانتصرت معهم وظهرت واضحة قوية حتى عرضت الحياة الدينية والسياسية للخطر فاضطر الخلفاء من بنى العباس الى أن يقاوموها مقاومة عنيفة لم تخل فى بعض الاحيان من ظلم واسراف .

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة أو هؤلاء الذين كانوا يتهمون فى دينهم ، وكانت لهؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم فى الكوفة والبصرة ثم فى بغداد ، ولم تكن هذه الاندية مستقرة ولا معروفة وإنما كانت متنقلة مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون فى دورهم وهم كانوا يجتمعون فى الاديرة وهم

كانوا يجتمعون فى البساتين والحانات . وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشراب والغناء والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون فى ذلك اسرافا لا يعدله اسراف ويسخرون أثناء هذا الاسراف من اصول الديانات والاخلاق والنظم الاجتماعية التى تحظر عليهم ذلك وتعرضهم من أجله لألوان العذاب، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة أو فن من فنون الديانات الغريبة أو لون من ألوان الدرس الفلسفى غير المألوف؛ ذلك شىء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والادباء بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشىء من هذا لانى قد قلت لك إنها لم تكن مخلصة فى الايمان بمذهب من المذاهب ولا فى إيثار دين على دين وانما كانت تتخذ المانوية شعارا. ولو أنها انصفت نفسها وآثرت الصدق لاتخذت شعارها الشك والسخرية ، وليس من شك فى أنهم كانوا يذكرون المانوية ويؤثرونها على الاسلام ولكن تفكهة وانتقاما من هذا الدين الذي يسلط عليهم الشرط وغضب الامراء.

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم وان كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً. فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالا قويا اذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس ادل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين فى زندقتهم ، فلو ان هناك صلة دينية متينة تجمع بينهم حقا وتكون منهم أقلية ممتازة متضامنة لما اساء بعضهم الى بعض ولما سعى بعضهم فى بعض ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان.

ولكنهم كانوا يسرفون فى الاساءة الى أنفسهم والى أصحابهم. ويكفى أن تقرأ ما كان بين بشار وحماد من الخصومة واتصال الهجاء لتعلم مقدار هذا الاستعداء ومقدار ما كان يضمر الزناقة بعضهم لبعض من الموجدة والحفيظة ومن الحقد والضغينة التي كانت تحمل أحدهم على أن يغرى بصاحبه اغراء منكراً. وانظر الى قول حماد يغرى الامير بخصمه بشار، فهو يمثل فى وقت واحد اجادة حماد فى الشعر وميله الى الشر وإيثار الانتقام على كل شيء:

قل لعيسى الامير عيسى بن عمرو ذى المساعى العظام فى قحطان
والبناء العالى الذى طال حتى قصرت دونه يدا كل بانى
يا ابن عمرو عمرو المكارم والتقـ ـوى وعمرو الندى وعمرو الطعان
لك جار بالمصر لم يجعل الله له منك حرمة الجيران
لا يصلى ولا يصوم ولا يقـ ـرأ حرفا من محكم القرآن
انما معدن الزناة من السفـ ـلة فى بيته ومأوى الزواني
وهو خدن الصبيان وهو ابن سبعـ ـين فماذا يهوى من الصبيان؟
طهر المصر منه يا أيها المو لى المسمى بالعدل والاحسان
وتقرب بذاك فيه الى الله تفز منه فوز أهل الجنان
يا ابن برد اخسأ اليك فمثل الـ ـكلب فى الناس أنت لا الانسان
ولعمري لأنت شر من الكلا ب وأولى منه بكل هوان

ولم يكن بشار أقل منه ميلا الى الشر ولا رغبة فى الاساءة الى خصمه وفى اتخاذ الزندقة وسيلة الى هذه الاساءة، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه طريقة الاستعداء هذه ولعلهما لم يسرقاها وانما وجداها طريقة مألوفة بين

الناس فى ذلك العصر ، فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الاشاعة المنكرة التي أساءت اليه غير قليل وهى أنه كان ذات يوم ينشد شعراً والى جانبه قارىء يتلو القرآن والناس مجتمعون من حوله فلما رأى حماد اجتماع الناس حول القارىء قال : علام يجتمعون؟ إن الذى أنشده لخير مما يتلو !

وهجا بشار حماداً بابيات يثبت فيها عليه الزندقة فقال :

ابن نهيي رأس عليّ ثقيل ... واحتمال الرؤس خطب جليل
ادع غير الى عبادة الاثنيـ ... ـن فاني بواحد مشغول
يابن نهيى برئت منك الى الا ... ه جهاراً وذاك مني قليل

قال ابو الفرج فاشاع حماد هذه الابيات لبشار وجعل فيها مكان (فاني بواحد مشغول) (فانى عن واحد مشغول) ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى فما زالت الابيات تدور فى ايدى الناس حتى انتهت الى بشار فاضطرب منها وجزع وهذا الخبر يمثل مكر حماد واحتراس بشار ، فقد كان حماد ماكرا شديد المكر ماهرا فى الخصومة يعرف كيف ينال من خصمه وكيف ينتصر عليه وكان بشار محترسا شديد الاحتراس يكره ان يوصف بالزندقة ويشفق من ذلك اشفاقا شديدا،وكان يرسل فضل زندقته الى غيره فيتهم الناس بما فيه ولهذا اكثر الاكثار كله حين هجا حمادا فى وصفه بالزندقة والكفر وما كان حماد اكثر منه زندقة ولا كفرا ، وانما كان الفرق بين الرجلين أن حمادا كان مستهتراً يجهر بمجونه ولا يخفى عبثه وأن بشارا كان محتاطا متحفظا يتكلف الدين والورع كلما احتاج الى ذلك ولم يخف أمر بشار على أحد بل لقى من احتياطه وتحفظه مالم يلق حماد من

جهره واستهتاره فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدي والرواة يختلفون كما ستري فى موت حماد ولـكنهم متفقون على انه قضى حياته موقرا لم يجر عليه عبثه ومجونه أذى ولا شرا . وفى كتاب الاغانى خبر يثبت ذلك اثباتا لاشك فيه وهو ان العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس فى هجاء حماد عجرد لبشار شيء جيد الا اربعين بيتاً معدودة ولبشار فيه من الهجاء أكثر من الف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه وكانا يجتمعان عليها فسقط عجرد وتهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه وبقى بشار على حاله لم يسقط وعرف مذهبه فى الزندقة فقتل فيه . ولعل فى هذا الخبر شيئا من المبالغة ، فهناك خبر آخر يدل على ان بشارا لم ينتصر على حماد فى الهجاء وانما الذي انتصر هو حماد وان لم يكن له من جيد الهجاء فى بشار الا أربعون بيتا ، فلسنا نرى فى سيرة حماد أنه قد سقط أو ازدراه الناس وانما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات . ونحن نذكر السلطان عمدا فقد كان لحماد شيء من السلطان الادبي غير قليل ، كان يخيف الشعراء وكان يخيف الامراء وكان يخيف كبار الناس ، كان يخيفهم لانه كان ماهرا في الهجاء سريعا اليه حديد اللسان فيه ، وكان كما قلت لك فى حديث الاربعاء الماضى سيء الخلق سريع الغضب مندفعا الى الانتقام ، وكان مع ذلك ماكرا لطيف المكر ، فكان الامراء ووجوه الناس يحتاطون فى معاملته ويتلطفون له ويبتغون ما يرضيه ويتجنبون مايسوءه وربما اضطر أحدهم الى شيء فاشفق أن يكره حماد فاعتذر اليه وبالغ فى الاعتذار وكان حماد يقبل العذر حينا ويرده حينا آخر وكان هو الفائز

فى كلتا الحالتين فان قبل العذر كوفىء لقبوله وان رده بولغ فى ترضيه ، ولقد خاف بعض الناس حمادا حتى اضطره ذلك الى أن يقطع الصلاة ، ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من اشراف البصرة فى نفر من وجوه الناس وجاء الغداء فقيل إن سهم بن عبد الحميد (أحد الحاضرين) يصلى الضحى فانتظروا وأطال صاحبنا الصلاة فقال حماد :

الا أيهذا القانت المتجهد   صلاتك للرحمن أم لى تسجد
أما والذي نادى من الطور عبده   لمن غير ما بر تقوم وتقعد
فهلا اتقيت الله اذ كنت واليا   بصنعاء تبرى من وليت وتجرد
ويشهد لى انى بذلك صادق   حريث ويحى لى بذلك يشهد
وعند أبي صفوان فيك شهادة   وبكر وبكر مسلم متجهد
فان قات زدنى فى الشهود فانه   سيشهد لى ايضا بذاك محمد

فلما سمعها سهم قطع الصلاة وجاء مبادرا فقال له قبحك الله يازنديق فعلت بي هذا كله لشرهك فى تقديم أكل وتأخيره هاتوا طعامكم فاطمعوه لا أطعمه الله . قالوا نزل حماد على محمد بن طلحة فابطأ عليه بالطعام فاشتد جوعه فقال فيه حماد :

زرت امرأً فى بيته مرة   له حياء وله خير
يكره أن يتخم أضيافه   ان أذى التخمة محذور
ويشتهى أن يؤجروا عنده   بالصوم والصالح مأجور

فلما سمعها محمد قال له عليك لعنة الله . أى شىء حملك على هجائى وانما نتظرت أن يفرغ لك من الطعام . قال الجوع وحياتك حملنى عليه وان

زدت فى الابطاء زدت فى القول فمضى مبادرا حتى جاء بالمائدة . كان حماد اذن مخوفا حياته كلها لم يسقطه هجاء بشار ولا تشهيره به بل انتصر هو على بشار كما قدمنا ، فاذا اردنا ان نعلل هذا الانتصار الذى ظفر به حماد مع ان خصمه اجود منه شعرا وانفذ منه لسانا فعلة ذلك شيئان ، الاول ان حمادا كان صادقا يلائم بين قوله وعمله فلم يكن يتكلف دينا ولا ورعا ولم يكن يتستر من عبث او مجون فكان بشار اذا هجاه وصفه بما لا ينكر اما بشار فقد كان متكلفا محتاطا فكان حماد اذا هجاه أحيا فى الناس حب الاستطلاع ودلهم من امره على ما يجهلون . الثانى ان حمادا لم يكن يعني فى هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيراً وانما كان يسلك فى هجائه طريق الشعراء الاولين فيهجو أمه وأباه وامرأته ويصف شخص بشار بما لم يكن بشار يستطيع ان يصف به شخص حماد ، قال الرواة ان بشارا بكى حين سمع قول حماد فيه :

وأعمى يشبه القرد   اذا ما عمى القرد

فلما سئل عن بكائه قال : يراني فيصفني ولا أراه فاصفه ! وكان هذان الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما يروى لكل منهما ما قال صاحبه فيه ويحمل اليه الجواب ، ولم تكن الصحف يومئذ معروفة فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر لا بأس بها . واذا سألت عن اصل هذا الهجاء الذى اتصل بين الرجلين أعواما طوالا فمصدره يسير ، وهو أن بشارا كانت له حاجة عند حماد فابطأ فيها فغضب بشار وعاتب صاحبه عتابا لاذعا فغضب حماد وهجا بشارا واتصل

الشر بين الرجلين فكان حديث أهل البصرة بل كان حديث أهل العراق ايام حياتهما وبعد انماتا ، وذلك يدلك على ما قلته من أن حمادا كان سريع الغضب مندفعا الى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه احيانا عن الاندفاع فى الشر فقد داعب مطيعا ذات يوم فرد عليه مطيع بشعر منكر كان من شأنه أن يغرى به حمادا ولكن حمادا ملك نفسه وغفرها لمطيع ولم يرد عليه هجاءه وانما مدحه بشعر لا بأس به ،على أن حلم حماد كان محدودا فهو كان يحلم اذا لم ينله أذى فى الحب أو الهوى فاذا ناله هذا الاذى فلم يكن للحلم اليه سبيل ، وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع كما اتصل بينه وبين بشار لامرين كلاهما حب ، الاول أن مطيعاً زار معه صاحبته خشة فازداره عندها وعيره صلعته وكانت شديدة الحمرة ، فساءت الصلة بينه وبين صاحبته فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة فاذكوا النار ليضحكوا من حماد . الثانى أن حمادا كان يهوي غلاما فهويه مطيع وتقرب اليه فاغتاظ لذلك حماد وتهاجيا ، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الظروف وانما تجاوز هؤلاء جميعا الى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبى عون كان صديقا لحماد ولمطيع وكانت له جارية تسمى جوهر كان حماد يحبها ويجن بها وكان يلقاها من حين الى حين فتسامع الناس بذلك وتحدثوا فيه وكره سيدها هذا الحديث فحجبها عن حماد فانكر حماد ذلك وهجا الرجل فاسرف فى هجائه واقذع

ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئا فليس الى روايته سبيل . .

وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم بل بالنساك وأهل الزهد اذا عرضوا له وانتقصوه ، ويختلف الرواة فى قصة له أوقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيى بن زياد ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقا لحماد ثم نسك وأخذ يتنقص حمادا وأخذ حماد يلاطفه ويرفق به لعله يقلع عن انتقاصه فلم يقبل فكتب اليه :

هل تذكرن دلجى اليـ … لك على المضمرة القلاص
أيام تعطيـنى وتأ … خذ من أباريق الرصاص
ان كان نسكك لا يتم … بغير شتمى وانتقاصى
أو كنت لست بغير ذا … لك تنال منزلة الخلاص
فعليك فاشتم آمنا … كل الامان من انقصاص
واقعد وقم بى ما بدا … لك فى الادانى والاقاصى
فلطالما زكيتنى … وأنا المقيم على المعاصى
أيام أنت اذا ذكر … ت مناضل عنى مناص
وأنا وأنت على ارتكا … ب الموبقات من الحراص

ويقول الذين يضيفون هذه القصة الى يحيى بن زياد ان هـذا الشعر اتصل به فلم يزده الا طعنا فى حماد ونعيا عليه فقال حماد فيه :

لا مؤمن يعرف ايمانه … وليس يحيى بالفتى الكافر
منافق ظاهره ناسك … مخالف الباطن للظاهر

أما الذين يضيفون القصـة الى أبي حنيفة فيقولون إنه لما قرأ تلك

الابيات خاف من حماد فاقلع عن شتمه .

ولو أنى أحببت أن أشخص حمادا كما شخصت مطيعا والوليد بن يزيد لوصفته قبل كل شيء بحدة الطبع وسوء الخلق وحب الانتقام والاسراع اليه ، ثم بالصراحة فى القول والملاءمة بينه وبين العمل وبكره النفاق والانصراف عنه ، لا يعنيه أرضى الناس عنه أم سخطوا عليه ، ثم بحدة اللسان ومضيه واقذاعه وكلفه بفاحش القول وبحثه عن اسوئه وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس وازدرائهم لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبى نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يتخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب وأخذت عليه الطرق أو دعته الى ذلك حاجة ، لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء والانصراف عن التناقض وانما كان صديقا مخلصا حتى تبدو له حاجة أو تسنح له فرصة أو تضطره ضرورة ، فاذا صداقته قد استحالت الى عداء واذا هو ليس أقل صدقا واخلاصا فى العداء منه فى المودة والحب ، فقد مدح يحيى بن زياد واتخذه صديقا ونال جوائزه ثم كان الخلاف فهجاه ، وصادق بشارا وصافاه ثم اختصما فلم يعرفا فى الخصومة رحمة ولا رفقا ، وصافى مطيعا وأحبه ومدحه وأكثر فى الثناء عليه ثم اختصما فى امرأة مرة وفي غلام مرة أخري فهجاه وأقذع فى هجائه ، وكان على هذا كله يؤثر بشعره وضروراته على البر بالناس والعدل فى معاملتهم ، هجا ذات يوم رجلا يقال له حشيش وجعل اسمه قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ فى ذمه فشبهه بيحيش وكان بحيش هذا رجلا من أهل البصرة وادعا لا يعرف حماداً ولا

يعرفه حماد فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حمادا فقال له ضاحكا معتذرا : لا بأس عليك فان هذا من آثام القافية وان أعود اليه

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة ونيله من أعراض الناس ووجوه الامصار أن يأمن على حياته غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب على ذلك يسير وهو أن حمادا كان متصلا أيام العباسيين بأمير من أمرائهم هو محمد بن أبي العباس السفاح ، قالوا انه أدبه ونادمه فأمن لاتصاله به كل غائلة ، على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه خطوبا جساما فقد كان محمد هذا خليعا كما كان جعفر بن المنصور حامى مطيع خليعا أيضاً وكان المنصور يكره محمدا ويؤثر عليه المهدى بالخلافة كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفرا ويريد اقصاءه عن الخلافة وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن على من أشراف العلويين فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه فلم تقبل خطبته فزاده الرفض حبا لها وهياما بها ولم يكن شاعراً أولم يكن يجيد الشعر فالجأ الى مؤدبه ونديمه حماد وجعل حماد يتغزل له فى صاحبته وجعل حكم الوادى يغنيه بغزل حماد وانتشر هذا الشعر ونسبه الناس الى محمد حينا والى حماد حينا آخر ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جلية الأمر فغضب على حماد وتوعده وحلف ليقتلنه وظل حماد آمنا ما عاش محمد بن أبي العباس ولكن محمداً مات فاضطرب حماد وأشفق من وعيد خصمه ويقولون انه لجأ الى قبر سليمان أبى خصمه هذا واستجار به وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان فلم

يعطف عليه ولم يرث له وانما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة فهرب حماد حتى وصل بغداد فاستجار بجعفر بن المنصور فاجاره على أن يهجو محمد ابن سليمان فهجاه وبالغ فى هجائه وأجاد ، فلم يزدد محمد الا سخطا عليه ، قالوا وكان حماد فى الاهواز فارسل اليه محمد أحد مواليه فقتله غيلة ويقال لم يقتل وانما أصابته علة طالت عليه ووصل نعيه الى بشار ولم يكن حماد قد مات فقال بشار :

لو عاش حماد لهونا به　　لكنه صار الى النار

قالوا فبلغ هذا البيت حمادا وهو عليل فقال :

نبئت بشارا نعى لي ولله　　شر برانى الخالق البارى

ياليتنى مت ولم أهجه　　نعم ولو صرت الى النار

وأي خزى هو أخزى من ان　　يقال لى ياساب بشار

ثم مات حماد وكان من أمر بشار ما كان حتى قتله المهدى فدفن بشار مع حماد فى مكان واحد . قالوا فمر بهما شاعر من شعراء البصرة كان يهاجى بشارا يقال له أبو هشام الباهلى فوقف على قبريهما وقال هذه الابيات التى تختصر فيهما رأى طائفة من المعاصرين :

قد تبع الاعمى قفا عجرد　　فاصبحا جارين فى دار

قالت بقاع الارض لامرحبا　　بقرب حماد وبشار

تجاورا بعد تجافيهما　　ما ابغض الجار الى الجار

صارا جميعا فى يدى مالك　　فى النار والكافر فى النار

*

حسين بن الضحاك الخليع[1]

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظرف ، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه واسرافه في المجون قليل الفحش في اللفظ غير متهالك على القول الآثم والالفاظ المنكرة ، لا يتخيرها ولا يقصد اليها ، وانما يعرض اليها اذا اضطر اليها اضطراراً ، وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجود اذا فكر مظفر اذا بحث موفق الى اللفظ المتين والاسلوب الرصين في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وانما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلة غنية غزيرة المادة لا تكاد تنضب ولا ينالها اعياء أو كلال . وحياته كلها عبر وعظات ، ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تردك وتنفرك وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا . ولعلك لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله تقرأ أخباره فتظل مبتسما منذ تبتدىء الى أن تنتهي دون أن تعبس أو تقطب ، وربما تجاوزت الابتسام الى الاغراق في الضحك من حين الى حين . ولكنك لن تترك الابتسام الى الحزن الشديد . وربما اعترضتك في طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان هذا

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٤ م

الشاعر من المعمرين بلغ المئة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء والوانا من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظا بشخصيته الوادعة المبتسمة ، تغير الناس واختلفت الظروف وظل هو واحداً لم يتغير . كان خليعا بل كان يعرف بالخليع ، وكان كثير المجون مسرفا فيه وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذة أو تفوق عليه فى مأثم ولكنه على خلاعته واسرافه فى المجون وتهالكه على اللذات احتفظ طول حياته بشىء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الاصل كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه تزلقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا ، وانما كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة وأيامه المملوءة بالعبث . هذه الاشعار الجميلة الحلوة التى سأظهرك على طرف منها .

قلت إن حياته كانت عبرة كلها ، فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين انما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكد وبعد التلطف وحسن الحيلة وانما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل فى حياتهم الخاصة وربما تدخل الى أكثر مما ينبغى ، وكان الخلفاء يبحثون عنه ويحرصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الالحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبي نواس فى البصرة واختلفا معا الى مجالسها وملاهيها ثم افترقا فذهب أبو نواس الى بغداد وأقام هو فى البصرة ، ولم تكد تمضى مدة قصيرة على أبى نواس فى بغداد حتى بعد صوته وتسامع به أهل العراق لأنه

اتصل بالأمراء وأشراف الناس فارتفع قدره وعلت مكانته وحمل الهواء ذلك الى الحسين فى البصرة فغبط صاحبه وقفا أثره وانتقل الى بغداد فمدح الناس وتقرب من أشرافهم واختلف الى مجالس بغداد وملا هيها وقال الشعر فى الخمر وفى ضروب اللذات ، وما هى الا أن عظم أمره وتسامع به أهل بغداد وزعماؤها ولكنه مع ذلك لم يصل الى الرشيد وانما اتصل بابناء الرشيد ، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد الا قليلا ؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد الا كما كان يتصل به الشعراء الذين كانوا يقصدون الى ذلك ويحتالون فيه حتى اذا نالتهم هذه الحظوة أنشدوا الخليفة شعرهم وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيح لهم ، ذلك أن أبا نواس والحسين بن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصاحبون لمصاحبة الرشيد ، فقد كان فى الرشيد شىء من العبث وحب اللهو ، ولكن عبث الرشيد ولهوه لم يكونا قوام حياته وانما كانا ضربا من الترفيه على النفس ، ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصاحبون لغير اللهو ، فلم تنفق بضاعتهما عند الرشيد وانما نفقت عند الامراء من أبنائه وعند الوزراء وأشباه الوزراء من رؤساء الدولة وأشرافها . فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه واتصل شيئا بالامين حين كان وليا للعهد ، واتصل بطائفة من أمراء البيت المالك . وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد ، لم يكن لهما حظ من الملك ولا طمع فيه وانما كانت حياتهما ضربا من البطالة الاضطرارية ، وكأن الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ما جعل حياتهما عيداً متصلا وهما صالح بن الرشيد وأبو عيسى بن الرشيد . وكان الحسين متصلا اتصالا خاصا

بصالح ينادمه ويساقيه ويكاد يغني معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالامين واشتدت صلته به حتى تجاوزت علاقته مابين الشعراء والخلفاء الى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية ، ولسنا ندرى الى أى حد بلغ اخلاص الامين لنديمه ، ولكننا نعلم أن اخلاص الحسين للامين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الامين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المتهالك على اللذة رجلا وفيا متين الخلق صريحا يعرف كيف يكون من الانصار السياسيين وكيف يتعصب لحزبه ويؤيد أصحابه ويتعرض فى سبيل ذلك للخطر ، كان الحسين من أشد الناس تعصبا للامين وزراية على المأمون حين ظهر الخلاف بين الاخوين واندفع فى ذلك الى غير حد ، ثم اشتدت المحنة ووصلت جيوش المأمون الى بغداد وأخذت الحرب أشنع أشكالها فلم يخف الحسين ولم يفزع ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه فى أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتاقط أخبار هذه الحرب حتى اذا وصل اليه من أخبارها خبر ابتهج به وأسرع فحمله الى الامين مهنئا مشجعا ، روى لنا أبو الفرج من شعره فى ذلك هذه الأبيات :

أمين الله ثق بالله ... تعط العز والنصرة
كل الأمر الى الله ... كلاك الله ذو القدرة
لنا النصر باذن الله ... والكرة والفرة
وللمراق أعداثك ... يوم السوء والدبرة
وكأس تورد المو ... ت كريه طعمها مرة
سقونا وسقيناهم ... فكانت بهم الحرة

كذاك الحرب أحيانا علينا ولنا مرة

ثم قتل الأمين وكانت الكارثة فلم يهن الحسين ولم يضعف ، لم ينقلب على عقبيه ؛ ولم يتملق المنتصر وانما ملكه حزن ليس بعده حزن وانطلق لسانه من الرثاء بالجيد المؤلم الذى تتقطع له القلوب وتتفطر له الاكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه واستعداء الله عليهم بعد أن عجز عن استعداء الناس ، ولج فى ذلك وألح فيه حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق ، فلم يزدد الحسين الا هجاء للمأمون ورثاء للامين حتى رق له أصحابه وأشفقوا عليه وألحوا فى نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدث عن نفسه بهذا القول : « كنت عازما على أن أرثى الأمين بلسانى كله وأشفى لوعتى فلقينى أبو العتاهية فقال لى ياحسين أنا اليك مائل ولك محب وقد علمت مكانك من الامين وانه لحقيق بأن ترثيه الا أنك قد اطلقت لسانك من التلهف عليه والتوجع له بما صار هجاء لغيره وثلبا له ، وتحريضا عليه وهذا المأمون منصب إلى العراق قد أقبل عليك فأبق على نفسك . يا ويحك أتجسر على أن تقول

تركوا حريم أبيهم نفلا والمحصنات صوارخ هتف

هيهات بعدك ان يدوم لهم عز وان يبقى لهم شرف

أكفف غرب لسانك واطو ما انتشر عنك ، وتلاف ما فرط منك فعلمت انه قد نصحنى فجزيته الخير وقطعت القول فنجوت برأيه وما كدت أنجو »

وما أشك فى أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من

المأمون شر كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حبا للأمين من الحسين ، ولم يكن أبو نواس أشد بغضا للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الابيات القليلة التى قالها أبو نواس يرثى بها الامين فمثلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طوى الموت ما بيني وبين محمد   وليس لما تطوى المنية ناشر
وكنت عليه أحذر الموت بعده   فلم يبق لى شىء عليه أحاذر
فلا وصل الا عبرة تستديمها   أحاديث نفس مالها الدهر آخر
لئن عمرت دور بمن لا أحبهم   لقد عمرت ممن أحب المقابر

فانظر بعد هذا الى رثاء الحسين للامين ورأيه فى الدولتين ، وحدثنى أتجد أبلغ من هذا الشعر فى وصف الهزيمة السياسية ، وحدثنى أيستطيع منهزم فى السياسة معترف بهزيمته أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :

سألونا أن كيف نحن فقلنا   من هوى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أصابنا حدث الده   ر فظلنا لريبة نستكين
نتمني من الامين ايابا   لهف نفسى وأين منا الامين

وانظر الى هذه الابيات التى تذكر بما رويت لك من شعر أبى نواس ، ولم لا يقصد الشاعران الى معنى واحد وكلاهما كان محبا للامين مؤثرا له ، وكلاهما كان عدوا للمأمون مسرفا في بغضه :

أعزي يا محمد عنك نفسى   معاذ الله والايدى الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا   ودافع عنك لى يوم الحمام
كأن الموت صادف منك غنما   أو استشفى بقربك من سقام

واقرأ هذين البيتين :

هلا بقيت لسد فاقتنا أبدا وكان لغيرك التلف

فلقد خلفت خلائفا سلفوا ولسوف يعوز بعدك الخلف

ويظهر أن هذين البيتين تركا فى نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ، فقد تحدث ثمامة ابن الاشرس ان المأمون لما وصل بغداد طلب أن يسمى له نفر من أهل الشعر والادب يتخذهم له جلساء . فسمى له قوم منهم الحسين فذكر هذين البيتين وأقسم لا يراه الا فى الطريق . قال ثمامة وانحدر الحسين الى البصرة فأقام فيها طوال أيام المأمون

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه وأشفق من ذلك فتوسل الى المأمون بوسائل مختلفة ووسط اليه نفرا من أشراف القوم . منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه ، أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين ، فلم يبلغ من المأمون الا أن وصل له أرزاقه ولكنه أبى الاباء كله أن يأذن له فى الاختلاف الى القصر . وسواء أصحت هذه الاخبار كلها أم لم تصح فان فى حياة الحسين أيام المأمون رغم ما قيل فيه وفى أخيه آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والاغضاء عن خصومه السياسيين . ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعود أيام كان ينادم الامين ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد واغلقت دونه أبواب الامراء وزعماء الناس ، واضطر الى أن يعيش فى البصرة من صلب ماله ، وأشفق عليه بعض أصحابه وحدثوه فى ذلك وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الارزاق وكثرة النفقة ، فقص

عليهم قصصا لذيذا يظهرنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة فى الحياة ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج الى المسألة ، وهو انما ينفق ويعيش من صلات الامين وجارية له لم يسمها ، وذلك أن الامين دعاه ذات يوم فزعم له أنه صديقه وعشيره وان عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محدثه بشئ يجب أن يخفيه وكانت للامين جارية فتنته لجمالها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنية كثيرة الدل مسرفة فيه ، فكانت تنغص على الامين صفوه فضاق الامين بذلك منها وأراد أن يلقى عليها درسا وكلف الحسين أن يلقى هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى لا تبلغها جمالا ولا اجادة فى الغناء وسيأمرهما أن تغنيا وطلب الى الحسين أن يفتر ويتثاقل اذا غنت الجميلة المحسنة وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه اذا غنت الاخرى وأعفاه من كل حرج ووعده مائة ثوب لكل ثوب يشقه فوعد الحسين بالطاعة وخلا الى الامين وجاءت الجاريتان فغنت المحسنة وكان الحسين فنيا وكان رجلا صادقا ولا سيما اذا شرب . فلم يستطع أن يفى بالوعد وانما أخذ يظهر الرضا والاعجاب وكلما أومأ اليه الامين لم يزدد الا رضا واعجابا ، ثم غنت الاخرى فأخذ يتكلف السرور والطرب واستأنفت المحسنة غناءها واستأنف الحسين شرابه فاذا لبه قد طار واذا هو يصيح واذا الامين يشير ويقطب ويظهر العبوس ولكن الحسين عنه فى شغل بطربه ولذته حتى ضاق الامين وأمر بالحسين فجر برجله ثم أمر فحجب عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ويرثون له ويسألونه عن

سبب هذه النكبة فيقول : تحامل على النبيذ فاسأت الادب فقومني أمير المؤمنين : ومضى دون ذلك شهر ثم دعى الحسين الى القصر ، واذا الامين يتلقاه لقاء حسنا ويخلو اليه فى تلك الحجرة ويدعو المغنية وينبيء الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح وانها قد انتهت الى ما يحب وانها قد شفعت للحسين عنده فقبل شفاعتها ومنح الحسين عشرة آلاف دينار ومنحته هى دون هذا المقدار ثم اتصلت صلات هذه الجارية للحسين فما كان يمضى أسبوع حتى تنتهى اليه هداياها والطافها ، وهو يعيش من ذلك أيام سخط المأمون عليه

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضى حتي ابتسم الدهر للحسين فعاد الى بغداد واتصل بالمعتصم والواثق والمتوكل وكانت له عندهم جميعا حظوة لا تعدلها حظوة ، وكان مقدما عندهم جميعا على غيره من الشعراء ولا سيما الواثق ، فقد كان يحبه حبا شديداً ويطمئن الى منادمته ويتخذه موضعا لسره فى حياته الخاصة وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المجون والمزاح والوان الهجر والصدود ، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعا أخبار حلوة تبسط فى روايتها أبو الفرج . فانت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالامراء من أبناء الرشيد ثم اتصل بالامين والمعتصم والواثق والمتوكل من الخلفاء وأنت تعلم أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوراً غير قليل ، بل ان مستقر الحكم نفسه قد تغير وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالامين والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور فكان فى القرن الثالث غيره فى القرن الثاني من وجوه مختلفة ، ولكن

شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد دون أن يغير من شخصيته شيئا وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصية قوية كشخصيته ؟

وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن نجتهد فى وصفها وأن نعطيك منها صورة ما لتعرف مكانه من الشعراء الذين عاصروه ، وقد سبقنا القدماء الى هذا فتصوروا هذا الشاعر تصوراً مقاربا ولكن ينقصه شيء من الدقة ، شبهوه بابى نواس ، أو قل خالطوا بينه وبين أبي نواس ، وأسرفوا فى هذا الخلط أحيانا حتى رووا لكل منهما شعر صاحبه ، وفى الحق انك تجد فى ديوان أبى نواس شعراً هو أشبه بالحسين ، وتجد فى أخبار الحسين شعرا هو أشبه بابى نواس ، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون الى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتد بينهما التشابه حتى اصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة فى النقد وتعمقا فى البحث الادبى . وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس ، وكان ابو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما مودة ولكن كان بينهما تنافس شديد ، تنافس شديد ادبى لم ينته بهما الى شر فيما نعلم ، وانما انتهى بهما الى الخصام والى التنابذ أحيانا دون أن يتصل بينهما الهجاء ودون أن يوقع احدهما بصاحبه ، وكان الحسين لا يخلو من حمق وسرعة الى الغضب وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفا وانما كان يلهو ويعبث فى غير فلسفة ومذهب أما ابو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وان فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس والسخر منهم والعبث بهم وبما يتصل

بحياتهم من أصول وعقائد ومن نظم وقواعد ، فكان يعبث بالحسين صديقه ويسخر منه ويغيظه لا يخفى ذلك ولا يتكلفه وانما يعلنه اعلانا ، ويعلنه الى الحسين نفسه وكان الحسين يغتاظ . ولكنه لا يجد شفاء لنفسه الا أن يشتم أبا نواس فى وجهه أقبح الشتم ويتحدث الى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث فى الدين والاخلاق والحياة المادية وحدها ، بل كان يستبيح العبث فى الادب والشعر أيضا ، كان يؤثر نفسه بالخير في كل شىء ، وكان يرى انه شاعر مجيد واذا كان شاعرا مجيدا فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعا الى آيات الشعر فى المجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعا الا الحسين ، فقد كانت للحسين فى الخمر معان والفاظ جياد يتمنى أبو نواس لو ظفر بها وسبق اليها ولكن الحسين كان هو الظافر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبى نواس فكان أبو نواس اذا سمع شيئا من هذا فاستحسنه حسد الحسين عليه وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين . وان هذا الشعر لم يخلق الا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ويعود اليه وقد أخذ معناه وصاغه فى لفظ له ، فاذا اظهر الحسين غضبا ضحك أبو نواس وقال « دع عنك هذا فو الله لا يروى لك شىء فى الخمر وانا حى » .. وربما أراح ابو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة فزعم القصيدة برمتها لنفسه وصدقه الناس وتناقلوا القصيدة على انها له . تحدث الرواة من هذا بالشىء الكثير وهو يمثل لنا ما كان للحسين وابى نواس من لين الخلق وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ومن الاخاء فى الادب واللهو ، ولكنه يمثل لنا شيئا آخر هو الذى يعنينا من وجهة البحث الادبى ، يمثل لنا هذا التشابه الذى كان بين طبيعة

الرجلين وشعريهما فقد كان الرجلان مسرفين فى المجون متهالكين على الخمر مشغوفين بوصفها وذكر آلائها وكان مذهبهما فى ذلك واحدا أو مقاربا . ولم لا ؟ ألم يتأثروا جميعا باستاذ واحد هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعا على شعر هذا الملك الذى ظلم فى السياسة وظلم فى الادب ايضا ؟ ثم ألم يتأثرا جميعا بهذه الحياة البغدادية وهذا اللهو البغدادي ؟ ثم ألم يتصلا جميعا بالامين وقصور الامراء والوزراء ؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق ، ظاهر فى اللفظ وظاهر فى المعني وظاهر فى الطبع أيضا . كان ابو نواس كالحسين ماجنا شاربا وصافا للخمر محبا للغلمان ، ولكنه كان من جهة مستهترا متهتكا يتمدح بالاستهتار والتهتك ويتخذهما مذهبا ودينا، وكان من جهة أخرى بحكم هذا الاستهتار والتهتك متسفلا فى شعره لا يتكلف الإجادة اللفظية والمعنوية فى كل وقت ، كان يتكلف الاجادة اذا تحدث الى الخلفاء والامراء وأشراف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيتها اذا تحدث الى الشعراء والادباء وأوساط الناس ، ولكنه كان يتحدث الى الدهماء والى طبقات من الرقيق وغلمان الحانات والأديرة فكان يتبسط اذا تحدث الى هؤلاء وكان كثيرا ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على الاجادة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخرا شديد السخر فكان يتعمد الاساءة الى اهل اللغة وأصحاب النحو فيحرف عليهم قواعدهم ويسخر لهم من اصولهم وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلا بالامراء والخلفاء والوزراء والكتاب مقصوراً عليهم لا يكاد ينظم الشعر الا لهم او بمحضر منهم ، فكان بمعزل

عما كان يضطر اليه أبو نواس من التحدث الى العامة ودهماء الناس وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزلتـه من القصور مضطرا الى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية التى تصلح للارستقراطية ، فقل الفحش جدا فى شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه وغابت الجودة معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهبا ولم يكن يعنيه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو ، فكان فى شعره هـدوء واطمئنان خلا منهما شعر أبي نواس ، ولم يكن أقل من أبى نواس صدقا ولا استرسالا مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد فى شعره هـذا الاحتشام المتكلف الذى يصطنعه المنافقون من الفساق ، وانما كان الرجـل فاسقا لا يجرد فسقه ولا يظهره للناس عاريا كأبي نواس كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه فيخلع عليه أثواب الورع والدين . كذلك كان الحسين وله الى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس ، وهى مفهومة جدا . كان يعاشر الامراء والخلفاء وكان ينشيء لهم الشعر ليتغنى لهم فيه المغنون ، وقد أكثر من ذلك حتى أثر فى شعره وأصبح شعره كله موسيقيا وقل أن تجد للحسين شعرا لم يتغن فيه المغنون ، وقل أن تجد له شعرا لا يصلح للغناء ، لا لجودة لفظه ومعناه فحسب بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقى الذى لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا آثر أو كاد يؤثر دائما القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد فى أن يضيف الى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزانا أخرى موسيقية . فانظر الى هذا البيت فهو يمثل ما أريد تمثيلا صحيحا :

قد غاب لا آب من يراقبنا ونام لاقام سامر الخدم

فانظر الى قوله « قد غاب لا آب » والى قوله « ونام لا قام » تجد الى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته هذا النغم الموسيقى الذى زاوج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النحو من الموسيقى كثير فى شعر الحسين . وجملة القول فى شخصية هذا الشاعر أنه كان كأبي نواس ولكنه أنقى من أبى نواس لفظا وأعف منه لسانا ، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ولم يكن يعدل أبا نواس فى خفة الروح وحلاوة المجون ، ولم يكن يبلغ أبا نواس فى الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبى نواس حرارة فى العاطفة وصدقا فى اللهجة ، ولكنه كان يمتاز بشىء من الرجولة والوفاء ، لم يكن لأبى نواس منه حظ عظيم . وكان يمتاز على أبى نواس بشىء آخر وهو انه لم يكن سريع التنقل فى اهوائه ولذاته ، وانما كان وفيا فى حبه كما كان وفيا فى صداقته ، وكانت قصة الحسين التى استأثرت بحياته الغرامية فى شبابه ، ان صح هذا التعبير ، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الامراء هو « يسر » غلام أبى عيسى بن الرشيد . وكان « يسر » هذا جميلا خلابا فتن به صالح بن الرشيد نفسه وتلطف له واجتهد في الخلوة عنده فوجد فى ذلك عناء شديدا ولم يظفر به الا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال . وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الاخوين فأحبه الحسين نديم صالح كما أحبه صالح نفسه : وتثاقل يسر على الحسين وازدراه ولكن الحسين تلطف ، واحتال وبالغ فى التلطف والحيلة حتى وجد من قلب الغلام مكانا ، ولعل الذى انتهى به الى هذا المكان من قلب يسر انما هو

شعره الجيد الكثير الذى قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع يسر ، ولست أريد أن أروى لك شعره فى يسر ، فهذا كثير لا تسعه هذه الصحيفة ، وانما أروى لك من هذا الشعر نموذجا حسنا يمثله تمثيلا صحيحا ، وهى هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة لهو كانت بينه وبين يسر .

تيسرى للمام من أمم ولا تراعى حماية الحرم
قد غاب لا آب من يراقبنا ونام لا قام سامر الخدم
فاستصحبي مسعدايفاوضنا اذا خلونا فى كل مكتتم
تبذلى بذلة تقر بها العـ ـين ولا تحصرى وتحتشمى
ليت نجوم السماء راكدة على دجى ليلنا فلم ترم
ما لسرورى بالشك ممتزج حتى كأنى أراه فى حلم
فرحت حتى استخفني فرحى وشبت عين اليقين بالتهم
أمسح عينى مستثبتا نظرى أخالني نائما ولم أنم
سقيا لليل أفنيت مدته ببارد الريق طيب النسم
أبيض مرتجة روادفه ما عيب من فرقه الى القدم
اذ قصبات العريش تجمعنا حتي تجلت أواخر الظلم
وليلة بتها مسهرة محفوفة بالظنون والتهم
سقيا لقيطونها ومخدعها كم من لمام به ومن لمم
وليلة القمص ان سألت بها كانت شفاء لعلة السقم
بات أنيسى صريع خمرته وتلك احدي مصارع الكرم
وبت عن موعد سبقت به الثم درا مفلجا بفم

أباحنى نفسه ووسدنى يمنى يديه وبات ملتزمى

حتى اذا اهتاجت النواقس فى سحـ ـرة أحوى أحم كالحمم

وقلت هبا يا صاحبى ونبهـ ـت أبانا فهب كالزلم

فاستنها كالشهاب ضاحكة عن بارق فى الاناء مبتسم

صفراء زيتية موشحة بارجوان مامع ضرم

أخذت ريحانة أراح لها دب سرورى بها ديب دمى

فراجع العذر إن بدا لك فى الـ ـعذر وان عدت لاثما فلم

فانظر الى هذه القصيدة على طولها كيف جادت ألفاظها ومعانيها ؟ وانظر الى حذر الشاعر واشفاقه وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ثم شكه فى هذا الوفاء ، وهو يستمتع بلذاته لشدة حرصه عليه واكباره له ؛ ثم انظر اليه كيف يأخذ فى تفصيل لذته متبسطا واذا هو يدنو من الفحش قليلا قليلا حتى اذا لم يبق بينه وبين بلوغه الا قيد أصبع انصرف عنه وقد ألم به إلماما وخيله اليك تخييلا ، فاذا لم يكن بد من التصريح ففى لفظ لا يروع التقى ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك . . .

أترى الى أبى نواس فى مثل هذا الموضع ؟ أكان يعفيك من تصريح بشع ؟ أم كان يدخل عليك بلفظ مكروه ؟ بلى ، لو وقف أبو نواس هذا الموقف لتعمد الافحاش والاساءة ، لان أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل هذا الشعر فى الشعر وحده ، وانما يفكر فى خصومه الذين ينكرون عليه لذته ، فيريد أن يغيظهم ويكبتهم فيمضى فى الفحش الى غير حد .

وانظر الى هذه الابيات الاخرى التى تمثل لك رقة الحسين ولطفه فى الغزل :

لا وحبيك لا أصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا
كبدى من هواك اسـ تقم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنا فيّ للسقم موضعا

وما أظن التفسير والتعليق الا مفسدين لجمال هذا الشعر ! وكم نحب أن نسمع متغنيا يتغنى فيه كما تغنى فيه القدماء ببغداد ؛ ولقد فتن ثعلب بهذا الشعر حتى قال لأصحابه ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا . . .

ولقد أريد أن أمثل لك شيئا من عبث الحسين ، فهو كثير ولكنى متحير لا أدرى ماذا اختار منه . فلأكتف من هذا بهذه القصة التى لا تمثل الحسين وحده ، وانما تمثل معه عاملين من أعلام الحياة السياسية أيام الواثق . شك الناس فى رمضان وأمر الواثق بالافطار فكتب الحسن ابن رجاء الى الحسين :

هززتك للصبوح وقد نهاني أمير المؤمنين عن الصيام
وعندى من قيان المصر عشر تطيب بهن عاتقة المدام
ومن أمثالهن اذا انتشينا ترانا نجتنى ثمر الغرام
فكن أنت الجواب فليس شىء أحب إلى من حذف الكلام

قال الحسين فوردت على رقعته وقد سبقه الى محمد بن الحرث بن بشخير ووجه الى بغلام نظيف الوجه . ومعه ثلاثة غلمة أقران حسان الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها الى كما تكتب المناشير ، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سر على اسم الله يا أشـــكل من غصن لجين
فى ثلاث من بني الرو م الى دار حسين
أشخص الكهل الى مو لاك يا قرة عينى
أره العنف اذا استعـــصى وطالبه بدين
ودع اللفظ وخاطـــبه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وجـــهك فى خفى حنين

قال فمضيت معهم وكتبت الى الحسن بن رجاء جواب رقعته

دعوت الى مماحكة الصيام وأعمال الملاهى والمدام
ولو سبق الرسول لكان سعيي اليك ينوب عن طول الكلام
وما شوقى اليك بدون شوق الى زمن التصابي والغرام
ولكن حل فى نفر عسوف بمنشور محل المستهام
حسين فاستباح له حريما بطرف باعث سبب الحمام
وأظهر نخوة وسطا وأبدى فظاظته بترك للسلام
وأزعجني بألفاظ غلاظ وقد أعطيته طرفى زمامى
ولو خالفته لم يخش قتلى وقنعني سريعا بالحسام

ولست أروى لك خبره مع الحسن بن سهل ولا قصته فى أمر مقيم ولادهاءه فى أمر الشامى وعشيقته « بصبص » فأنت تستطيع أن تقرأ هذا كله واكثر منه في الاغانى . وأحسب انى قد أسرفت فى الاطالة فاختم هذه الصحيفة بهذه الابيات التى قالها الحسين وقد بلغ التسعين أو كاد ، وكان قد نادم المتوكل ثم شقت عليه الخدمة فاعتذر ووشى به الناس الى

الخليفة فكتب اليه هـذه الابيات التى تمثل شعره وهو شيخ قد أدركه الفناء فلا تظهر السن فى هذا الشعر ضعفا ولا وهنا كما أنها لا تظهر فيه شبابا ولا قوة :

أما فى ثمانين وفيتها عذير وان أنا لم أعتذر
فكيف وقد جزتها صاعدا مع الصاعدين بتسع أخر
وقد رفع الله أقلامه عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة وألحد فى دينه أو كفر
وان لمن أسرار الاله فى الارض نسب صروف القدر
فان يقض لى عملا صالحا أثاب وان يقض شرا غفر
فلا تلح فى كبر هدنى فلا ذنب لى ان بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب فأعقبني خورا من أشر
وقد بسط الله لى عذره فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وانى لفى كنف مغدق وعز بنصر أبى المنتصر
يباري الرياح بفضل السما ح حتى تابد أو تنحسر
له أكد الوحى ميراثه ومن ذا يخالف وحى السور
وما للحسود وأشياعه ومن كذب الحق الا الحجر

بشار ابن برد (1)

ليس بذلك الوجه المشرق الجذاب الذي يستميلك ويستهويك، وانما هو فيما أعتقد رجل ثقيل الظل، له من الفن حظه الموفور ولكن روحه فى حاجة شديدة الى الخفة، ولست أدرى أتشاركني فى هذا الرأى أم تخالفني فيه، فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتعجب بهم، ومنهم من تحبهم ولا تعجب بهم، ومنهم من يظفرون بالاعجاب وحده دون الحب، أى أنا أعتقد أن الشاعر ليس محببا الى النفس لانه مجيدليس غير، وانما يجب أن يجمع الى هذه الاجادة خلالا أخرى تدنى منك شخصيته وتقارب ما بينها وبين نفسك حتى تحبه وتميل اليه. ولم يرزق الله بشارا من هذه الخلال شيئا، أو لم يكد يرزقه منها شيئا، وانما منحه من القوة الفنية والاجادة فى الشعر حظا موفورا ولكنه الى التنفير أقرب منه الى الترغيب وايجاد العطف. وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التى ابتلى الله بها بشارا مصدرا لحب الناس اياه وعطفهم عليه ورفقهم به لو أن بشارا عرف كيف يتلقى هذه الآفة وكيف يحتملها وكيف يعرف مكانته منها، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النقمة منهم والسخط عليهم، لانهم يسيئون احتمال هذا البؤس أو يضعونه فى غير موضعه. فكم سخطت على معدم وكان من حقك أن ترحمه لانه لم يعرف

(1) نشرت بالسياسه فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ — ٣٠ ابريل سنة ١٩٢٤

كيف يكون معدما أو فقيرا ، كذلك أصاب الله بشارا بهذه الآفة فسلبه البصر وكان الى ذلك نابغة فى الشعر يكاد ينعدم نظيره فى قوة الذكاء وحدة الذهن ، ولكنه أساء احتمال آفته كما أساء الانتفاع بذكائه وحدة ذهنه ، فأصبح بغيضا الى الناس مذمما عندهم ثقيلا عليهم حتى روى الرواة ان عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته واستبشروا به كأن الله قد ازاح عنهم ضرا .

ربما لم تعرف آداب العرب فى اسلامهم شاعرين كبشار وأبي العلاء ، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة فاسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح . ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جدا ، لا أقول من الوجهة الادبية أو الشعرية ، فليس المقارنة بينهما من سبيل ، وانما اقول من هذه الوجهة التى تحبب اليك الرجل أو تبغضه اليك ، كلاهما كان مكفوف البصر ، وكلاهما كان سيء الظن بالناس مسرفا فى سوء الظن لانه كان مكفوف البصر ، ولكن احدهما استطاع أن يحمل مصابه راضيا مطمئنا ، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خيراً خفيف الظل جذابا محببا الى النفس يكاد يكون كله حبا ، وهو أبو العلاء . أما الآخر فقد احتمل مصابه شر احتمال ، ماذا أقول ؟ بل هو لم يحتمل هذا المصاب وأكاد أحسب انه لم يفترضه ولم يشعر بوجوده ، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة الى الفخر والتمدح وأسرف فى ذلك اسرافا شديدا ، فكان يحمد الله على العمى لانه يحول بينه وبين رؤية الناس الذين كان يكرههم ويتبرم بهم تبرما شديدا ، وليس هذا شيئا ، فقد يستطيع الانسان فهمه وتأويله والاعتذار عنه ، ولكن بشارا تجاوز الحد فى ذلك فلم يكتف بحمد الله

على العمى ، بل اتخذ العمى فخرا وزعم أن ذكاءه النادر ونبوغه الفذ انما هما أثر من آثار هذه المحنة ، وقال فى ذلك كلاما كثيرا . وكان من اليسير أيضا أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه ويجدوا وسيلة الى الاعتذار عنه ؛ فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل وشدة الذكاء وحدة الذهن ونفاذ البصيرة ومنحه الى ذلك قوة الجسم ودقة الحس ولطفه ، ومنحه الى هـذا وذاك نفسا ثائرة مضطربة شرهة الى اللذة لا تقنع منها بالقليل ولا تظفر منها بحظ الا استزادته وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى راضيابها مطمئنا اليها ، وانما المعقول أن يحدث ذلك فى نفسه سخطا شديداعلى الحياة والاحياء لما يجر عليه ذلك من حرمان ... أضف الى هـذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ولا حريصين على الرفق وحسن الادب ، وانما كانوا يسخرون من بشار ويعبثون به ويسرفون فى ذلك حتى يبلغوا إعناته ويخرجوا به عن طوره . فكان هذا كله مصدراً لما تجده فى هذا الرجل من سوء الخلق وشدة البغض للناس والموجدة عليهم واضمار الشر لهم والاسراف فى السخرية منهم . وماذا تقول فى رجل لم يخلص لانسان؟ وما نحسب ان انسانا أخلص له ، وانما كان سيء الظن بالناس جميعا منطلق اللسان فى الناس جميعا ؛ يمدح ثم لا يلبث أن يهجو وربما مدح وهو يضمر الهجاء ، بل لعله لم يمدح الا وهو يزدرى ممدوحه ، وكان مخلصا اذا هجا لانه كان يزدرى الناس ويسرف فى بغضهم وقد عظمت فى نفسه هذه الخلة حتى استأثرت به وسيطرت عليه وأصبحت مقياس حياته وقانون

ما بينه وبين الناس من معاملة وانتهى أمره الى ان الناس انما كانوا يصلونه ويمنحونه الجوائز لا اعجابا به ولا رحمة له، ولا عطفا عليه بل اشفاقا منه واتقاء لأذاه. وعرف هو منهم ذلك فنالهم من حيث ينال الضعيف، مدحهم ولم يكره أن ينذر وهو يمدح، وربما أعرض عن المدح واكتفى بالانذار، وربما أعرض عن المدح والانذار جميعا وسلك أقصر الطرق وهجا بالبيت أو البيتين فيشفق المهجو من المزيد فينزل عند ما أراد. ثم انتهى به الامر الى أن أصبح يقينا عنده فاصبح بشار من أشد الناس ايثاراً لنفسه. يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفا عليه وأن الشر يجب أن يعدوه الى غيره. ولم لا؛ أليس يري انه أذكى الناس وأشعر الناس وأعلم الناس؛ واذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ويذعنوا لهواه، فان فعلوا فذلك والا ففى لسانه تثقيف لاعوجاجهم واصلاح لما فيهم من فساد ... ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلا أطول منه لسانا ولا أسرع منه الى شر، ولا أشد منه امعانا فى الفحش اذ هجا ولا أقل منه احتفالا بالعدل أو الظلم.

واخرى من خلال هذا الرجل هى انه أسرف فى بغض الناس وازدرائهم فاسرف لذلك فى ايثار نفسه عليهم؛ ومن اتصف بالايثار فقد اتصف بالجبن لان الايثار فى حقيقة الامر شكل من أشكال الجبن ولون من ألوانه، فليس شجاعا ذلك الرجل الذى يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا تحب، وانما الشجاع حقا هو من بدأ بنفسه فاخذها بالخير وحال بينها وبين الشر حتى اذا فرغ من نفسه عني بالناس. وكان بشار أشد الناس فى عصره جبنا وفرقا. كان طويل اللسان سفيها مسرفا فى الهجاء الا أن يبدو له ما يخيفه.

فاذا بدا له فى ذلك فهو ذليل منكسر . وكان يخاف كل شىء ، كان يخاف السيف وكان يخاف السوط وكان يخاف اللسان وكان يخاف غير هذا كله ، وله فى ذلك أحاديث . زعموا أنه طلب الى رجل مصور أن يتخذ له جاما ويرسم فيه طيرا ففعل الرجل وأقبل اليه بالجام فوصفه له فلم يرض ، وقال كان يجب أن ترسم فيه طيرا جارحا يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت انى أعمى فاستخففت بى فلا تهبونك ، قال صاحبه لا تفعل فانت نادم ان ان فعلت ، قال أتنذرنى ؟ قال نعم ، قال وبم ؟ قال أصورك على صورتك واجعل من ورائك قردا . . . وأضع ذلك على بابي ، فقهقه بشار وصفق بيديه وقال : قاتله الله . أمازحه فيأبى الا الجد . فانظر اليه أشفق من هذه الصورة ، ولو لم ينذره بها المصور لهجاه . وزعموا أنه طلب الى صديق له تاجر ثيابا بنسيئة فلم يوفق الرجل الى ما أراد فغضب بشار وكتب اليه بيتين من أقبح الشعر ولم يكن هذا الرجل شاعرا ولكنه اغتاظ لهذين البيتين فرد عليهما بشر منهما فانكسر بشار وأقسم لا يهجو مثله من سفلة الناس . قالوا وهجا بشار روح بن حاتم فجاءه منه النذير فلم يحفل وألح فى الهجاء فاقسم روح لئن رآيته لاضربنه بالسيف ولو كان بين يدى الخليفة ، قالوا فلما انتهي ذلك الى بشار نهض من فوره فدخل على المهدى وعاذ به فاعاذه وأرسل فى طلب روح فكلمه فى ذلك فابي وقال انه أقسم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يميني ، فدعا فأحضر المهدى الفقهاء ليتأولوا له مخرجا فافتوا بان يضرب به على جسمه بعرض السيف ، وكان بشار وراء ستار فأخرج واستل روح سيفه وضربه بعرضه ، قالوا فلما أحس بشار السيف جزع وصاح

أوه باسم الله ! فتضاحك المهدى : وأحاديث بشار فى الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى :

وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته وهى انه اذ كان أثراً شديد الاشفاق فقد كان مسرفا فى النفاق أيضا ، وليس يمثل اسرافه فى النفاق من مكانه من الزنادقة ورأيه فيهم وسيرته معهم ، كان من أشد الناس الحادا فى الدين وتهالكا على اللذة وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم يحب المجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفى ، وانما كان رجلا له رأى وبصيرة : يفكر ويناظر ويحاج عن رأيه : وكان صديقا لواصل بن عطاء ونفر من اصحاب الكلام فى البصرة فكانوا يتناظرون فى الدين ثم افترقوا : فاما واصل فمضى فى الاعتزال . وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة فى الكلام ، ومنهم من ألحد ولم يخف إلحاده : وانما ترك البصرة فرارا من أميرها ومخافة أن يدل أصحابه ومناظروه ، أما بشار فانه لم يعان شيئا خاصا وانما مضى فى سيرته يخيل للناس انه رأى الجماعة ويضمر الزندقة والالحاد ويزدرى رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه ذلك وكان واصل يعلمه وكان واصل ينكر عليه ذلك ويهتف به فهجاه بشار وأسرف فى هجائه حتى سكت عنه واصل ، وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شرا ، ثم لم يكن يكتفى بهذا وانما كان يدفع عن نفسه تهمة الزندقة بهذه الطريق التى يسلكها الجبناء وانذال الناس فيهم بها غيره من خصومه ومن أصدقائه أيضا ، وقد مر لك فى أحاديثنا الماضية شىء من سيرته مع حماد عجرد فقد أسرف فى اتهامه بالزندقة ، وما نشك فى أن حظ حماد من الالحادة كان بعيدا عن أن يبلغ

حظ بشار .

كانت زندقة بشار علمية ان صح هذا التعبير أو قل كان لزندقته وجهان أحدهما علمي نظري فيه ذكر لمذهبه ودفع عنه وحوار دونه ، والآخر عملي أدبي يشارك فيه حمادا ومطيعا وغيرهما من المجان . فكان بشار يدين بالرجعة ويكفر الامة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لانها حادث عن طريق الدين ، فلما سئل عن علي رضي الله عنه تمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

وكان يؤثر النار على الطين ويفضل النور عن الظلمة فكان من هذه الناحية فارسي الزندقة ، ثم كان في حقيقة الامر فارسيا في كل شيء ، كان فارسيا في زندقته يقدم النار التي يعبدها الفرس وكان فارسيا في اهوائه وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ولا يرتاح اليهم وانما كان يحتملهم احتمالا ، وكان ينكر الولاء ويحث الموالى على ان ينكروه ، وكان يرى ان الفرس ليسوا اقل كرامة ولا شرفا ولا حرية من العرب ، ولم يكن يكره ان ينتسب الى آبائه من الفرس وربما فاخر بنسبه الفارسي ، ويقولون انه اجترأ على ذلك بين يدى المهدى ، ويقولون إن رجلا من أشراف العرب في البصرة أقبل عليه يعاتبه لانه يفسد الموالى على العرب ، فهجاه واضطر الرجل الى ان يسكت عنه

كان بشار اذن زنديقا ممعنا في الزندقة وكان شعوبيا متشددا في الشعوبية ، وكان يحتمي بالنفاق أيضا كما قدمنا فقد كان يمدح الخلفاء والامراء واشراف الناس ايام بني أمية ، وايام العباسيين ، يطلب منهم المال ويطلب منهم المال

ويطلب منهم الجاه ايضا: ولكنه لم يكن مخلصاً فى شيء من ذلك وكان المدوحون يعرفون منه هذا النفاق ويصبرون عليه أو يتغاضون عنه حلماً مرة وعفواً مرة أخرى واشفاقا فى أكثر الاحيان

فاذا أردت أن تتمم شخصيته من حيث هو رجل فينبغى أن تضيف الى كل ما قدمنا خصلة أخرى ، وهى انه كان شديد الولع بالنساء مسرفا فى التشبيب مفتناً فيه فنوناً لم يسبق اليها وكأنه لم يلحق فيها أيضاً . كان شعره كله اغراء بالفجور وحثاً على الفسوق وافساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف وأوفرهن حظاً من الاحصان ، وقد جزع لذلك الناس فى البصرة فسعى اليه وعاظهم وأهل الصلاح منهم ينهونه وهتف به خطباؤهم والمتكلمون فيهم ولكن شيئاً من ذلك لم يؤثر فيه ولم يردعه ، بل مضى فى نسيبه وتشبيبه وفى استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره والاستهتار به كما اكثرن من الاختلاف اليه ومجاذبته الحديث وكانت له معهن سيرة مرذولة فشكى الناس الى المهدى فنهاه المهدى وانذره بالموت ان لم يكف عن التشبيب ، وفى ذلك يقول :

يا منظراً حسناً رأيته ... من وجه جارية فديته
بعثت الى تسومنى ... برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد ... ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما ... عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى ... واذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى على وما بكيته

ويشوقني بيت الحبيب ... اذا ادكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه ... فصبرت عنه وما قليته
ونهاني الملك الهمام ... عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع ... عهداً ولا رأياً رأيته

قالوا ووفد بشار على المهدى فاشترط الحاجب عليه الا ينشد الخليفة غزلا فلما دخل عليه انشده هذه الابيات ثم أنشده مدحا لا غزل فيه فحرمه المهدي ولم يجزه ، وقال الناس لبشار انما حرمك لانه لم يستحسن شعرك فقال (وهذا يمثل اعجابه بنفسه) لقد مدحته بشعر لو قيل فى الدهر لأمن الناس صروفه ولكنه كذب أملى لاني كذبت فى القول ، ثم قال هذه الابيات :

خليلى ان العسر سوف يفيق ... وان يسارا فى غد لخليق
وما كنت الا كالزمان اذا صحا ... صحوت وان ماق الزمان أموق
أأدماء لا استطيع فى قلة الثرى ... خزوزاً ووشياً والقليل محيق
خذى من يدى ما قل ان زماننا ... شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضي بأدنى معيشة ... ولا يشتكى بخلا على رفيق
خليلى ان المال ليس بنافع ... اذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت على محلة ... تيممت أخري ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له فى التقى أو فى المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

فاذا أضفت الى هذا كله أنه كان اقبح الناس وجهاً ، وأنه كان عظيم

الجسم ضخم الخلق وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل وأنه خلاب للنساء وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

ان فى بردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

أقول اذا أضفت هذا الى ما قدمنا تبينت صورة ليست بعيدة ولا كاذبة من هذا الرجل الذي لم يكن جذابا ولا خلابا لا من الوجهة المعنوية ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعرا مجيدا أجمع العلماء والرواة فى عصره على أنه أشعر اهل هذا العصر وزعم هو لنا ذلك فتحدث ذات يوم أن له اثني عشر الف بيت من جيد الشعر فلما سئل عن ذلك قال إن له اثني عشر الف قصيدة فويل له اذا لم يكن فى كل قصيدة بيت جيد . قالوا ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هـذا المقدار من جيد الشعر وقد يكون هذا حقا ، ولكننا فى حاجة شديدة الى أن نظفر من هذا المقدار الضخم بجزء قليل نتخذه مقياسا لاجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ الا نظفر من شعر بشار بشيء يذكر . ومهما يكن من شيء فأنا أشك فى قيمة هذا الاجماع الذى انعقد على تقديم بشار وايثاره بالاجادة والتفوق . وأزعم ان شيئا من هذا الاجماع يعود الى سفه بشار ، فقد كان بشار يخيف العلماء ويهجوهم ، هجا سيبويه لأنه أنكر عليه كلمات فاضطر سيبويه الى أن يستشهد بشعره ، وتملقه الأخفش لشيء كهذا ، وتملقه يونس بن حبيب وكان مع ذلك يكرهه كرها شديداً ، ويقال انه هو الذى وشى به عند المهدى واتهمه بالزندقة ، وتملقه الاصمعى من غير شك . فقد كان بشار يهجو باهلة

والاصمعى باهلى . وبعض هذا الاجماع يعود الى ان بشارا كان اذا جدمتين اللفظ رصين الاسلوب مؤثرا لنحو أهل البادية فى الفاظهم وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ولا يعيبه وكيف لا يحب علماء اللغة رجلا يذهب هذا المذهب . ثم يعود بعض هذا الاجماع الى ان الناس اطبقوا على خوف بشار والاشفاق منه فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء ، ثم تعامت عليه طائفة من الشعراء تقدمت فى عصرها ، ثم اكثر من الغزل ورق فيه فاحبه الظرفاء وأصحاب الخلاعة وتغني فيه المغنون وتحدث الرواة ان نساء البصرة كن يلجأ اليه أذا احتجن الى شعر ينحن فيه ، فهذا كله مصدر هذا الاجماع الذي يقدم بشارا على غيره من الناس

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له . فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكما صادقا لو أتيح لنا الشرط الأساسى لهذا الحكم وهو مقدار ضخم من شعره . على اني أشارك الرجل الواحد الذى استطاع فى ذلك العصر الا يعجب بشعر بشار وأن يشدد النكير عليه وهو اسحق الموصلى . أشاركه ، لانى اسرافه فقد تعصب على بشار كما تعصب غيره لبشار ، وأري أن بشارا لم يكن كما ظن القدماء، ذلك الشاعر الذى لا يشق له غبار ، وانما كان شاعرا كغيره من الشعراء له الجيد وله الردىء ، وربما قدمت على بشار رجلا كابى نواس أو كالحسين ابن الضحاك

غير انى لو أخذت افصل هذا الحكم وأستدل عليه لم أفرغ منه فى هذا الفصل فالخير أن أرجىء ذلك الى فصل خاص فى الاسبوع الآتى.

شعر بشار [1]

قلت فى الحديث عن بشار إن القدماء من الادباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديمه وايثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وخالفتهم فى هذا الرأى وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وانما تأثروا بمؤثرات كثيرة اشرت اليها . ثم قلت انى أرى فى بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء الذى استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار والاسراف فى ايثاره ، وهو اسحق بن ابراهيم الموصلى ، فقد كان اسحق فيما يظهر شديد الجحود لبشار غاليا فى السخط عليه والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يحاجه فى ذلك فيظهر عليه . غير أنى لا أوافق اسحق بن ابراهيم الموصلى فى ما اندفع اليه من غلو واسراف ، فانا لا ازعم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا ازعم أن الجيد فى شعره قليل ، وانما أزعم أن بشارا كان شاعراً موفور الحظ من الاجادة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره ، وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبى نواس ، وهنا أخالف اسحق بن ابراهيم الموصلى أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبى نواس أشد من ازدرائه لبشار ، كان لا يعتد بأبى نواس ، وقد نتحدث فى يوم من الأيام عن اسحق ابن ابراهيم فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة التى كان يراها فى بشار وأبي نواس وغيرهما من الشعراء ولكننا اليوم نتحدث عن بشار ،

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٧ شوال سنة ١٣٤٢ هـ ٢١ مايو سنة ١٩٢٤ م

فلنحرص على ألا نتجاوزه الى غيره

كان اسحق بن ابراهيم يرى أن بشارا مختلف الشعر مضطربه وان الغث فى شعره لا يعدله غث ولا ردئ ، وكان يقول ان الذى يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد

انما عظم سليمى قصب قصب السكر لاعظم الجمل
فاذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

وفي الحق أن فى هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً ، ولكن أين الشاعر الذى يستطيع أن يبرأ من قول فج أو لفظ سخيف ؟ ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر لانه قال هذين البيتين ؟ وأنت تعلم أنه قال شعراً آخر كثيراً ، منه الذى بلغ من الجودة منزلة رفيعة ، فدونك الشاعر وشعره فاقرأ هذا الشعر وانقده واحكم على جيده بالجودة وعلى رديئه بالرداءة واجتهد فى أن تتبين الاسباب التى أتاحت للشاعر أن يجيد والاسباب التى اضطرته الى أن يسف . ولا تقل ان من قال هذا الشعر الردىء لايستطيع أن يقول جيداً من الشعر . فلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع أن يقول رديئاً من الشعر ، واذا انتهى بكما الحوار الى هذا الحد فلستما منتهيين الى خير ولا بالغين حجة ، وانما أنتما متعصبان قد أسرف كل منكما فى تعصبه حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثا وأصبح من الحق أن تتركا وما أنتما فيه . . .

نعم ، اسراف أن تحكم على الشاعر ببيت أو ببيتين ، واسراف أن تحكم

له ببيت أو بيتين بل اسراف أن تحكم للشاعر المكثر أو عليه بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد ، بل لا ينبغى أن تسلك هذه السبيل فى النقد ، فهى عتيقة معوجة لا تنتهى الى نتيجة صحيحة ولا مقنعة ولا سيما فى هذا العصر وانما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته وتحكم عليه أوله بما تتبين منهما ، ولست أدري أين قرأت أن رجلا من نوابغ الموسيقى الغربية أراد أن يحكم على شاب موسيقى فاستمع اليه وهو يوقع فلما سمعه يوقع ألحانا مختلفة قال الآن عرفت صوت نفسك . كذلك يجب أن نتبين أصوات نفوس الشعراء لنحكم لهم أو عليهم . وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذى لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، وانما هو صوت لا حظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الاشعار الجياد البارعة فانا لا أحبه ولا أميل اليه . والغريب ان كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه الينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ، وهو مر فى جميع مواقفه ، يأتى بالنادرة المضحكة فتضحك ولكنك لا تضحك ضحكا صريحا خاليا من كل شائبة ، وانما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم محس شيئاً من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد أبغض الناس بغضا شديداً فاصبح اليهم بغيضا وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ولم يبق بينه وبينهم الا صلة الخوف والتهيب يستغلها هو ويتيحون له هم أن يسرف فى استغلالها ، ولقد تقرأ أن بشارا عند ما ضربه

المهدى الضرب الذى أماته لم يبق شريف من أشراف البصرة الا تلطف له وأرسل اليه الهدايا . ثم نقرأ أنه مات وأخرجت جنازته فلم يتبعها من أهل البصرة أحـد الا جارية له سوداء سندية عجماء تصيح : واسيداه ! واسـيداه ! فأين هؤلاء الاشراف الذين تلطفوا له واستبقوا الى ارسال الهدايا اليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات ؟ لم يتلطفوا له حبا ولا عطفا وانما تلطفوا له تملقا واشفاقا فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً كما كانت نفوسهم منصرفة عنـه باطنا . غير أنى أخشى أن أتهم بالاسراف في بغض بشار وتشويه شخصيته ، والله يعلم أنى ما أحب بشاراً ولا أكرهه ولا يعنيني أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن أتهم بالاسراف ، فلأجتهـد فى أن أحملك على أن تشاركنى فى هـذا الرأى الذى أراه ، وعلى أن تحس معى أن بشاراً كان بغيضاً حتى حين كان يتندر ويريد أن يضحك . قالوا كان بشار بين يدى المهدى ينشده شعرا فدخل يزيد بن منصور الحميرى خال المهدي وكانت فيه غفلة ، فلما فرغ بشار من انشاده أقبل عليـه يزيد وسأله ما صناعته ؟ فأجابه بشار أثقب اللؤلؤ ! ولست أشك فى أن جواب بشار بديع مضحك مفحم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهدى أن يمتنع عن الضحك . ولـكني لا أشك فى أن هذا الجواب قاس يدل على حـدة المزاج ومرارة الطبع وغضب المهدي : فشتم بشارا أو قل لام بشارا على أن تندر على خاله . فلم يكن جواب بشار على لوم المهدى أقل شـدة من جوابه على سؤال يزيد اذ أجاب : وماذا أصنع به يري رجلا أعمى يين يدى الخليفة ينشده شعراً

فيسأله ما صناعته ؟ . . . قالوا ومر بشار بقاضى البصرة فسمعه يقول فى قصصه من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها وعلوه ألف فرسخ وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى مثلها فالتفت بشار الى قائده — بئست والله الدار هذه فى كانون الثاني ! . . . وتحدث رجل من أهل البصرة انه خلا الى امرأة فى علو بيت وبشار تحته أو فى أسفل البيت وبشار فوقه فنهق حمار فى الطريق فاجابه حمار فى الجيران وحمار فى الدار فارتجت الناحية بنهيقها وضرب الحمار الذى فى الدار الارض برجله وجعل يدقها بها دقا شديدا فسمعت بشارا يقول للمرأة نفخ يعلم الله فى الصور وقامت القيامة أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور حتى يخرجوا منها ولم يلبث أن فزعت شاة كانت فى السطح فقطعت حبلها وعدت فالقت طبقا وغدارة الى الدار فانكسرا وتطاير حمام ودجاج كن فى الدار لصوت الغدارة وبكى صبي فى الدار فقال بشار صح والله الخبر ونشر أهل القبور من قبورهم . ازفت يشهد الله الآزفة وزلزلت الارض زلزالها . فقال البصرى فعجبت من كلامه وغاظنى ذلك فسألت من المتكلم فقيل لى بشار . فقلت قد علمت انه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار . . . ومر بشار برجل رمحته بغلة وهو يقول الحمد لله شكرا فقال بشار : استزده يزدك . . ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضرب الضرب الذى مات له كان كلما اوجعه السوط قال : حس . وهى كلمة تألم . فقال بعض الحاضرين أنظروا اليه لا يقول باسم الله فقال بشار ويلك أثريد هو فاسمى عليه ؟ . . . ثم زعموا أن قوما مروا به يحملون

جنازة وهم يسرعون المشى بها فقال بشار مالهم مسرعين أتراهم سرقوه فهم يخافون ان يلحقوا فيؤخذ منهم ! . . . قالوا وتوفى له ابن فجزع عليه فقيل له : أجر قدمته وفرط افترطته وذخر احرزته. فقال ولد دفنته وثكل تعجلته وغيب وعدته فانتظرته : والله لئن لم اجزع للنقص لا افرح للزيادة ! . . . وتحدث ابن رزين (وأنا اعتذر من رواية هذا الحديث ولكنه يمثل بشاراً أصدق تمثيل) قال اتينا بشاراً فاذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه فلم يدعنا الى طعامه فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوأته فبال ثم حضرت الظهر والعصر فلم يصل فدنونا منه فقلنا أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال وما هى ؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا اليه فقال انما اذنت لكم أن تأكلوا ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال ثم ماذا؟ قلنا ودعوت بطست ونحن حضور فبلت ونحن نراك . فقال أنا مكفوف وأنتم بصراء وانتم المأمورون بغض الابصار ثم قال : ومه قلنا حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل فقال إن الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة !.

اعتقد ان هذه الاحاديث التى تمثل ابتسام بشار وتندره وما كان الله قد وهب له من ظرف وخفة روح لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ولا ذى الروح الخفيف وانما تعطى منه صورة قاسيه ، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم ولعله قد كره كل شىء وازدراه فهو لا يحب الا نفسه ولا يعجب الا بنفسه ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحياة والأحياء الا انتهزها ولم يكن فى سخريته هينا ولا رفيقاً ، وانما كان غليظاً فظا قاسياً . ثم ان هذه الاحاديث وما قدمت لك فى الفصل الماضى

من أخبار بشار تمثله منافقا فى سيرته يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشته ثم يسخر منهم متى اتيح له ذلك .

واذن فهو أقل الناس حظا من صدق اللهجة والعاطفة ، واذا قرأت شعر بشار فلا ينبغى ان تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه وإنما ينبغى ان تبحث فيه عما يريد ان يظهر أو عما يريد ان يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل . ليس شعره شفافا كشعر أبى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وانما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شىء ، وهو كاذب أبداً لا يحفل بالكذب ويغضب حين يلفته الناس اليه . قالت إنه كان ضخما فاحش الضخامة قويا شديد القوة ثم لم يستح ان يقول

ان فى بردى جسما ناحلا   لو توكأت عليه لانهدم

هو اذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ولا حين يتغزل ولا حين يرثى ولعله ان صدق انما يصدق فى موضوعين اثنين من شعره يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ويضع يده على مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم وانما أريد أنه يصدق حين يهجو لانه يصف نفسه ويمثل سخطه على الناس وما يضطره اليه هذا السخط الشديد من الوان الاسراف والظلم وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر نفسه وسوء مكانه من الناس وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم اياه وبخلهم عليه بما كان ينتظر ، هو فى هذا الموضع من شعره صادق وقد يبلغ التأثير أحيانا ، وما احسب انك تخالفنى فى استحسان هذه الابيات وصدق

الشاعر فيها وهى التى قالها حين مدح المهدى وألح فى مدحه فحرمه المهدى، وألح فى حرمانه :

خليلى إن العسر سوف يفيق ... وان يساراً فى غد لخليق
وما كنت الا كالزمان اذا صحا ... صحوت وان ماق الزمان اموق
أأدماء لا استطيع فى قلة الثرى ... خزوزاً ووشياً والقليل محيق
خذى من يدى ما قل ان زماننا ... شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضى بأدني معيشة ... ولا يشتكى بخلا علىّ رفيق
خليلى إن المال ليس بنافع ... اذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له فى التقى أو فى المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

الست تحس معى أن الشاعر صادق متأثر وان تأثره هذا مؤثر أيضا ؛ ولا تقل إنه يتكلف الكرم فى هذه الابيات فلم يكن بشار بخيلا ولا محباً للبخلاء وانما كان كريما ، لا لأنه يحب الناس ويعطف عليهم بكرمه وجوده بل لانه يزدري المال كما يزدرى الناس وله أخبار فى الكرم لا بأس بها ، فقد كان له اخوة ليسوا بالميسورين فكان يبيح لهم ماله وكانوا يسرفون فى الانتفاع بذلك حتى لقد كانوا يعدون على ثيابه فيلبسونها وكانوا يتعاطون مهنا لا ينظف صاحبها فكانوا يتركون فى هذه الثياب روائح لا تطيب وكان بشار يكره ذلك ويتبرم به ولكنه لم يزجر اخوته وانما احتمل منهم ذلك. وزعموا أنه لبس فى يوم من الايام ثوباً من هذه الثياب وكان أخ له قد ترك

فيه رائحة لا تحب فانكر بعض الناس ذلك على بشار فقال انما ذلك صلة الرحم ! .... وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشمقمق من صلة فقد كان بشار عوده أن يمنحه مقدرا من المال فى كل عام وطمع أبو الشمقمق فى ذلك حتى عده دينا ، ولعل كرم بشار على أبى الشمقمق لم يكن برئيا ولا خالصا لوجه الله فقد كان بشار جبانا كما قلنا وكان أبو الشمقمق سيء الهجاء فكان بشار يخافه ويتقيه بالمال وله فى ذلك نوادر كثيرة . ويحدث بعض الناس انه دخل على بشار فوجد بين يديه دنانير فقال له بشار خذ منها ما شئت وقص عليه قصتها وهى ان ابياتا من شعره اعانت شابا على حب فحمل اليه مائة دينار . لم يكن بشار بخيلا اذن وهو لا يتكلف الكرم فى هذه الابيات التى قدمناها ، وهو صادق حين يشكو وحين يظهر انه لا يحتمل ضيق الحياة فقد كان واسع العيش مترفا منعما فى البصرة وانما كان هذا كله يأتيه من الشعر ومدحه به اشراف الناس وهجائه به اشراف الناس أيضا ، فليس غريبا أن يسوءه حرمان المهدى اياه وليس غريبا أن يحزنه هذا الحرمان فقد كان بشار لنفسه مكبراً ولم يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدى انه لم يستحسن ما قلت فيه فأجاب لا والله لقد قلت فيه كلاما لو قيل فى الدهر لأمن الناس صرفه ولكنه كذب أملى لانى كذبت القول فيه ! فانظر اليه كيف أبى أن يفترض الا أن يكون شعره قد أعجب المهدي وكيف اكبر نفسه على هذا فازدري المهدى ولام نفسه لانه مدحه بما ليس فيه .

على ان صدق بشار قليل نادر كما قلنا وهو ان أخطأه الصدق والاخلاص

فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجيد الذى يستحق أن يروى ويبقى، فاما غير ذلك فقد كان يصدر عن بشار فى غير تكلف ولا عناء وكأن فطنته كانت كهذه الارض الرخوة التى امتلأت بالماء كأنها اسفنجة يكفى ان تمسها لينبجس منها الماء ولكن هذا الماء لم يكن عذبا فى كل وقت فقد كان لا يخلو من مرارة وأجاجة وربما لم يخل من نتن أيضاً ، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم ان شعره الجيد لا يقل عن اثنى عشر الف بيت وأنه غير مسرف فى ذلك لأن له اثني عشر الف قصيدة فيجب ان يكون فى كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثنى قوم ان ديوان بشار موجود الآن فى تونس أو فى بلد غير تونس وان من الادباء من يعمل فى نشره فإن كان هذا الخبر صحيحا فسنستطيع أن ندرس بشارا ونحكم عليه من كثب وأنا لهذا أحتفظ بحكمى عليه وأستبيح لنفسى تغيير رأيى فيه اذا ظهر هذا الديوان وان كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرنى ديوان بشار الى أن أغير رأيى فى بشار وشعره . فليس بين يدى من شعره مقدار عظيم ولكن هذا المقدار القليل الذى أدرسه وأنقده يكفيني لأتمثله وأحكم عليه وسنرى يوم يظهر الديوان أمخطىء أنا أم مصيب

بين يدى غزل لبشار ليس بالكثير ولكنه ليس بالقليل أيضاً وهو سواء كان قليلا أم كثيراً لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقا وإنما يمثل أمرين اثنين . يمثل تهالكا على اللذة وافحاشا فى هذا التهالك وافتنانا فيه أيضاً دون أن يراقب الشاعر فى ذلك خلقاً أو ادباً أو دينا ويكفى أن تعلم ان علماء

البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ومن بينهم واصل بن عطاء والحسن البصري ومالك بن دينار جميعا قد هتفوا به وشكوه بعد ان وعظوه ونصحوا له ، ويمثل رغبة فى الفساد واذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفى بأن يكون من أصحاب اللذة المتهالكين عليها ولهذا كان يتخير اذا تغزل أيسر الالفاظ والاساليب وأدناها وأشدها شيوعا فى النساء وفتيات الهوى كأنه كان يريد ان يفهمه النساء والفتيات وان يتأثرن به ، والغريب انك لا تجد بشاراً يسف فى اللفظ اذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر الا الغزل والهجاء ، وهذا واضح فهو اذا تغزل أراد ان يفهمه النساء وان يكون شعره ذائعاً يتناقله الشبان وأهل الخلاعة وهو اذا هجا فقد كان يريد أن يؤذى من يهجو وانما يؤذيه اذا كان هجاؤه فاحشا مقذعا ، وكان مع ذلك سهلا يمكن فهمه وروايته . ولست أشك فى أن المهدى لم يكن جائرا ولا مسرفا حين نهى بشارا عن الغزل وحين أنذره بالموت ان عاد اليه ويكفى أن أروى لك هـذه القصيدة التى غضب لها المهدى لتعلم ان غزل بشار لم يكن من الجودة والطهر بحيث يؤسف عليه .

قـد لامني فى خليلتى عمر	واللوم فى غير كنهـه ضجر
قال أفق قلت لا فقـال بلى	قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت واذ شاع ما اعتذارك مم	ـا ليس لى فيه عندهم عـذر
ماذا عليهـم ومالهم خرسوا	لو أنهم فى عيوبهـم نظروا
اعشق وحدى ويؤخذون به	كالترك تغزو فتؤخـذ الخزر
يا عجبـا للخلاف يا عجبـا	بفي الذى لام فى الهوى الحجر

حسبى وحسب الذى كلفت به ... مني ومنه الحديث والنظر
أو قبلة فى خلال ذاك وما ... يأس اذا . : . . . .
أو عضة في ذراعها ولها ... فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى ... والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلها ... أو مص ريق وقد علا البهر
واسترخت الكف للعراك وقا ... لت ايه عنى والدمع منحدر
انهض فما انت كالذى زعموا ... أنت وربى مغازل أشر
قد غابت اليوم عنك حاضنتى ... والله لى منك فيك ينتصر
يارب خذ لى فقد ترى ضرعى ... من فاسق جاء مابه سكر
أهوى الى معضدى فرضضه ... ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بي لحية له خشنت ... ذات سواد كأنها الابر
اقسم بالله لا نجوت بها ... فاذهب فانت المساور الظفر
كيف بامى اذا رأت شفتى ... أم كيف ان شاع منك ذا الخبر
قد كنت أخشى الذى ابتليت به ... منك فماذا أقول يا عبر
قلت لها عند ذاك ياسكنى ... لا بأس انى مجرب خبر
قولى لها بقة لها ظفر ... ان كان فى البق ماله ظفر

روى شيء من هذه القصيدة لمطيع ولكن هذا من خطأ الرواة وأنت تقرأ هذه القصيدة فاذا أولها جيد متين مستقيم لانكير فيه ولكن الشاعر لايكاد يبدأ هذه القصة الخليعة حتى يفحش لا فى اللفظ فليس فى اللفظ فحش كثير بل فى المعنى فالمعنى كله فحش . ولست أريد أن الفتك

إلا الى بيتين اثنين من هذه القصيدة أحدهما يبين مهارة بشار فى محاكاة النساء أو نوع من النساء حين يتفجعن فى تهالك ولذة وهي قوله

قد كنت اخشى الذى ابتليت به   منك فماذا أقول يا عبر

وانظر الى قوله (يا عبر) · الثانى يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التى تعبث بالناس وتسخر منهم فى عنف وقسوة ، وأنا اعتقد ان نفس بشار وخلقه وقلبه كل هذا مختصر فى هذا البيت

قولى لها بقة لها ظفر   ان كان فى البق ماله ظفر

واست أروى لك غير هـذه القصيدة من خلاعة بشار فهى تكفى وأظن أنها تقوم عـذراً المهدى فى نهيه بشاراً عن ذكر النساء وللوعاظ وللعلماء فى سعيهم ببشار الى السلطان . ولا سيما ولم يكن أمر بشار قد وقف عند قول هذا الكلام الفاحش واذاعته وانما كان النساء يترددن اليه ويشاركنه فى اللهو وكان هو يطلب اليهن المواعيد فمنهن من كانت تسايره صادقة وفية ومنهن من كانت تعبث به عبثا منكراً ،واخبار ذلك فى الاغانى كثيرة وهى لا تشرف بشاراً ولا تدل على انه كان يكرم نفسه ويتأدب بالآداب التى كانت تفرضها عليه آفته واقلها الحياء والوقار ، ولكنه كان فاجراً مفطوراً على الفجور .

هل احب بشار حباً صادقاً ؟ هذا سؤال احاول ان التمس الجواب عليه فى شعر بشار فلا اجـد الى ذلك سبيلا ، فقد قلت لك ان شعره كثيف صفيق لا يدل على عاطفة وان الكذب فيه كثير والتكلف فيه لاحد له ، اريد تكلف المعانى وانا أعلم أن بشاراً مشغوف بعبدة وقل فيها

شعراً كثيراً جداً تغنى فيه المغنون وأعلم أن عبدة مالت اليه وكان بينها وبينه مودة ، ولكني اقرأ ما بقى لنا من شعر بشار فى عبدة فلا أجد فيه شيئا يمثل الحب الصادق القوى حقاً ، وقد أقرأ هذه الابيات فاعجب بها واتأثر لها واحسب الشاعر صادقا ولكنى لا ألبث أن أضحك لانى أعلم ان الشاعر كاذب وان صاحبته تعلم منه هذا الكذب وما أشك في انها كانت تضحك منه أيضاً وتقبله لجودته الفنية ليس غير . وهذه الابيات مشهورة يحفظها الناس جميعاً لبشار وهى .

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ... ونفي عنى الكرى طيف ألم
رفهى يا عبد عنى واعلمى ... اننى يا عبد من لحم ودم
ان فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم
واذا قلت لها جودى لنا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار لخدعنا الرجل عن نفسه فصدقناه وخيل الينا انه كان لحب عبدة لا ينام ، ولكن من يدرينا انه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذه ثم يزعم السهر والارق كما كان يزعم النحافة والنحول .

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها وهى لا تخلو من جودة، وأنا أرويها لان قصتها لا تخلو من عجب

ايها الساقيان صبا شرابي ... واسقيانى من ريق بيضاء رُودِ
ان دائي الظما وان دوائى ... شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كغر الأقاحى ... وحديث كالوشى وشى البرود

نزلت فى السواد من حبة القلـ ... ب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعـد ليال ... والليالى يباين كل جـديد
عندها الصبر عن لقائى وعندى ... زفرات يأكلن قلب الحديد

قالوا فطرب الوليـد وقال من لى بمزاج كأسى هـذه من ريق سلمى فيروى ظمئ وتطفأ غلتى ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه وقال ان فاتنا ذاك فهذا.

فى هذا الشعر متانة وجودة ورقة ولكني لا أحب أوله وربما استسخفته ولست أدرى كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبته؟ .. وأحسب ان هذه ليست صناعة السقاة. واذا كانت هذه القصة صحيحة فهى انما تمثل رقة هذا الشاعر الذى أحبه وأعطف عليه وهو الوليد بن يزيد الذى فاته ريق سلمى فمزج كأسه بالدمع يسفحه البكاء عليها. ولنترك غزل بشار وننتقل الى شيء آخر من فنون شعره ولكن فى ايجاز فقد أطلنا.

لبشار قصيدتان اشتهرتا بين الرواة اشتهاراً عظيما احداهما ميمية قدمها أبو عبيدة على ميميات جرير والفرزدق وفتن بها الاصمعى وتناقلها أهل بغداد وأعجبوا بها اعجابا عظيما ولهذه القصيدة قصة تمثل انما نفس بشار أيضاً. قالها لابراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ويحرضه فيها على المنصور ويهجو فيها المنصور. فلما قمعت ثورة ابراهيم وقتل خاف بشار فحول القصيدة كانه لم يمدح بها ابراهيم ولم يهج بها المنصور وكأنه هجا بها أبا مسلم الخراسانى فوضع أبا مسلم موضع أبي جعفر وحذف من أبيات

القصيدة ما لم يكن سبيل الى تحويله وهى :

أبا جعفر ما طـول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبـار يقتحم الردى ... ويصرعـه فى المـأزق المتـلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج ... عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسري رهطـه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس أحـلام نائم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة ... عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مقيما على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنـايا حاسرات العمائم
وقد ترد الايام غراً وربما ... وردن كلوحا باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى ... وكان لما اجرمت نزر الجرائم
فاصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ... ولا تتقى أشـباه تلك النقـائم
تجردت للاســلام تعفو سبيله ... وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله ... عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم
فرم وزرا ينجيك يا ابن سلامة ... فلست بنـاج من مضيم وضائم
لحى الله قوما رأســوك عليهم ... وما زلت مرءوساً خبيث المطاعم
أقوم لبسام عليـه جلالة ... غـداً أريحيـاً عاشقاً للمـكارم
من الفاطميين الدعاة الى الهدى ... جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم
سراج لعين المستضىء وتارة ... يكون ظلاما للعـدو المزاحم
اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحـة حازم
ولا تجعل الشوري عليك غضاضة ... فريش الخوافى قوة للقـوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خـير سيف لم يؤيد بقائم

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤما فان الحزم ليس بنائم
وحارب اذا لم تعط الا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ماقال بشار ، وهو صادق العاطفة فيها والناس صادقون حين استحسنوها ، هو صادق لأنه كان يكره بني العباس كرهاً شديداً ويؤثر بني علي ايثارا شديداً ، ولم يكن يكره بني أمية ولعله آسف على دولتهم ، فليس عجيبا أن يفرح لثورة العلويين ويغريهم بالعباسيين فى هذه الابيات المضطرمة المتأججة ، وكان هؤلاء العلماء الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً كعامة أهل العراق يظهرون لبني العباس غير ما يضمرون ثم كان الناس جميعا ينقمون من بني العباس ظلماً واستبدادا بالأمر وازدراء للزعماء من العرب ومن الموالى أيضاً . فليس عجيبا أن يحبوا شعر بشار وأبياته فى الشورى . فهذا الحب وهذا الاعجاب يمثلان قبل كل شيء ما تضمر الشعوب للملوك المبغضين اليها . على أن صدق بشار ليس وحده الذى يحلى هذه القصيدة ، فلفظها متين كما تري ومعانيها جياد وان كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة . أما القصيدة الأخرى فهى البائية التى مدح بها ابن هبيرة وقال فيها

اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وفيها هذا البيت المشهور الذى أعجب به الناس اعجاباً شديداً واستكثروه على شاعر ضرير وهو :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وليس البيت كثيراً على بشار فبشار نفسه ينبئنا بانه قلد فيه قول امرىء القيس .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

فاما تشبيه السيوف بالكواكب وتشبيه مثار النقع بالليل فشىء مألوف تحدث عنه الشعراء كثيراً وليس لبشار فيه الا هذه الصورة الشعرية التى لم يخترعها كلها وانما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى

وجملة القول فى بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جداً ولكن الجيد فى هذه المادة لم يكن صادقا فى شعره ولا مخلصاً ، وانما كان يتكلف المعانى فى أكثر الاوقات وكان يتكلف الالفاظ والاوصاف أيضاً ولم يكن محبباً ولا جذابا ولا لينا رقيق الطبع والحاشية وانما كان قويا جبارا مبغّضاً الى الناس مبغضاً لهم . واذا أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار حقا فهو فن الهجاء وقد عللنا هذا . وفى الحق انه قتل الهجاء وأن الهجاء قتله أيضاً فقد كان فاسقاً بل كان زنديقا ولم ينفعه تستره ولا تكتمه ولكن الزندقة لم تقتله وانما اتخذت وسيلة الى قتله . والذى قتله انما هو هجاؤه للمهدي بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاؤه لداود بن يعقوب وزير المهدى ولاخيه صالح بن داود . قال الرواة إن بشاراً وجد على المهدى وجداً شديداً حين حرمه وأعطي غيره من الشعراء فذهب ذات يوم الى حلقة يونس ابن حبيب النحوى فسأل هل هنا من يحتشم فقيل لا فانشد بيتين شنيعين فى المهدى ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوها الى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملها الى المهدى فى تحفظ وتملق واغراء . قالوا فغضب المهدى غضباً

شديداً وقال له يعقوب انه زنديق قد قامت عندى البينة عليه فأمر المهدى أن يضرب ضرب التلف فضرب سبعين سوطا مات لها . قالوا وقد وجد فى بيته طومار أثبت للمهدي انه لم يكن زنديقا ولا كافرا فندم المهدى لقتله . وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر ، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار يعلن فى المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

والبة بن الحباب (١)

ابان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك في انه كان أبعد الشعراء أثرا في عصره ، ولا أشك في أنه كان من أنبههم ذكرا ، ولا أشك في أنه كان من أشد امعانا في المجون واسرافا في الفسق والفجور وهو والبة بن الحباب . ولكني مع الاسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشيء ذي غناء ، لان الله لم يقدر لشعره البقاء ولا لاخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة، فذهبت حياته كما ذهب أدبه دون ان تكون لنا الى درسهما سبيل الا ان تكشف الايام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الاسفار فيه طرف من اخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون الى أن نعرض عن درسه الآن ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين الذين ندرسهم في هذه الفصول . نسجل اسمه بين اسماء هذا النفر لاننا واثقون بأنه قد كان منهم ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم في القول والعمل ايضاً ، فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لابي نواس تولى تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمجون ولما يتجاوز ابو نواس سن الغلمان ، ويظهر أنه قد كانت بين الاستاذ وتلميذه عشرة سيئة لم يتحرج من روايتها ابو الفرج ولم يتحرج من روايتها ابو نواس نفسه ولعل والبة هو الذى مهد لابي نواس

(١) نشرت بالسياسه في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ — ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤

هذه السبيل المنكرة التي سلكها طول حياته فجعلته مبغضاً وجعلته محبباً الى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته وجعلته محبباً لحسن شعره وشدة ظرفه وتقدمه في الأدب الى حد لم يبلغه كثير من معاصريه .

كان والبة بن الحباب هذا عربيا صميما من بنى أسد وكنا نود لهذا السبب نفسه ان تكثر لدينا أخباره واشعاره لنعرف كيف كان بلاء العرب الصريحين في الزندقة والمجون وهذا اللون من ألوان العبث . فلم احدثك الى الآن بعد الوليد بن يزيد الا عن الموالى او من يشك في عربيتهم . اما والبة فلم يكن مولى ولم يكن نسبه موضع شك . ومع ذلك فنحن مضطرون الى ان نكتفي بهذه الاخبار القصيرة المبتورة التي نقلها الينا ابو الفرج عن والبة . وهذه الاخبار لا تمثل لنا والبة اقل فجورا وعبثا من ابى نواس ولا من مطيع ولا من حماد . وربما كان اشد منهم صراحة في القول واسرافا في الفحش ، فالناس يتحدثون ان المهدى أو الرشيد كره اقامته ومنادمته لبيتين قالهما فجعل منادمته شرا على كل نديم . اما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه لانا لا نحفظ منه الا ابياتا ولكن ابا الفرج يحدثنا انه كان بارعا في وصف الخمر وما يتصل به من العبث والغزل والمجون . واذا ذكرنا الغزل فانما نذكر الغزل بالغلمان ، ويحدثنا انه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر وانه حاول ان يهاجى ابا العتاهية فلم يستطع أن ينال منه شيئا بل لم يستطع أن يثبت في بغداد وانما اضطر الى أن ينصرف عنها هاربا أو كالهارب

فلندع والبة اذن ولننصرف الى غيره من شعراء هذا العصر والى من ننصرف ؟ ننصرف الى ابان بن عبد الحميد اللاحقى . فهو خليق بأن نقف

عنده حيناً لا لأنه يمكن أن يقرن الى بشار أو الى مطيع أو الى أبي نواس فهو أقصر باعا وأضيق ذراعا من أن يثبت لرجل من هؤلاء في الشعر وقوته واختلاف فنونه وحسن لفظه ورقة معانيه وصدق لهجته، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء في هذه الخلال ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى ويفوقهم في بعضها وله نواح تستحق العناية وتدعو الى التفكير .

لم يكن خفيف الظل ولا محببا الى الناس وانما كان فيه شيء من الثقل ينفر منه ويصرف عنه وكان الذين يحبونه قليلين ، ولن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه . قلنا انه يثبت لهؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها ، يثبت لهم في الزندقة . فلم يكن أقل منهم عبثاً ولا مجونا أو قل لعله كان أقل منهم عبثا ومجونا في اللفظ ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم ، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة لا عن شك أو رغبة في اللذة والذين كانوا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين أحدهما يكره العرب ودينهم ويزدريهم ويزدري دينهم ويضمر لهم ولدينهم حقداً شديداً ، والآخر يظهر الاسلام ويتكلفه ويتمدح به ويحرص على أن يحسن رأى الناس فيه ، من هذه الناحية هو قريب من بشار ولكن بشارا غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه فكان الى العبث اللفظى ، وكان الى اللذة والهوى أقرب منه الى هذا الكفر والجحود يقومان على عقيدة ثابتة وعلى رأى سياسى بعينه

كان ابان يكره العرب ويزدريهم ولكنه كان فى الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب اليهم ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسيا قبل كل شىء يريد أن يثأر للفرس ويعيد سلطانهم الى الارض ، ولكنه لم يكن محمقاً ولا قصير النظر بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور فى العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل الى أن يزول سلطان العرب ويقوم مكانه سلطان فارسى فلم يكن يطمع فى ذلك ولا يسمو اليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ فى الانتقام للفرس ورد السلطان الفعلى اليهم ، اذا أخطأهم السلطان الشرعى واللفظى ، وهى التقرب الى الخلفاء وأخذهم من مواضع الضعف والسيطرة عليهم حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الامور ويعتمدون عليهم فى ذلك فيتركون السلطان الفعلى للفرس ويحتفظون لانفسهم بظاهر القوة واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول فى ذلك العصر بعد أن فشلت تجربة أبي مسلم ولم تنتج لصاحبها الا الموت ولا لحزبه الا الشر كله وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فاحسنوا العمل والتدبير وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة والامل البعيد يسعى اليه فى رفق وثبات حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم وأصابتهم تلك النكبة التى كانت أعظم وقعاً وأبعد أثراً من نكبة أبي مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة متصلا بهم أشد اتصال يستشيرونه

ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم جدها وهزلها، صعبها وهينها، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات، فغضب الشعراء لذلك وكان أشدهم غضبا أبو نواس الذى كان يكره البرامكة كرها شديداً كما قلت لك حينما كنت أدرس أبا نواس. غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة وكانت بينه وبين أبان مهاجاة تستحق أن نقف عندها حينا لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه ولا سيما وقد عجز أبان عن أن يرد على أبى نواس بنحو ما هجاه به أبو نواس، فقد هجاه أبو نواس فاتهمه بالكفر والزندقة اتهاماً صريحا منكراً لا يخلو من فحش، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية فرد رد الضعفاء فشتم أبا نواس وناله فى أمه وأبيه... ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة ولا يعفى من اثم، واليك القصيدة التى قالها أبو نواس يهجو بها ابان بن عبد الحميد، وهى تمثل رأى ابان حقا

شهدت يوما ابانا	لا در در أبان
ونحن حضر رواق الا	مير بالنهروان
حتى اذا ما صلاة الا	ولى دنت لاوان
فقام منذر ربى	بالبر والاحسان
وكلما قال قانا	الى انقضاء الاذان
فقال كيف شهدتم	بذا بغير عيان
لا اشهد الدهر حتى	تعاين العينان
فقلت سبحان ربى	فقال سبحان مانى

فقلت عيسى رسول فقال من شيطان
فقلت موسى نجى المهيمن المنان
فقال ربك ذو مقلة اذن ولسان
أنفسه خلقته أم من فقمت مكانى
وقلت ربى ذو رحمة وذو غفران
وقمت أسحب ذيلى عن هازل بالقران
عن كافر يتحرى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان
بعجرد وعباد والوالبى الهجان
وابن الاياس الذى نا ح نخاتى حلوان
وابن الخليع على ريحانة الندمان
انى وانت . . . .

فهذه القصيدة تمثل لا رأى ابان وحده بل رأى هذه الطائفة من الفرس الذين أظهروا الاسلام دينا ورفضوه فيما بينهم وبين أنفسهم ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضا وأبوا أن يؤمنوا الا بما هو فارسى لانهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهبا فى السياسة . ثم هى تمثل فى الوقت نفسه رأى أبي نواس فى أبان من الوجهة الادبية ، فهو يكره أن يقرنه الى مطيع وحماد والحسين ابن الضحاك الخليع ووالبة بن الحباب ، وفى الحق أنه لا يقرن الى هؤلاء من الوجهة الادبية كما قلنا ولكنه يفوقهم فى الزندقة والالحاد لانه كان يتخذ الكفر رأيا لا وسيلة الى اللذة . ولست أروي لك رد ابان على ابي نواس

فهو فحش كله وتستطيع أن ترجع اليه فى الاغانى ان شئت على أنه لا يدفع حجة ولا يبرىء من تهمة . وانظر الى هـذه الابيات التى قالها أبو نواس فى هجاء أبان دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وانما اراد ان يجزى شتما بشتم وسبا بسب . ولست أرويها كلها وانما أترك منها ما فيه فحش :

صحفت أمك اذ سمـ ـتك فى المهد ابانا
صيرت باء مكان التـ ـاء تصحيفا عيانا
قد علمنـا ما أرادت لم ترد الا أتانا

. . . .

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التى أعطاها من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة فكتب اليهم هذه القصيدة وستقرؤها فترى أن الرجل معجب بنفسه يدل بعلمه وأدبه ، تياه لاحداثيه وغروره وهى :

أنا من بغية الامير وكنز من كنوز الامير ذو ارباح
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح راجح على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ ـشة مما تكون تحت الجناح
لى فى النحـو فطنـة وانقـاد . . . .
ثم أروى من ابن سيرين للعلـ ـم بقول منـور الافصـاح
ثم أروى من ابن سيرين للشـ ـعر وقول النسيب والامداح
وظريف الحديث من كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلى تخلو الملوك وتلهو وتناجى فى المشكل الفداح

أيمن الناس طائرا يوم صيد　　لغـدو دعيت أو لرواح
ابصر الناس بالجوارح والخيـ　　ـيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله　　ـه على انني ظريف المزاح
لست بالنـاسك المشمر ثوبيـ　　ـه ولا الماجن الخليع الوقح
لورمى بي الامير أصلحه الله　　ـه رماحا ثلمت حد الرماح
ما انا واهن ولا مستكين　　لسوى أمر سيدي ذي السماح
لست بالضخم يا أمير ولا الفد　　م ولا بالجحـدر الدحـداح
لحية جعـدة ووجه صبيـح　　واتقـاد كشعلة المصباح
ان دعاني الامـير عاين مـني　　شمريا كالبابل الصياح

أرأيت شاعراً أشد غرورا وافتتانا بنفسه من هذا الشاعر . على أنه لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بابي نواس عند البرامكة فاغتاظ ابو نواس ونقض عليه قصيدته هذه فقال:

انت أولى بقلة الحـظ مـني　　يا مسمي بالبلبل الصياح
قد رأوا منه حين غنى لديهم　　أخرس الصوت غير ذي افصاح
ثم بالريش شبه النفس بالخفة　　مما يكون تحت الجناح
فاذا الشم من شماريخ رضوي　　عنـده خفـة نوى المسبـاح
لم يكن فيك من صفاتك شيء　　غير خلق مجحدر دحـداح
لحيـة ثطـة ووجـه قبيـح　　وانثناء عن النهى والصلاح
فيك ما يحمل الملوك على الخر　　ق ويزرى بالسيد الجحجاح
فيك تيه وفيك عجب شديد　　وطماح يفوق كل طماح

بارد الطرف مظلم الكذب ذوخر ق معيد الحديث نزر المزاح
فالذي قات فيك باق صحيح والذى قات ذاهب فى الرياح

كان أبان اذن مسرفا فى حب نفسه والاعجاب بها ، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان اتصل الهجاء بينه وبين أبى نواس كما اتصل بينه وبين رجل آخر كان صديقاً له وهو المعذل ، ولكن هجاءه قبيح ليس منه ما يصلح للرواية ، على أن المتانة تنقصه وهو من هذا الهجاء الذى تسمعه فتنفر من قائله لا ممن قيل فيه . ولم يكن أبان مغروراً ولا مفتونا بنفسه ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان شريراً قاسياً يؤثر الشر ، ويجد فيه لذة . وقد روى له أبو الفرج قصتين كلتاهما تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر كما أن كلتيهما تعطينا صورة من شعره ومن الحياة فى عصره . قالوا كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثقفى يقال له محمد بن خالد وكان عدواً لابان ، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة هى عمارة بنت عبد الوهاب مولاة جنان التى كلف بها أبو نواس واكثر فيها الشعر ، وكانت عمارة غنية موفورة الثروة فاغتاظ أبان لهذا الزواج وقال هذه القصيدة التى بلغت عمارة فافسدت زواجها :

لما رأيت البز والشارة والفرش قد ضاقت به الحارة
واللوز والسكر يرمى به من فوق ذى الدار وذى الدارة
وأحضروا الملهين لم يتركوا طبلا ولا صاحب زمارة
قلت لماذا قيل أعجوبة محمد زوج عمارة
لا عمر الله بها بيته ولا رأته مدركا ثاره

ماذا رأت فيه وماذا رجت ... وهي من النسوان مختارة

اسود كالسفود ينسى لدي ... التنور بل محراك فيثارة

يجرى على أولاده خمسة ... أرغفة كالريش طياره

وأهله في الارض من خوفه ... ان أفرطوا في الاكل سيارة

ويحك فرى واعصي ذاك بي ... فهذه أختك فراره

اذا غفا بالليل فاستيقظي ... ثم اطفرى انك طفاره

فلما وصل الشعر الى عمارة فرت واضاف ابان الى قصيدته هذه الابيات :

فقعدت نائلة سلما ... تخاف أن تعدده القاره

سرور غرتها فلا أفلحت ... فانها للخنساء غراره

لو نلت ما أبعدت من ريقها ... ان لها نفثة سحاره

أما القصة الاخرى فاشد من هذه قسوة ونكرا وأقبح منها عاقبة وأثرا . قالوا كان لا بان جار وكان يعاديه فاعتل علة طويلة وأرجف ابان بموته ثم صح من علته وخرج فجلس على بابه فكانت علته من السل وكان يكني أبا الاطول فقال له ابان :

أبا الاطول طولت ... وما ينجيك تطويل

بك السل ولا والله ... ما يبرأ مسلول

فلا يغررك من ظنك ... أقوال أباطيل

أري فيك علامات ... وللأشياء تأويل

هزالا قد برى جسمك ... ك والمسلول مهزول

وذبانا حواليك فوقوذ ومقتول
وحمى منك فى العظم فأنت الدهر مملول
واعلا ما سوى ذاك تواريها السراويل
ولو بالفيل مما بـ ـك عشر ما نجا الفيل
فما هذا على فيك قلاع أو دماميل
ومال بال مناجيك يولى وهو معلول
فان كان من الخوف فقد سال بك النيل
وذا داء يزجيك فلا قال ولا قيل

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب ودخل منزله فما خرج منه بعد ذلك حتى مات . قلت إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين فى فنون الشعر التى اعتادها الشعراء ولكنه يفوقهم فى شيء نحسب أنه هو الذي سبق اليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ؛ نعنى انه ابتكر فى الادب العربى فناً لم يتعاطه أحد من قبله وهو فن الشعر التعليمى وهو فن ليس له فى نفسه قيمة أدبية ولا سيما فى العصور المتحضرة كعصر العباسيين وانما قيمته فى تلك العصور التى لا حظ لها من علم ولا من حضارة والتى لا تنتشر فيها الكتابة ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ففى مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمى ويفيد لأنه أيسر حفظاً من النثر ولعل أول من سبق الى هذا الفن هو الشاعر اليونانى « هسيود » الذى عاش فى القرن الثامن قبل المسيح ونظم طائفة من القصائد فيها جمال شعرى لا بأس به ولكنه قصد بها الى تقييد طائفة — مما كان اليونان يرونه علما

فى ذلك الوقت ، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم كما نظم هذه القصيدة المشهورة التى تعرف بالاعمال والايام ، والتى بين فيها فصول السنة وما يلائمها من ضروب الزراعة وما يحتاج اليه الزارع من أداة وجهد وفن الى غير ذلك مما تجده فى هذه القصيدة الجميلة .

الى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد فى الأدب العربى فانشأ كثيراً من الشعر التعليمى طرق فيه فنوناً مختلفة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدث أبو الفرج انه نظم للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » ليسهل عليهم حفظه فاعطاه يحى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل بن يحى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته ، وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، ولكن صديقاً لى دلنى على كتاب أو قطعة من كتاب مخطوط توجد فى دار الكتب المصرية وهو كتاب الاوراق للصولى وفى هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، ولست أريد أن أروى لك منه الا شيئاً قليلا جداً فهو لا يستحق الرواية ولا العناية فى مثل هذا الحديث الذى نعنى فيه بالأدب والفن أكثر مما نعني بالكلام المنظوم وهذا أول النظم .

هذا كتاب أدب ومحنه   وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم   حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله   والسخفاء يشتهون هزله

وهو على ذاك يسير الحفظ　　لذّ على اللسان عند اللفظ
وانظر كيف افتتح باب الاسد والثور
وان من كان دنىء النفس　　يرضى من الارفع بالاخس
كمثل الكلب الشقى البائس　　يفرح بالعظم العتيق اليابس
وان أهل الفضل لا يرضيهم　　شىء اذا ما كان لا يغنيهم
كالاسد الذى يصيد الارنبا　　ثم يرى العير المجد هربا
فيرسل الارنب من أظفاره　　ويتبع العير على أدباره
والكلب من دقته ترضيه　　بلقمة تقذفها فى فيه

وعلى هذا النحو العادى الذى لا جمال فيه الا أنه برىء من الركة يمضى أبان في نظم كتابه . على انه فى هذا ناظم لكتاب معروف ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة روى منها الصولى طرفا وهذا أولها :

هذا كتاب الصوم وهو جامع　　لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل فى القرآن　　فضلا على ما كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبى　　من عهده المتبع المرضى
صلى الاله وعليه سلما　　كما هدى الله به وعلما
وبعضه على اختلاف الناس　　من أثر ماض ومن قياس
والجامع الذى اليه صاروا　　رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أما المفترض　　فرمضان صومه اذا عرض
والصوم فى كفارة الايمان　　من حنث ما جري على اللسان

ومعه الحج وفى الظهار ... الصوم لا يدفع بالانكار
وخطأ القتل وحلق المحرم ... لرأسه فيه الصيام فافهم
فرمضان شهره معروف ... وصومه مفترض موطوف
والصوم فى الظهار ان لم تعدد ... مظاهر يوما على محدد
والقتل ان لم يك عمدا قتله ... فان ذاك فى الصيام مثله
شهران فى العدة كاملان ... متصلان لا مفرقان
والحنث فى رواية مقبولة ... ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها فى العدة الايام ... للمحرم الحالق فى الاحرام
ثلاثة يصومها ان حلقا ... لا بأس ان تابعها أو فرقا

ولكننا قد بعدنا عن الادب وجماله وأمعنا فى الفقه إمعانا وكأنما نروى هـذه المنظومات التى حفظناها فى الازهر أيام الصبا . ولم يقف نظم أبان عند هدين الموضوعين بل يحدثنا أبو الفرج انه نظم قصيدة طويلة سماها دات الحلل تناول فيها تاريخ الخليقة وغير ذلك من موضوعات العلم وانتهى فيها الى المنطق فألم به ، ولم يرو لنا من هذه القصيدة شىء

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن . فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطمعته فنظم القصائد الاخرى ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال يضحى فى سبيله باشياء كثيرة

منها العقيدة والرأى . وكان يحسد مروان بن أبي حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلات الضخمة والجوائز السنية ، فقد انتهى الامر ببنى العباس مع مروان بن أبي حفصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت الف درهم فغاظ ذلك أبان بن عبد الحميد وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة فعاتب البرامكة وأنكر عليهم تقصيرهم فى الانتهاء به الى الرشيد حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان فقالوا له يجب أن تذهب مذهب مروان فتذم آل على ، فقال والله ما أستحل ذلك ثم أصبح فاستحله وقال قصيدة طويلة آثر بها بنى العباس على بنى أبى طالب وأثبت فيها حق بنى العباس فى وراثة الخلافة دون بنى على ودفعها الى الفضل بن يحيى فركب بها الى الرشيد فنالته صلاته وجوائزه . وهذا أول هذه القصيدة التى ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة فلم تكن كلها شيئاً الى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الاعمام

وأول القصيدة :

نشدت بحق الله من كان مسلما ... أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة ... لديه أم ابن العم فى رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده ... ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس أحق بتلكم ... وكان على بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه ... كما العم لابن العم فى الارث قد حجب

وهى طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبى ، وقد أجازها الرشيد

مع ذلك فأحسن جائزتها لانه لم يجز الادب وانما أجاز السياسة

وقد انتهى بنا القول فى أبان الى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هـذه الناحية ، أحدهما مروان بن أبى حفصة الشاعر السياسى لبنى العباس خاصة ، والثانى السـيد الحميرى وهو الشاعر السياسى لبني على خاصة وان كان قد مدح بنى العباس وظفر بجوائزهم . واذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية فسننتهى الى هذه النتيجة : وهى ان أبان بن عبدالحميد أشدهم نفاقاً وأكثرهم اتجاراً برأيه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ثم طمع فى أموال الرشيد فانكر العلويين وآثر عليهم بني العباس وهو يقسم ما يستحل ذلك : . . وفى الحق أنه لم يكن يحب آل على ولا بنى العباس وانما كان كغيره من هؤلاء الفرس الذين يذهبون مذهب البرامكة يتخذ التشيع للعلويين لونا سياسيا يخفي اطماعه ومآربه الفارسية . أما مروان بن أبى حفصة فأسرته كلها من أتباع بنى أمية وأنصارهم والغلاة فى مدحهم وتأييدهم ولكن الله أدال من بنى أمية لبني العباس فدار مع الايام ووجد فى ذلك مغنما فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس فى العطاء . وأما السيد الحميرى فعلوى المذهب صادق فى علويته مسرف فيها اسرافا لا يعدله اسراف ولكن الله ادال من بنى أميـة لبنى هاشم وكان السيد كغيره من الناس يحسبون أن الامر سيؤول الى العلويين ، فلما آل الأمر الى العباسيين دون العلويين انقسمت شيعة العلويين . فنهم من أعلن حقده وسخطه على بنى العباس فاشترك فى فتن العلويين وثوراتهم

ومنهم من اتقى فحفظ الود لآل على وجامل العباسيين وأخذ أموالهم ، ومن هؤلاء السيد الحميرى ولكن هذا بحث يحتاج الى عناية وتحقيق وروية ونحسب أن الخير فى ارجائه الى الاسبوع الآتى

مروان بن أبى حفصة (١)

السيد الحميرى

جمعت هذين الشاعرين الى أبان بن عبد الحميد فى آخر حديث الاربعاء الماضى ولم أجمعهما اليه عبثا ، وانما جمعتهما اليه لان بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة تجعل التفكير فى أحدهم وسيلة الى التفكير فى الآخرين . وليست هذه الصلة شعرية فهم يتفاوتون فى الشعر تفاوتا شديداً ، لكل منهم فيه مذهبه وسبيله كما سنرى . وليست هذه الصلة مجونا ولا عبثا ولا زندقة . فقد كان ابان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة . يستر ذلك ويخفيه حتى خدع الناس عن نفسه وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر ابان ، ولم يكن مروان بن أبى حفصه ماجنا ولا عابثا ولا زنديقاً وانما كان أشد الناس انصرافا عن اللهو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجد وحسن السيرة لاسباب سنبينها بعد حين . أما السيد الحميرى فلم يكن من المسرفين فى الاستهتار والتهتك ولا من الذين يتخذون العبث واللهو سيرة ودينا ، وانما كان رجلا كغيره من الشعراء الذين عاشوا فى العصر الجاهلى والأموى يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لامتجاوزا فى ذلك حداً ولا مستهتراً فيه ولا متحديا غيره من أهل التقى والدين . كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والاعشى ولكنه لم يكن يعكف

(١) نشرت بالسياسة فى ١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ ـ ٤ يونيو سنة ١٩٢٤

عليها عكوف أبي نواس ، ولم يكن يتغناها أو يشيد بذكرها ، كانت سيرته في ذلك سيرة الشعراء من العرب لا من الموالى . فسنرى فى غير هذا الحديث أن هناك فروقا جليه بين شعراء العرب وشعراء الموالى تفسر لنا هذا المجون الكثير الذى نجده فى صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة اذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجونًا ولا عبثًا ولا زندقة ولا تشابها فى المذهب الشعري والادبى ، وانما الصلة بينهم سياسية ، الصلة بينهم هذا المذهب السياسى الذى ذهبوه جميعًا دون أن يكونوا فيه جميعًا مخلصين ، فكلهم مدح بنى العباس وتقرب اليهم وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بني العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل.

رأينا فى الحديث الماضى ان ابان بن عبد الحميد لم يكن مخلصاً لبني العباس ولكنه كان مخلصاً لمال بنى العباس ، يشتهيه ويحرص عليه فعاتب البرامكة لانهم لم يقدموه الى الرشيد ، فلما قال له البرامكة إن الحق عليه فى ذلك أن يهجو العلويين ويؤثر عليهم بني العباس أظهر ترددًا وقال إنه لا يستحل ذلك ثم اصبح فاستحله كما قلنا وانشأ قصيدته المعروفة يثبت فيها ان بنى العباس أحق بوراثة الخلافة من بنى على ، ولم يكن أبان علويًا مخلصًا وانما كان قبل كل شيء فارسيًا مخلصًا وكان كغيره من هؤلاء الفرس يتخذ التشيع لعلى وآل بيته لونًا سياسيًا ، اذ كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل ان يسترد الفرس فى ذلك الوقت استقلالهم السياسى وحريتهم الدينية على نحو ما كانت عليه قبل الاسلام ، فلم يكن لهم بد من ان يصلوا الى السلطان من طريق الاسلام ومن طريق السياسة الحزبية الاسلامية فنصروا الضعيف

المضطهد من هذه الاحزاب وهو حزب العلويين. وكان هذا الحزب ضعيفاً ايام عثمان مضطهداً اقبح الاضطهاد طوال ايام بني أمية. فأيده الفرس وناصروه حتى وصلوا به الى السلطان. ولكنهم لم يصلوا بالعلويين الى السلطان؛ لان ظروفاً سياسية خاصة تدرس فى التاريخ لافى هذه الصحيفة الادبية دعت الى ان يستأثر بنو العباس بالحكم دون بني على، فلان الفرس ومرنوا وآزروا بنى العباس ليصلوا معهم الى السلطان وتشدد منهم فى مذهبهم العلوى قوم لقوا فى سبيل هذا المذهب منايام، ومن هؤلاء ابو مسلم ومنهم البرامكة ايضاً؛ وقد حدث فى ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث فى فرنسا ايام الثورة التى ظهرت سنة ١٨٣٠ فقد قام الجمهوريون بالثورة وهيئوا اسبابها وانتهوا بها الى الفوز حتى ازالوا سلطان «بوربون» ولكن ظروفا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين الى آل «اورليان» فقام ملك «لويس فيليب» وانقسم الثائرون المنتصرون الى قسمين متنازعين: قسم الجمهوريين الذين عملوا وضحوا وفازوا ثم قسم أنصار «اورليان» الذين اجتنوا ثمار الفوز وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قد اختاسوا الجمهورية Esaemoter la Républiq e وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم، فمنهم من مال الى الدولة الفائزة فانصرف من الحكم الجمهورى الى الحكم الملكى الحر، ومنهم من تشدد فى مذهبه الجمهورى ومضي يأتمر ويدبر الثورات، حدث هذا أو شيء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لنقض السلطان الاموى. فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم حتى اذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة لم ينتصر العلويون وانما

انتصر بنو هاشم جملة على بنى امية واستأثر بالحكم من بني هاشم آل العباس دون آل على . فانقسم الهاشميون على أنفسهم : منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ومنهم من أيد العلويين فمضى يأتمر ويثور ، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم ايضاً فاطمأن بعضهم الى السلطان القائم وأرجأ الثورة الى سنوح الفرصة ، وابي بعضهم الا أن يثور . وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين فى ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار « اورليان » سنة ١٨٣٠ . اما الفرس فقد ذهبوا نفس هذا المذهب وانقسموا نفس هذا الانقسام ، وكان ابان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا فى الحكم فأبوا أن يظهروا النصر لبنى العباس كما ابوا أن يظهروا السخط عليهم ، ثم رأى هذه الاموال الضخمة التى يفيدها مروان بن ابى حفصة من خلفاء العباسيين فطمع وعدل عن مذهبه السياسى . فلم يبق علويا معتدلا بل أصبح عباسيا متطرفا — هذا هو ابان بن عبدالحميد . اما السيد الحميرى فقد استطاع أن يكون علويا متطرفا وعباسياً معتدلا ، واستطاع ذلك فى وقت واحد . فكان من اشد الناس اخلاصاً لآل على يجهر بذلك ويعانه ولا يتحرج منه . وكان فى الوقت نفسه مسروراً بفوز بنى العباس ، لا لانهم فازوا على العلويين بل لانهم يمثلون بنى هاشم الذين فازوا على الامويين ، كان يجمعه الي أنصار بنى العباس الفرح بسقوط الامويين وكان يعلن هذا الفرح وينتظر أن يأتى يوم آل على ، وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً وانما كان يبث الدعوة لآل على ويبذل فى ذلك من الجهد والقوة مااستطاع ثم لم يكن فرحه بسقوط الامويين وحده هو الذى يدنيه من بنى العباس

وانما كان هناك شيء آخر يدنيه منهم وهو الرغبة والرهبة ، كان يطمع في أموال بني العباس ويفيد منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم فيتقيه بالقصيدة يمدح بها آل العباس بين القصائد الطوال الكثيرة يشيد فيها بآل علي . أما مروان بن أبي حفصة فكان شيئاً غير هذا كله، وكان رجلا يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما الا في شيء واحد هو مدح بني العباس وتأييدهم . كانت أسرة مروان بن أبي حفصة منذ عرفها الادب والتاريخ متصلة ببني أمية محسوبة عليهم ، ان قبلت هذا التعبير ، فقد كان أبو حفصة جده الاعلى عبداً فارسياً لمروان بن الحكم شهد معه حصار عثمان في داره، وأبلى في الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكرا في حماية مولاه مروان وانقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الاعمال قبل خلافته ونشأت عن ذلك صلة من صلات الموالاة القوية المتينة بين آل أبي حفصة وبين آل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بني مروان يؤثرون آل ابي حفصة على العرب وعلى أشراف العرب أيضا ، وحتى لقد أبي خليفة مرواني أن يسمع لنفر من أشراف العرب أقبلوا يشكون اليه أن رجلا من آل أبي حفصة قد أصهر الى العرب وخالف الحكم الشرعي الذي لا يبيح للموالي تزوج العربيات ، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى بل زجر الشاكين زجراً شديداً واضطر الحفصي الى أن يسعى لدى الخليفة في الرفق بهم والعطف عليهم ، وكان من آل أبي حفصة شعراء ناصروا الامويين مناصرة شديدة حتى أن أحدهم ندم على عصر الحجاج وزعم في شعر له ان الدين قد تعرض

للخطر من حادث الحجاج فاضطربت أمور العراق وظهر فيه الثائرون، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التي كانت بين الامويين وبين آل أبي حفصة وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر هو الذي نقصد اليه في هذا الحديث وهو خلق مروان بن أبي حفصة

فما كاد الحظ يديل من بني أمية لبني العباس حتى انتفض مروان بن أبي حفصة فاذا هو شاعر بني العباس ولسانهم السياسي ، واذا هو أشد الناس انتصاراً لهم وأبلغ الناس دفاعا عنهم ، واذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية معاً فقال .

أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الاعمام

يريد أن العباسيين أحق بوراثة النبي لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو أحق بوراثة ابن أخيه من الأسباط وذلك بحكم الفقه والميراث ، وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة فاضطربوا له اضطرابا شديدا واشتد سخطهم على مروان وأضمروا له الشر وأظهروا له اللعنة وما زالوا به حتى قتلوه كما سنرى . أما موقع البيت من العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ، وكان أثيراً عند المهدي والهادي والرشيد وكان مروان أول شاعر أخذ من العباسيين مئة الف درهم مرة واحدة، ثم كانت له عليهم دالة وكانت له عندهم عادات فتقرر في ديوان الخلافة ان جائزة مروان يجب أن تكون ألوفا تعدل أبيات قصيدته عدداً ، فكان اذا بلغ بقصيدته المئة بلغت

جائزته مئة الف . وهذا هو الذى غاظ أبان بن عبد الحميد فكان منه ما كان ، على ان أبان بن عبد الحميد حين اراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطع أن يكون شاعراً وانما كان فقيهاً يناضل عن رأى فى الفقه ففصل النظرية العباسية تفصيلا ودافع عن كلياتها وجزئياتها كما يقول أصحاب المنطق دفاع الفقيه . فكيف استطـاع مروان ابن أبى حفصة أن ينكر ماضيه وماضى اسرته وأن يجحد ولاء الامويين وينتفض فاذا هو عباسى أكثر من العباسيين ؟ سؤال ليس الجواب عليه عسيراً ولا فى حاجة الى بحث وتدقيق . فقد كان مروان بن أبى حفصة محباً للمال شرهاً اليه لا يشبع منه ولا يقنعه منه الـكثير . كان محباً للمال ، هذا التعبير ضعيف لا يصف مروان ولا خلقه وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ويقدسه تقديساً . وكان فيما بينه وبين نفسه يزدرى الامويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بانه يفوز باموال العباسيين فلو أدل الله منهم للامويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدسه . لم يكن اذن عباسياً مخلصا بل لم يكن شاعراً من شعراء الاحزاب بالمعنى الصحيح ألم يكن من هذه الالسنة السياسية الحزبية التى هى مرآة لقلوب أصحابها والتى تمثل الايمان الصادق والعقيدة الراسخة التى لا تؤثر المال على الرأى ولا تضن بالنفس على الموت فى سبيل الرأى السياسى . لم يكن مروان من هؤلاء وانما كان شاعراً مجيداً يستطيع أن يكسب المال بشعره وقد رأى فرصة سانحة فاحسن انتهازها وقدر له التوفيق فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر من قبله . وأمثال مروان

ابن أبي حفصة كثيرون في عصور الثورات والاضطراب السياسي والجهاد العنيف بين الاحزاب ، تجدهم في كل مكان وفي كل زمان ولكن الذين يبلغون من الاجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قليلون جداً ... كان مروان شرها الى المال ولكن الغريب من أمره انه لم ينتفع بهذا المال ولم يستمتع بشي منه وانما عاش عيشة بؤس وحرمان فكان من ابخل الناس وتستطيع أن تقول انه كان ابخل شاعر عرفته العرب الى ذلك الوقت ، وكان الناس يضربون الامثال ببخل مروان ويتندرون به في مجالسهم واحاديثهم ، فهم يقولون مثلا انه كان اذا قدم بغداد ليمدح خليفة من الخلفاء ويظفر بجائزته لم يأكل الا الرأس يبعث غلامه فيشترى له رأساً فيعيش عليه حيناً وقد كلم في ذلك فأجاب جواباً بديعاً ، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبخاً ولا تهيئة فهو مهيء وهو اذن يكفيه بعض المؤونة ، ثم انه لا يحتمل زيادة ولا نقصا فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه فهو ان أكل أذناً أو عيناً أو نحو ذلك ظهر سيده على ما أكل ، ثم ان له في الرأس مرافق فهو يتخذ منه ألوانا مختلفة دون أن يتكلف لذلك الاثمان التي يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألوانا مختلفة ، فهو يأكل الاذنين لونا والعينين لونا آخر والغلصمة لونا آخر وعلى هذا النحو، وزعم ناس من الرواة انهم مروا بمروان فنزلوا عنده في اليمامة فأطعمهم لحما فلما فرغوا من طعامهم دفع الى غلامه فلساً وآنية ليشتري له شيئاً من الزيت يطعم منه فذهب الغلام وعاد بالزيت ولكن مروان أتهمه بالسرقة والخيانة فجعل الغلام يسأله كيف اخونك في فلس واحد ، وجعل مروان يجيب أخذت الفلس واستوهبت

الزيت . . . ثم يتحدثون عن مروان نفسه انه قال ما فرحت لشيء قط كما فرحت يوما وقد أجازنى المهدى بمئة الف درهم فوزنتها فزادت درهما فاشتريت به لحما ... ويقولون إنه مر بامرأة فأضافته فلما أراد الانصراف وعدها ان بلغت جائزته مئة الف أن يهبها درهما فلم تبلغ جائزته الا ستين الفا وكان يريد معن ابن زائدة فوهب المرأة اربعة دوانق وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثى الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي المئة الف . . . وأحاديث مروان فى البخل والحرص كثيرة روينا لك منها هذا الطرف انصور لك حبه للمال تصويراً كافيا . على أن هذا التصوير فى حاجة إلى أن نتمه ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ولها قيمتها ، لانها تمس شعر مروان وهى انه مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له كان قد أنشأها فى مدح مروان بن محمد الاموى ثم كانت نكبة الامويين قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته فاستمع مروان لهذه القصيدة فأعجبته وكان أولها

مروان يا ابن محمد انت الذى زيدت به شرفا بنو مروان

فلما فرغ الشاعر من انشاد قصيدته تبعه صاحبنا الى بيته وقال له : انك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد فقد قتل مروان وذهبت دولته فبعنى هذه القصيدة لانتحلها لنفسى وتفوز انت بشيء من المال ، قال الرجل : قد فعلت فساومه مروان وانتهيا الى ثلاثمئة درهم ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والايمان المحرجة الا يذكر هذه القصيدة ولا يرويها ولا ينسبها الى نفسه فحلف الرجل وانصرف مروان الى بيته فغير

القصيدة وزاد فيها ونقص منها وحولها الى معن ابن زائدة فقال :

معن ابن زائدة الذى زيدت به شرفا الى شرف بنو شيبان

ووفد بها على معن فملأ يديه وأقام عنده مدة حتى أثرى .

على اننا نستطيع أن نعرف كيف اتصل مروان بن أبى حفصة ببني العباس فبلغ عندهم من الحظوة ما بلغ وظفر منهم بما كان يطمع فيه من مال. يظهر أنه فى أول أمره لم يكن يفكر فى الاتصال بهم ولا فى الارتقاء الى هذه المنزلة منزلة الشعراء الذى يبلغون قصور الخلفاء وينشدونهم فيها الشعر وكأنه كان قد ترك ذلك لاهل العراق واكتفى بحظه من معن بن زائدة وقد كان هذا الحظ عظيما موفوراً ، فجود معن معروف وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره . لكن معنا مات فحزن عليه مروان ورثاه رثاء كثيراً جيداً منه هذان البيتان :

أقمنا باليمامة بعد معن مقاما لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

ثم بداله فوفد على المهدى فيمن وفد عليه من الشعراء وكان اسمه وشعره قد سبقاه الى المهدى كما سبقاه الى المنصور من قبل ، ولعل اسم معن هو الذى رفع مروان حتى انتهى به الى قصور الخلفاء ، وفد على المهدي فأنشده قصيدة يمدحه فيها فسأله المهدى من انت ؟ قال شاعرك وعبدك مروان ابن أبي حفصة ، ، قال المهدى الست القائل ، وذكر البيتين السابقين ثم قال لقد ذهب النوال فيما زعمت فلا نوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله حتى أخرج . ومن قبل المهدى وجد المنصور على مروان لانه أحسن

مدح معن ووجد على معن لانه اكثر العطاء لمروان حتى انه لام معنا فى فى ذلك،ولكن معنا عرف كيف يخلص من لوم المنصور . كان المهدى اذن واجداً على مروان حاسداً لمعن بن زائدة ولهذا حرم مروان واهانه وكان مروان قد فهم هذا وكأنه قداستفاد من رحلته هذه فعرف الميول السياسية حول الخليفة واستفاد مما عرف . فأقام عامه فى بلده اليمامة ثم استأنف الرحلة فدخل على المهدى مع الشعراء وانشده وكان الخامس اوالسادس بين المنشدين ، وأنشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره وكان من حقها أن تخلبهم فانها آية من آيات الشعر السياسى وآية من آيات الجودة فى اللفظ والمعنى وصفاء الاسلوب ورقته فى غير ضعف ولا ركة ولا تبذل ومطلعها

طرقتك زائرة فحى خيالهـا ... بيضاء تخلط بالجمال دلالهـا

قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب الى الصبا فأمالهـا

فلم يكد يبدأ فى انشاده حتى أخـذ على الناس أهواءهم فاستمعوا له معجبين وبلغ بهم ذلك انهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتى الشاعر حتى اذا هجم على الموضوع السياسى وأخذ يحاج العلويين ويخاصمهم عن حق بنى العباس فى وراثة الخلافة أخذ المهدى يزحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما يسمع . واليك هذه الابيات التى استخفت المهدى وأحسب انها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ .

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تجحدون مقـالة عن ربكم ... جبريل بلغهـا النبى فقالهـا

شهدت من الأنفال آخر آية　　بتراثهم فاردتم ابطالها

فلما فرغ من انشاده سأل المهدى عن القصيدة كم هى قال مروان مائة بيت فامر له بمئة الف درهم ، وكانت هذه أول مئة الف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس . قال الفضل بن الربيع وهو الذى شهد هذه القصة فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان فانشده قصيدة يمدحه فيها فسأله ومن أنت قال شاعرك وعبدك مروان بن أبي حفصة فذكر له ذينك البيتين اللذين رثا بهما معن بن زائدة وقال له مثل مقالة المهدى وأمر به فأخرج ، قال الفضل بن الربيع فلما كانت أيام تلطف مروان حتى دخل على الرشيد فانشده قصيدته التى أولها :

لعمرك ما أنسى غداة المحصب　　اشارة سلمى بالبنان المخضب

وقد صدر الحجاج الا أقلهم　　مصادر شتى موكباً بعد موكب

طرب الرشيد وسأله عن قصيدته كم هي قال ستون أو سبعون فأمر له بعدد أبياتها ألوفا وكان ذلك رسم مروان فى القصر حتى مات

لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان ، وأنا آسف الأسف كله لانا لا نستطيع أن نتحدث فى ذلك عن علم ولا عن بصيرة اذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان الا أبياتا قليلة متفرقة . ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقاربا ان لم يكن صحيحاً ، وأكبر الظن انه صحيح . لم يكن مروان متصرفا فى فنون الشعر ، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين ، فلسنا نعرف له غزلا الا هذا الغزل الذى تعود الشعراء أن يبدءوا به مدائحهم ، ولسنا نعرف له هجاء الا هذا النحو من

الهجاء الذى يضطر اليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان فى هذا دقيقا جداً فهو لم يكن ينصر بني العباس على بنى أمية فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوهم فى حرية ، وانما كان السيف هو الذى انتصر للعباسيين من بني أمية ، وكان العباسيون فى حاجة الى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم ولم يكن هجاء العلويين يسيرا . كان الدين يأباه فى ذلك الوقت وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً فالعلويون من بنى هاشم وهجاؤهم هجاء للعباسيين ، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف فكان دفاعهم أبلغ وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء اولئك الشتامين المسرفين فى الشتم ، ثم لا نعرف لمروان مجونا ولا عبثا ، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثا وانما كان بخيلا ، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان ومن ضن على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه خمراً ولا ما تستتبعه الخمر . ثم لا نعرف لمروان فخراً وما نحسب انه فاخر أو مال الى الفخر ، فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضن بوقته وجهده على الفخر الذى لا يفيد . لم يعرض اذن الا لفنين اثنين : المدح والرثاء ، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء وهذا طبعى ، فهو راغب حين يمدح يطلب المال ويحرص على أن يظفر به ، فمعقول أن يجيد وأن يبلغ من الاجادة حظاً عظيما ، أما فى الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وانما بقي يعهد ويشكر صنيعه . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه الى

الاجادة الا أن يكون حساسا دقيق الشعور راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء ، وانما كان كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للمهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاء ، هو مدح لانه عزاء للخليفة الجديد ففيه ذكر للخليفة الراحل والثناء على وارثه وفيه المثوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء . أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي ، ونحن لا نحفظ منه الا متفرقات قليلة ولكنها تكفى لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه ، بل نحسب انه تفوق فى هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم الى قسمين متمايزين ، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يفتن فى وصف معن بالجود والكرم والشجاعة والحب ثم يفتن فى مدح بني شيبان الذين ينتمى اليهم معن ، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله ولكنه جيد المعانى منتقاها حسن الالفاظ صافيها . وأما القسم الثانى فهو هذا المدح السياسى الذى كان ينشده الخلفاء من بنى العباس ، وهو مدح ان شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسى الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصر العباسيين دون أن يزدرى خصومهم. وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد فقد أغضب العلويين لا لانه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لانه كان خصما قويا عنيداً ماهراً في الخصام وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته وقوة حجته فى الخصومة . ثم

هناك شيئان لا بد من الاشارة اليهما ليكمل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معللا ان صح هـذا التعبير . الأول ان مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الاقامة فى العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل المجون والعبث ، وانما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الي اليمامـة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره فى شعر مروان : فهو أقرب الى شعر الجاهليين والاسلاميين منه الى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية ، تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التى تخلو أو تـكاد تخلو من الدعابة والخفـة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة يمثل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقـد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا فى أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إيثاره على بشـار وأبى نواس ، لانه كان أقرب منهما الى الاسلوب البدوى القديم ولـكن أنى لهم ذلك وقد ساط الله عليهم لسان بشـار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحابوا هـذين الشاعرين ويتملقوهما وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وايثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقـد ، هذه الوجهة التى كان يعنى بها علماء اللغـة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والاسلوب ، لا يقاس الى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التى طرقها الشاعر وقرب المأخذ والدنو من أذهان الناس والقـدرة على تمثيل حياتهم

فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبى نواس بنوع خاص، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنه لا يخاف ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوى هو ابن الاعرابى الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لاحد من المحدثين بعده والذى كان ينشد مع الاعجاب الشديد هذه الابيات الجيدة من شعر مروان وهى :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها فى بطن خفان أشبل
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
لهاميم فى الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم فى الجاهلية أول
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا اجابوا وان أعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وان أحسنوا فى النائبات واجملوا

وكان ابن الاعرابى يقول لو أن معنا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الابيات لما بلغ حقه. الثانى أن مروان لم يكن سريعاً فى الشعر ولا متعجلا ولا مسترسلا مع الطبع وانما كان بطيئاً متمهلا. كان يجيد الشعر لانه كان يجوده. كان يسلك هذه الطريقة التى يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها فى هذه القصائد التى يسمونها الحوليات، كان ينفق أشهراً فى انشاء القصيدة واشهراً فى اصلاحها واشهرا فى عرضها حتى اذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لممدوحه خليفة كان أو وزيرا أو أميراً، فليس عجيبا مع هذه الاناة أن يخلو شعره مما يستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً. ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء

الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء . ولست أشير الا الى سيرته مع بشار فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة ، بل يقدر له قيمة القصيدة ماليا فيقول سيعطونك عليها كذا وكذا ... وقد صدق بشار مرتين فاظهر له مروان العجب من ذلك فقال بشار : ألم أقل لك انى أعلم الغيب ؟ ولم يكن يعلم الغيب وانما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم ، كان شديد الحرص على الاجادة فكان يشك فى شعره ويستشير فيه الشعراء والنحاة ولكنه كان مع ذلك معجبا بنفسه لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الاخطل والفرزدق وجرير . واسمع رأيه فيهم وفى نفسه فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول .

ذهب الفرزدق بالفخار وانما ... حلو القريض ومره لجرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب ... وحوى اللهى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد فمدحه ... وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جريت ففت غير مهلل ... بجراء لا قرف ولا مبهور
انى لآنف ان احبر مدحة ... أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ... ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أما رأي مروان فى النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الاعشى : ويقول هو اشعر الناس

ثم ينشد شعر زهير ويقول هو اشعر الناس ، حتى اذا انشد لطائفة كثيرة من الشعراء فرآهم جميعاً اشعر الناس ، قال ضاحكا الناس اشعر الناس ... ولست اعرف رأيا كهذا الرأى يمثل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

أظن انى قد صورت لك مروان بن ابى حفصة تصويرا مقاربا ان لم يكن صحيحا وكنت اريد ان اتحدث معه عن السيد الحميري كما ترى فى عنوان هذا الحديث ولكني اطلت فأرجىء السيد الى الحديث الآتى واختم هذا الفصل بموت مروان يقصه قاتله .روي صاحب الاغانى عن رجل يقال له صالح بن عطية الاصجم انه قال :

لما قال مروان:

انى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الاعمام

لزمته وعاهدت الله ان أغتاله فاقتله اى وقت امكنني وما زلت ألاطفه وأبره وا كتب اشعاره حتى خصصت به فأنس بي جدا ،وعرفت ذلك بنو حفصه جميعا فأنسوا بى ولم أزل اطاب غرة حتى مرض من حمى اصابته فلم ازل اظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه حتى خلالى البيت يوما فوثبت عليه فاخذت بحلقه فما فارقته حتى مات فخرجت وتركته فخرج اليه اهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارتفعت الصيحة فحضرت وتباكيت واظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن بما فعلت احد ولا اتهمني به

السيد الحميري (١)

علويون وعباسيون

اضطرنا ذكر ابان بن عبد الحميد الى أن نعرض للشعر السياسى فى صدر ايام العباسيين ، فذكرنا ابان بن عبد الحميد نفسه ورأينا مذهبه وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً كسادته البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين كسادته البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هـذا الشاعر الذى قصر شعره السياسى على بني العباس فدافع عنهم وناضل حتى حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة وهو مروان بن أبى حفصة الذى كان خليقاً أن يكون أموى النزعة ولـكن حبه المال وتهالـكه عليه قطع الصلة بينه وبين قدمه وحمله على أن يقف شعره على من كان بيدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسيًا ثالثًا يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين اللذين رأيناهما ، فهو لم يكن فارسيا ولا ميالا الى الفرس ولا متصلا بزعمائهم ولا متأثراً بحضارتهم تأثراً خاصاً ؛ وانمـا هو رجل عربى خالص لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير وامه من الأزد ، وهو اسمعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري .

ليس فارسياً ولا متصلا بأحـد من زعماء الفرس ، واذن فلم يكن

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٢ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ — ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤

تشيعه طلاء سياسياً كاذبا يستر الشعوبية وبغض العرب : ولم يكن اموى النزعة بل لم تكن بين أسرته وبين الامويين صلة مودة كما كانت الحال بين آل أبي حفصة والمراونيـة ، وانما كان الامر على عكس ذلك بالقياس الى السيد الحميري ، فان جده يزيد بن مفرغ هجا زيادا وآل زياد وعرف سجن عبيد الله بن زياد . وكان ابو السيد وامـه من الخوارج الاباضيـة ، فكانا يكرهان الامويين كما كانا يكرهان بني هاشم ، وكانا يشتمان معاوية كما كانا يشتمان علياً ، ومع ذلك فقـد كان السيد الحميرى شيعة لعلى وابنائه ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله فى حياتهم السياسية كلها وقف عليهم عمره وجهده وكاد يقف عليهم مدحـه وثناءه مخلصاً فى ذلك كله اخلاصاً لا يشبهه اخلاص ، ولم يكن السيد الحميرى نفسه يعرف كيف وصل التشيع اليه ، بل كان اذا سئل عن ذلك قال غاصت رحمة الله على غوصاً ، وكان يسمع ابويه يشتمان عليا ، ويبالغان فى شتمه فكان يكره ذلك ثم صح له مذهبه فى التشيع وظهر منه أبواه على هدا الرأى فيقال انهما هما بقتله فاستجار منهما بعقبة ابن سلم فأجاره حتى ماتا وتم له ميراثهما .

هو اذن يخالف ابان بن عبد الحميد فى أنه لم يكن فارسياً ولا ميالاً الى الفرس ، ويخالف مروان بن أبى حفصة فى أنه لم يكن امويا ولا ميالاً الى بنى أميـة ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين فى أنه لم يعف عن أموال بني العباس بل تقرب اليهم وأثني عليهم وأنشدهم شعره وأخـذ من أموالهم ما استطاع مع انه لم يكن يحبهم ولا يهواهم وانما كان هواه مع قوم آخرين هم آل على .

على أن امر السيد الحميرى يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضاً، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يأثم حين مدح العباسيين وظفر بجوائزهم، وهو لم يقل كما قال ابان بن عبد الحميد لا أستحل ذلك ثم استحله ، وانما كان السيد الحميرى يستحل ذلك ، كان يستحل أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بنى العباس بلسانه ويلعنهم فى قلبه فيظفر بمالهم ويتقى شرهم ، كان يستحل ذلك كما كانت تستحله عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية ويستبيحون لانفسهم أن يروا فى السياسة والدين رأيين، رأيا تجاريا ان صح هذا التعبير ، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ليعيشوا ويأمنوا ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن ، ورأيا آخر يخفونه على الناس جميعاً الا أنصارهم وأولياءهم وهو الرأى الذى يصطنعونه فيما بينهم وبين الله ، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الامويين وعليها سارت أيضا أيام العباسيين، وهى معقولة ممكنة التفسير ، فقد لقيت شيعة على من الاضطهاد وألوان المحن أيام بني أمية مالم يلقه حزب سياسى آخر اذا استثنينا الخوارج ؛ على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى لها ، وكانت شيعة على من وجوه الناس وأشرافهم وذوى الثروة والمكانة فيهم ، فلم يكن لهم بد من أن يداروا الناس ويتقوهم ليحتفظوا بثرائهم ومكانتهم حتى اذا سنحت لهم فرصة أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقهم فطالبوا به ودافعوا عنه، وعلى هذا النحو استطاع الكميت بن سعدون وهو الشاعر الذى يمكن أن يقرن الى السيد الحميري أن يمدح بنى أمية ويفيد من أموالهم وعلى هذا النحو استطاع « كثير » أيضاً أن يمدح الامويين ويصيب من جوائزهم بل على

هذا النحو استطاع الفرزدق أن يضمر ميله الى العلويين ويكتمه كتمانا وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بنى أمية .

فليس غريبا أن نرى السيد الحميري يمدح بنى العباس ويتقرب اليهم مع أنه كان من غلاة العلويين الذين أسرفوا فى علويتهم حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميرى علويا غاليا وكان من الرافضة وقد جنى عليه غلوه ورفضه هذان جناية عظيمة هى التى تعنينا وان كانت لم تعنه ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة فلم ينله أذي ولم يتعرض لخطر بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ولكن رفضه وغلوه بغضا شعره الى الناس وحملاهم على أن يعرضوا عنه الاعراض كله ، إما انهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه . وإما لانهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شيء فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عرفوا بكثرة الشعر ولم يتقدمهم فى ذلك أحد فى جاهلية أو اسلام . وهم بشار وأبو العتاهية والسيد . فاما بشار فقد ذهب شعره لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر ، وأما أبو العتاهية فقد حفظ له ديوانه لما كان فيه من زهد وورع ودين ، وأما السيد فقد ذهب شعره لما كان فيه من شتم السلف والطعن عليهم والاسراف فى الزراية بهم ، ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً وتحرج تحرجا عظيما فى رواية ماروى من أخباره وأشعاره القليلة ولو استطاع لأعرض عن ذلك اعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعره ويختلسون الفرص اختلاسا يتلون فيها شيئاً من شعره خفية دون أن

يظهر عليهم الناس وكان منهم من يأسف ويأسى لانه فيما بينه وبين نفسه يكبر هذا الشاعر ويقدر شعره ولكنه لا يستطيع لخوف أو لدين أن ينزله منزلته الصحيحة من الشعراء. كان الاصمعى يقدمه على طبقته لولا اسرافه فى شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما

ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم الذى كان يشتمل على الناس اذا ذكر السيد الحميري أو شعره والذى كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به على أن يتناقلوا شعره سراً فيما بينهم ، فمصدر هذا الخوف شيئان : أحدهما الدين والآخر السياسة . وما رأيك فى رجل لم يدع نقيصة من النقائص ولا مأثمة من المآثم ولا لونا من الوان العيب إلا رمى بها خيرة المسلمين وسلفهم الصالح ، لا يستثني من هؤلاء جميعا الا بنى هاشم وشيعتهم ، فاما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من اصحاب النبي مهاجرين وانصاراً فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أفتظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون ايام المنصور والمهدى على قرب عهدهم بالسلف وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعوه دون أن يأخذهم الالم وينالهم الاشمئزاز ويصيبهم شيء من الحرج فى دينهم يصرفهم عن هذا الشعر صرفاً عنيفاً أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة لابين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل على أيام السيد الحميرى ، وليس أدل على ذلك ولا أنطق به ولا أبلغ فى وصفه من هاتين الرسالتين اللتين

تبادلها المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوى حين خرج بالمدينة . هاتان الرسالتان اللتان أرويهما على طولهما تصفان لك هـذا العداء الشديد الذى كان يقسم بنى هاشم قسمين : قسما يوالى العباسيين وقسما يوالى العلويين وهما على هذا يبينان لك شيئاً آخر أشرت اليه فى فصل مضي وهو النظرية السياسية والدينية التى كان يعتمد عليها العباسيون فى إقامـة ملـكهم والتى دافع عنها مروان بن أبى حفصة ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية السياسية الدينية التى كان يعتمد عليها العلويون في المطالبة بحقهم والتى قامت عليها الثورات وسفكت من أجلها الدماء واستغلها الفرس لاهوائهم وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة كتب اليه المنصور يرغبـه ويرهبه ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ويبذل له الامان ان تاب وعاد الى رأى الجماعة فكتب اليه محمد بن عبد الله هذا الـكتاب .

« بسم الله الرحمن الرحـيم » من محمـد عبد الله المهـدى الى عبد الله بن محمد . (طسم تلك آيات الـكتاب المبين نتلو عليك من نبـأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسـدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأنا أعرض عليك من الامان مثل الذى عرضت على فان الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم

بفضلنا وان أبانا عليًا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ثم قدعلمت انه لم يطلب هذا الامر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الاسلام . دونكم ان الله اختارنا واختار لنا . فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ومن السلف أولهم اسلاما على ، ومن الازواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام حسن وحسين سيد شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين واني أوسط بني هاشم نسبًا وأصرحهم أبا ، لم تعرق فى العجم ولم تتنازع فى أمهات الاولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والامهات فى الجاهلية والاسلام حتى اختار لى فى النار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار وأنا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك الله على إن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الا حدًا من حدود الله أو حقًا لمسلم أومعاهد . فقدعلمت ما يلزمك من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأوفى بالعهد لانك أعطيتنى من العهد والامان ما أعطيته رجالا قبلى . فأى الامانات تعطينى ؟ أمان بن هبيرة أم أمان عمك عبد الله

ابن على أم أمان أبى مسلم . »

فانظر الى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية وهى أنهم ورثوا الخلافة عن النبي لأن أباهم كان وصى النبي ولأن أمهم بنت النبي وما كان لغيرهم أن يلى الخلافة وهم أحياء ثم انظر كيف افتخر بمكانه من النبي فى الاسلام والجاهلية وبهذه الكرامة التى خص الله بها أهل البيت . وكيف ذكر انه ابن خير الاخيار وخير الاشرار وخير أهل الجنة وخير أهل النار ، يريد أباطالب الذي مات ولم يسلم فيروى انه أقل أهل النار عذاباً ، ثم انظر كيف ختم كتابه بهذا التعبير يصف فيه المنصور لأنه نقض العهد وخان الذمة مع قوم آمنوه فقتل منهم من قتل وسجن منهم من سجن . وكان وقع هذا الكتاب شديداً فى قصر المنصور فقد انتدب الكتاب والامراء للرد عليه وأبي المنصور الا أن يرد بنفسه فكتب هذا الكتاب .

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجناة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والاباء ولا كالعصبة والاولياء . لأن الله جعل العم أباوبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحماً وأعظمهن حقاً وأول من يدخل الجنة غداً ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فان الله لم يرزق أحداً رزق الاسلام لابنتاً ولا ابناً ولو ان أحداً رزق الاسلام بالقرابة رزقه عبد الله أولاهم

بكل خير فى الدنيا والآخرة ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء .
قال الله عز وجل انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء
وهو أعلم بالمهتدين . ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة فأنزل
الله عز وجل : وأنذر عشيرتك الأقربين ـ فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان
أحدهما أبي ، وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل
بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً. وزعمت انك ابن أخف أهل النار عذابا
وابن خير الاشرار وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف
ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار.
وسترد فتعلم . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . أما ما فخرت به
من فاطمة أم على وأن هاشما ولده مرتين ومن فاطمة أم حسن وأن
عبد المطلب ولده مرتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين فخير
الاولين والآخرين رسول الله (صلعم) لم يلده هاشم الامرة ولا عبد المطلب
الامرة وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وامرحهم أما وأبا وأنه لم
تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الاولاد فقد رأيتك فخرت على بنى
هاشم طراً وانظر ويحك أين أنت من الله غداً فانك قد تعديت طورك
وفخرت على من هو خير منك نفساً وأبا وأولا وآخراً ابراهيم بن رسول
الله (صلعم) وعلى ولد ولده وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم
الا بنو أمهات أولاد وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله (صلعم) أفضل
من على بن حسين وهو لأم ولد ولهو خير من جدك حسين بن حسن وما
كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك

ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ولهو خير منك . أما قولك انكم بنو رسول الله (صلعم) فان الله تعالى يقول فى كتابه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم . ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابة قريبة ولكنها لاتحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ومرضها سراً ودفنها ليلا فأبى الناس الا الشيخين وتفضيلهما ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من على وسابقته فقد حضرت رسول الله (صلعم) الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ولم يروا له حقاً فيها أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان وقتل عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته . وأغلق دونه بابه ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه فاجتمع على خلعه ثم كان حسن فباعها من معاويه بخرق ودراهم ولحق بالحجاز واسلم شيعته بيد معاوية ودفع الامر الى غير أهله واخذ مالا من غير ولائه ولا حله . فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ثم خرج عمك حسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحي بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلاوطاء من المحامل كالصبي المجلوب الى

الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثنا كم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه لتقدمة مناله على حمزة والعباس وجعفر وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلماً منهم مجتمعاً عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة فاحتججنا له وذكرناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت ان مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم فصارت للعباس من بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فما نزل عنها في الجاهلية والاسلام ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليه الا بأبينا حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث وابوك حاضر لم يتوسل به، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبدالمطلب بعد النبي (صلعم) غيره فكان وارثه من عموميته ثم طلب هذا الامر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله الا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبى له والخلافة فى ولده فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا اسلام فى دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه واما ماذكرت من بدر فان الاسلام جاء والعباس يمون ابا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التى اصابته ،ولولا ان العباس أخرج الى بدر كرها لمات طالب وعقيل جوعا وللحق جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة ثم فدى عقيلا يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر وفدينا كم من الاسر وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنادونكم خاتم

الانبياء وطلبنا بثأركم فادركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا الا نفسكم والسلام عليك ورحمة الله » (الطبرى جزء تاسع)

اترى الى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ،وأن يقيم على انقاضها مفاخر العباسيين ؟ ثم اترى الى نظرية العباسيين فى خلافتهم هذه التى تقوم على أن العم احق بالوراثة من البنت وعلى أن العباس قد ورث النبي فابناؤه يرثونه وعلى أن بنى على قد نزلوا عن حقهم فى الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم ، وهو نفس الكلام الذي كان يردده مروان بن ابى حفصة وابان بن عبد الحميد وغيرهما من الشعراء السياسيين لبني العباس ، فالمنصور هو الذى وضع هذه النظريةواحتج لها بالفقة والسنة ، وجعلها مذهباً سياسياً ودينيا ناضل عنه الشعراء .

ثم انظر اليه كيف عير العلويين نكرانهم للجميل وكفرهم للنعمة فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم ويطلبون بدمائهم حتى ادركوا الثأر ومحوا العار واذلوا دولةبنىامية،فلم يروا من ابناء عمهم الا عقوقاوجحودا.

ولسنا نريد أن نحكم بينالعباسيين والعلويين فى هذه القضية فذلك شيء لا يعنينا الآن، وانما نريد أن نمثل العداءالذى كان بينهاتينالأسرتين ونحسبأن هذين الكتابين يمثلانهتمثيلا قويا وأنت تعلمانالحربأتصلت بين المنصور ومحمد هذا حتى قتل محمد فى المدينة وقتل أخوه ابراهيم فى البصرة ، وكل هذا يبين لك الى أى حد كان الناس يخافون منروايةالشعر الذي يدافع عن العلويين ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة فى ظل رجل قوى كالمنصور

على ان شاعرنا السيد الحميرى لم يكن من أنصار الحسن والحسين أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ، وانما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من ابناء على محمد بن خولة الحنفية والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وانما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ويتقرب منهم ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد . ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم وهى انه كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الايمان بالخرافات والاوهام ، ويظهر ان هذه الخصله جاءته من مذهبه نفسه فى الرجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العلويين والايمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل ومالا يقبل، فكان كل خير يمكن أن ينسب الى العلويين رضيه العقل أم لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب الى خصوم العلويين رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان يكفى أن يسمع رجلا من أهل القصص ورواة الاساطير يروى كرامة من الكرامات يضيفها الى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ويتخذ هذه القصيدة وسيلة الى ذم السلف والنعى عليه . وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية فى الوقت نفسه ، وهى انه كان يستبيح ضروبا من اللهو المنكر ويسرف فى شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العبث لا لأنه كان يجحد الدين أو يزدريه بل لانه كان يدل على صاحب الدين . كان يحب

النبى وآله ويمنحهم مودته ونصره ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه لما قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم وكان بنو هاشم وبنو على خاصة يطمعونه فى ذلك ويعترفون له به فاذا ذكر لهم انه يلهو ويشرب الخمر قالوا واى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت بل قال أحدهم ان من احب آل على لم تزل له قدم الا ثبتت له أخري . وعلى هذا كان السيد الحميرى يلهو آمنا فى دينه ودنياه ، يعتمد فى دينه على العلويين ويعتمد فى دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله ويعلم ان العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ويمقته كل المقت ويضمر للسيد عداء وحقداً لا يعد لهما عداء ولا حقد . ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العنبري قاضى البصرة للمنصور فقد كان العداء بينه وبين السيد شديداً وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة وكان السيد قد هجاه فاسرف فى هجائه فشكا ذلك الى المنصور فنهاه المنصور عنه وأمره أن يذهب الى القاضي فيعتذر اليه وأبى القاضى أن يقبل معذرته فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده فعلم السيد ذلك فجزع وفزع الى المنصور فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ولم يلبث سوار ان مات فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع أن تقرأ هجاء السيد لسوار في الاغانى فهو كثير لا أروى منه شيئاً لانى قد أطلت بل لست أروى من شعر السيد الا ابياتاً تمثل لك مذهبه الشعرى . على أنى

أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية الا بشيئين اثنين، أحدهما الاكثار الذي لم يشاركه فيه الا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة ان قصائده فى آل علي كادت تبلغ الثلاثة آلاف ،

الثانى انه كان سهلا مطبوعا شديد النفرة من الغريب وقد سئل عن ذلك فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس على أن يقول كلاما يعجب به الرواة ، وهذا طبيعى بالقياس الى شاعر سياسى يدافع عن حزب مضطهد كالسيد الحميرى فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم وانما ينظمه للعامة الذين يريد ان يتخذ منهم انصاراً

وانظر الى هذه الابيات يذكر فيها قبر الحسين :

امرر على جدث الحسين ... فقل لاعظمه الزكيه
آ أعظما لازلت من ... وطفاء ساكبة رويه
واذا مررت بقبره ... فأطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمطهر ... والمطهرة النقية
كبكاء معولة أتت ... يوما لواحدها المنية

وانظر الى هذه الابيات التى بعث بها الى المهدى يسأله الا يعطى آل ابى بكر وعمر من مال الدولة

قل لابن عباس سمى محمد ... لا تعطين بنى عدى درهما
احرم بني تيم بن مرة انهم ... شر البرية آخراً ومقدما
ان تعطهم لن يشكروا لك نعمة ... ويكافئون بان تذم وتشتما
وان ائتمنتهم أو استعملتهم ... خانوك واتخذوا خراجك مغنما

ولئن منعتهم لقد بدءوكم ... بالمنع اذ ملكوا وكانوا اظلما
منعوا تراث محمد اعمامه ... وبنيه وابنته عديلة مريما
وتأمروا من غير أن يستخلفوا ... وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد انعامه ... أفيشكرون لغيره ان انعما
والله من عليهموا بمحمد ... وهداهم وكسا الجنوب واطعما
ثم انبروا لوصيه ووليه ... بالمنكرات فجرعوه العلقما

وانظر إلى هذه الابيات يهنىء بها أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بنى هاشم ... فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كعب من ... كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها ... لا تعدموا منكم له لابسا
لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار الا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة ... لم يتركوا رطباً ولا يابسا

والآن وقد فرغنا من شعراء المجون والسياسة فى هذا العصر فسنحدثك عن شعراء آخرين لم يسلكوا فى شعرهم مجوناً ولا سياسة وانما ذهبوا مذهب غيرهم من الشعراء

القديم والجديد[1]

تقرأ فى الرسائل الفارسية « لمنتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة ، تناول فيها بالعبث والمزاح خصومه الادباء الذين كانوا يتنازعون فى عصره حول القديم والجديد وحول القدماء والمحدثين . تجد فى الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ويكلفون بها . قد ظهر حبهم اياها وكلفهم بها حتى انشئت أندية خاصة يختلف اليها الناس يقرأون الصحف ويتناولون الاخبار فى بعضها ويلعبون الشطرنج فى بعضها الآخر وتقدم اليهم كؤوس القهوة أثناء القراءة واللعب ، ومن بين هذه الاندية ناد خاص يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التى تقدم فى الاندية الاخرى كأن فيها شيئا يشحذ العقل وينبه الخاطر ويزيد البصيرة نفوذا والذكاء توقدا والالسنة انطلاقا ، فالذين يختلفون الى هذا النادى ويتناولون القهوة التى تقدم فيه أفصح الناس لسانا وأعذبهم بيانا وأقدرهم على التصرف فى فنون السحر وأبرعهم فى اصطناع ضروب الجدال ، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشاتمون ، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشاتمون ، كل ذلك فى ألفاظ مختارة منتقاة تقع وقع الصواعق وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة وكل هذا العنف وكل هذا الجدال انما يدور حول شاعر يونانى عاش أو لم يعش منذ الفى سنة يكبره بعضهم حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم حتى يبلغ به من الخسة دركا

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١ رجب سنة ١٣٤٢ — ٦ فبراير سنة ١٩٢٤

ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابذون ويقتتلون دفاعا عن هذا الشاعر أو هجوما عليه ويغتبط الكاتب بانه ليس هـذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التى اماتت هذا الشاعر قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته فلو قد أدركها اقتلته أو لنالته بشر من الموت ان كان هناك شر من الموت

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون فى القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين ويظهر أن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين لم يصرفاهم عن الخصومة ولم يلهياهم عن القديم والجديد ، فظلوا يختصمون فى القرن الثامن عشر كما كانوا يختصمون فى القرن السابع عشر وكما اختصموا من قبل ذلك وكما اختصموا من بعده حتى انتصر جديد على قديم ثم اصبح هذا الجديد قديما واختصم الناس حوله وحول جديد آخر فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم ويظهر ان هذه الخصومة ستستمر أبدا فى كل لغة وفى كل جيل وحول كل ادب على شرط ان يكون للغة والادب والجيل الذى يتصرف فيها حظ من الحياة . وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد اشكالا مختلفة وصورا متباينة تمثل العصر الذى تنشأ فيه والظروف التى تحيط بها ولـكنها مهما تختلف أشكالها وتتباين صورها ومهما تختلف العصور التى تنشأ فيها والظروف التى تحيط بها خصومة بين القديم والجديد لا مصدر لها الا الحياة من حيث هى حياة ولا منصرف عنها لانها الحياة

نقول هـذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل فى مجلة « الهلال » التى صدرت أول هذا الشهر وكاتب هذا الفصل الذى نسجل مسرورين أنه ممتع هو الاستاذ مصطفى صادق الرافعى كتبه يدافع به عن المذهب القديم فى الادب لان كاتبا آخر هو الاستاذ سلامة موسى كتب فى مجلة « الهلال » التى صدرت فى الشهر الماضي فصلا عن الاستاذ الرافعى هاجم فيه المذهب القديم فى الادب مهاجمة عنيفة وجعل فيه الاستاذ مصطفى الرافعى زعيما من زعماء هذا المذهب القديم ، فلم يكن بد للاستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعا عنيفا ولم يكن بد لقارىء « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ثم تساءل فيم يختصم الكاتبان وما أصل هذا العنف فى خصومتهما وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر فى الادب القديم أو فى الادب الجديد

الحق ان ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » وان ابطال هـذه الخصومة أكثر من الاستاذين سلامة موسى ومصطفي الرافعى واذا كان لنا ألا نسرف فى استقصاء التاريخ والا نذهب بالقارىء الى ما بعد به العهد فقد يكون لنا ان نذكر القارىء بان مصدر هذه الخصومة فى هذه الايام الاخيرة انما هى صحيفة الادب فى « السياسة » ، ففي الصيف الماضى اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعى وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها الى « السياسة » تحت عنوان « اسلوب فى العتب » وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار

خصومة طويلة انتهت الى الشتم والتنابذ ثم لم تكد تنتهى السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب اديب من كتاب فلسطين هو الأستاذ خليل السكاكينى رسالة حول الاسلوب القديم والاسلوب الجديد وحول الايجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتبا اديبا من كتاب سورية هو الامير شكيب ارسلان ، فرد عليه الامير ردا طويلا واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت الى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الاستاذ سلامه موسى للاستاذ الرافعى فى مجلة « الهلال » فعده مع الامير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم وأشار الى الكاتب الاديب خليل افندى السكاكيني على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الادب، ويخطيء من يظن ان هذه الخصومة ستنتهى غداً أو بعد غد ، ويخطىء من يسأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة فى الادب العربى كما استمرت فى الآداب الاخري وكما استمرت فى الادب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التى أنتجتها فى كل زمان وفى كل مكان فينتصر قديم على جديد ثم يصبح هذا الجديد قديما وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والادب العربي حظ من حياة .

هذه الخصومة اذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن، فليس الأدب العربى بدعا من الآداب وليس الادب العربى العصرى بدعا من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الاستاذ سلامه موسى ومصطفى صادق

الرافعي ، وليختصم الاديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ، وأن نطلب اليهم في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا فقد ظهر لنا الى الآن أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددوها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الاستاذ الرافعي فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » وما «المذهب القديم» ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق. ولو كانت الخصومة بينه و بين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا السؤال ولما احتاج الى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الاديبين خليل السكاكيني وشكيت أرسلان ، فهما يختلفان في الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى احدهما أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربيــة قد عمد اليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدرا منذ كان النثر العربي الى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغي أن يعمد اليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر الا بمقدار والا حين تدعو اليه الحاجة الادبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق دون أن يحددوا هــذا الذوق : أليس من حقنا أن نسألهم عن هــذا الذوق ما هو وما حده وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل إن الاستاذ الرافعي قد اجاب على هذا السؤال ، فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضاً من أن نظهر عليــه وانظر الى ما يقول في الذوق .

« وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء انما هو فهمه وأن الحكم على شيء انما هو أثر الذوق فيه وأن النقد انما هو الذوق والفهم جميعاً . . » نعترف بانا لا نفهم هذا الكلام، بل نعترف بانا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فاذا كان الذوق الادبي في شيء انما هو فهمه واذا كان الحكم على شيء إنما هو اثر الذوق فيه فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد انما هو الفهم والذوق جميعا ؛ ذلك أن الجملة الاولى صريحة في أن الذوق هو الفهم واذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، واذن فليسا شيئين وانما هما شيء واحد هو الفهم ، واذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل اولئك شيء واحد تدل عليه الفاظ مختلفة ... نعترف كما قلنا باننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، واذن فنحن لا نستطيع أن نعتقدها ولا نحكم فيها لان الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معا وتستطيع أن تدور في ذلك ماشاء الله ان تدور ... فما زال الاستاذ الرافعي مطالبا بان يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ونحسبه يحتاج في توضيحها الى عناء كثير ، ذلك انه يخيل الينا ان الذوق شيء والفهم شيء آخر وأن من الاسراف أن تقول إن الذوق هو الفهم ؛ فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك انا نفهم كثيراً من كلام الاستاذ الرافعي دون أن نذوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب الى أكثر من هذا فنزعم اننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها . واثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقي فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك

الى شيء يشبه الذهول لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون. فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئان مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن تفهم ما أراد الموسيقى . وللاستاذ الرافعى فى فصله هذا آراء كهذا الرأى محتاجة الى شيء من المناقشة، ومنها ما كان يحتاج الى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن الى الناس . انظر اليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد فى الادب ليس فى حقيقة الامر الا نتيجة لضعف في اللغة والادب العربي وقوة فى اللغة والادب الاجنبي ... وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد انما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم، فكانت قوتهم فى هذه اللغات والآداب وضعفهم فى اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم فى فنون سخيفة من القول، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وانكارهم للمذهب القديم ضربا من الاعتذار لانفسهم ولونا من الوان الغرور بانفسهم أيضا !... نعتقد أن الاستاذ الرافعى مسرف فى هذا الحكم ولعل مصدر اسرافه في هذا الحكم، ان صحت نظريته السابقة، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد، وهو انما أخطأ الفهم لانه أخطأ الذوق أو هو انما أخطأ الذوق لانه أخطأ الفهم، وتستطيع أن تدور مع الاستاذ

الرافعى حول الذوق لذى هو الفهم أو حول الدوق الذى ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا معا وقـد بلغ منكما الكلال والاعياء ، ولكن الاستاذ الرافعى معذور على كل حال فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحيانا فتخطئه الاصابة فى الحكم .
ونظن أن الاستاذ الرافعى حظا من الانصاف وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم فى اللغة الاجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وادابها، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . واذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفا وليس اعتذاراً لانفسهم وليس تعصبا للادب الاجنبي الذى تفوقوا فيه . وما نظن ان الاستاذ ينكر على خصمه سلامه موسى انه يفهم الادب العربى كما يفهم الادب الانكليزى ، ويستطيع ان يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقا أو ذوق ليس فهما :. وما نظن أن الاستاذ ينكر علينا نحن انا نستطيع أن نفهم الادب العربى وأن نفهم الادب الفرنسى وان نحكم فيهما احيانا عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم .·. ثم هب سلامه موسى وغيره من خصوم الاستاذ الرافعى وانصار المذهب الجديد ضعافا فى اللغة العربية وآدابها فهنالك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الاجنبية وادابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وادابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الاستاذ فى هؤلاء ، وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغات الاجنبية ولا

يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالاستاذ بعيـدا عن الموضوع الذى أتقنه وبرع فيه . فلسنا نشك فى أن الاستاذ أتقن الادب العربى وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف فى هذا التقليد وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد فكان القرآن الكريم جديداً وكانت الآداب العباسية جـديدة من بعض وجوهها وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ولكنه فى الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهبا جديدا ولا قديما ، واذن فقـد تجددت الآداب العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه ، والحق أن الآداب تجددت غير مرة وان العرب شعروا بهذا التجدد وانهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيـه الاستاذ الرافعى وأصحابه الآن ، وقد كتبنا فى هذا المكان من (السياسة) فصولا طوالا في العام الماضى فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس . واذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولهما وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديما ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضى عنهم قوم وانكرهم آخرون ، أم هل قبله الناس جميعاً وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ واذا كان الإستاذ لا ينكر ان العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفى النثر فهل

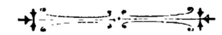
يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك فى ان أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا فى اللغة العربية وآدابها ولم يعتذروا لانفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . أكان أبو نواس ضعيفا فى اللغة العربية وادابها ؟ أكان ابو تمام ضعيفا فى اللغةالعربية وآدابها أكان المتنبي ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس وانتصر للجديد، وقد جدد ابو تمام وانتصر للجديد، وقد جدد المتنبى وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للاستاذ الرافعي أن الادباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما كما يفهمون الفرنسية وآدابها وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ومنهم من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائما على جهل أو ضعف أو تعصب وانما هو قائم على شىء آخر غير هذا كله قائم على الفهم قبل كل شىء .قائم على ان الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه انصار المذهب القديم ويرون ما لايراه انصار المذهب القديم ويشعرون بانهم يحيون فيريدون ان يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون ان يفهموا الناس وان يفهمهم الناس ، يعيشون من الجيل الذى هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الاجيال الماضية . ورأى آخر للاستاذ الرافعى يحسن أن نناقشه ولو قليلا . فهو يرى ان من الخير لانصار المذهب الجديد ان يولدوا من جديد وان يتعلموا الادب العربى من جديد ليأخذوا منه

بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا فى اللغة والادب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لان اللغة موروثة وهي ملك الملايين من الاعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب ان نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئا من عندنا أنفسنا

ونحن نعترف باننا نخالف الاستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ونسمح لانفسنا بان نراه عقما ونسمح لانفسنا بان نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها و نتخذها أداة للفهم والافهام حظا يجعلها ملكا لنا ويجعل من الحق علينا أن نضيف اليها ونزيد فيها كلما دعت الى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والافهام أو كلما دعا اليه الظرف الفنى . لا يقيدنا فى ذلك الا قواعد اللغة العامة التى تفسد اللغة اذا تجاوزناها . فليس لاحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف الى اللغة لفظا جديداً أو ندخل فيها أسلوبا جديداً ما دام هذا اللفظ أو هذا الاسلوب ليس من شأنهما ان يفسدا أصلا من أصول اللغة أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة، ولولا هذا وان اللغة ملك لابنائها يضيفون اليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما شاعت ولما استطاعت أن تفى بحاجات أهلها التى تتجدد وتتنوع بتجدد الازمنة وتبدل الظروف . والكتاب والشعراء فى كل عصر وفى كل مكان يضيفون الى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهالكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما ادخل ولا بما أضاف

ومما يحسن أن ينبه اليه الاستاذ الرافعي فى رفق ولين أيضاً انه يسرف فى سوء الظن باوروبا وأمريكا وفى سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوروبا ومريكا ولا يفهمها ولا يذوقها فهو يخطىء فى الحكم على أوروبا وأمريكا وهو مسرف حين يظن « أن فى أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ومن الرقاعة مذهباً ومن تسفل الشهوات مذهباً ومن الجنون مذهباً ومن كل شذوذ مذهباً ومن غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف فى ذلك فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم ان اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ليس شيئا جديداً وانما هو شيء عرفه الانسان منذ تحضر ومنذ فكر . ويسوءنا ان نقول ان الانسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضاً فما استطاعت الديانات ان تقضى على اختلاف المذاهب ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات وانما الانسان انسان فيه الخير وفيه الشر ، فيه الايمان وفيه الالحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الاباحة التى لاحد لها وفيه التحرج الشديد . والاستاذ الرافعى كغيره من انصار المذهب القديم مشفق كل الاشفاق على القرآن الكريم وعلى الاسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم ونظن من السخف والاطالة التى لا تجدى أن نهون على الاستاذ ونهدىء من روعه فليس ما يدعو الى الاشفاق ونظن اننا ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين في نصره نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الاستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا

يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها وانما يريد أن تكون اللغة حية نامية ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد سواء أرضى ذلك أم أنكره



فهرس

ص		ص	
١	القدماء والمحدثون	١٣٤	الغزل عند ابى نواس
١٦	الشعر فى العصر الاموى	١٤٤	جد ابى نواس
٢٤	الشعر فى العصر العباسى	١٥٦	خاتمة القول فى ابى نواس
٣٣	الأنديه الادبيه	١٦٩	الوليد بن يزيد
٤١	الألفاظ والمعانى	١٨٢	مطيع بن اياس
٥٠	أبونواس	١٩٧	حماد عجرد
٦٢	تمثيله لعصره	٢١٣	حسين بن الضحاك
٧١	الى الاستاذ طه حسين	٢٣٢	بشار بن برد
٧٨	كيف نفهم التاريخ	٢٦٢	والبة بن الحباب
٨٨	الخمر قبل ابى نواس		وابان بن عبد الحميد
١٠٣	الخمر عند ابى نواس	٢٧٩	مروان بن ابى حفصه
١١٥	» » » »	٢٩٧	السيد الحميرى
١٢٧	الغزل فى شعر ابى نواس	٣١٣	القديم والجديد

(كتب أخرى للمؤلف)

١ ذكرى أبى العلاء
٢ فلسفة ابن خلدون الاجتماعيه
٣ نظام الأتينيين (تعريب)
٤ صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان
٥ قصص تمثيليه
٦ روح التربية (تعريب)
٧ قادة الفكر «تحت الطبع»